كيف ترى نفسك
كما يراك الله

تأليف
جوش ماكدويل

ترجمة
يوسف شكري رمزي

See Yourself As God Sees You
By: Josh McDowell
© 1999 by Josh McDowell. All rights reserved.
All rights reseved, International Copyright Secured.

كيف ترى نفسك كما يراك الله

© الناشر: هيئة الخدمة الروحية وتدريب القادة
ص . ب ١٠٣٨ الإسكندرية
الرمز البريدي ٢١١١١ – مصر
طبعة ثانية
رقم الإيداع: ٢٠١٠/٣٦٢٨
الترقيم الدولي: 1-858-213-977
التحرير والإعداد الفني: إيجلز جروب
طبع في مصر: آلوكس للطباعة. المنطقة الحرة العامة– مدينة نصر

جميع حقوق الطبع في اللغة العربية محفوظة للناشر وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أو طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال بدون إذن مسبق من الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

المحتويات

مقدمة الناشر ٤

الجزء الأول: مَنْ أنت؟

الفصل الأول: أعمق من الظاهر ٧

الفصل الثاني: حل مسألة الهُوية الخاطئة ٢٣

الفصل الثالث: إلقاء الضوء على صورتك الشخصية ٣٥

الفصل الرابع: كيف تؤثر احتياجاتك غير المُشبِعة على هُويتك ٤٥

الجزء الثاني: مَنْ أخبرك بهُويتك؟

الفصل الخامس: تأثير عائلتك ٦٥

الفصل السادس: أول مَنْ رسم صورتك الذاتية ٧٧

الفصل السابع: التأثيرات الخارجية ٩٣

الجزء الثالث: الأسس التي تُبنى عليها هُويتك الحقيقية

الفصل الثامن: أساس الهُوية الحقيقية ١٠٧

الفصل التاسع: عملية التغيير ١١٩

الجزء الرابع: غيِّر نظرتك لتتوافق مع نظرة الله لك

الفصل العاشر: شعور جديد بالمحبة ١٣٥

الفصل الحادي عشر: شعور جديد بالقيمة ١٤٩

الفصل الثاني عشر: شعور جديد بالكفاءة ١٦١

الجزء الخامس: اكتساب هُوية جديدة

الفصل الثالث عشر: نحو بيئة تساعد على التغيير ١٧٥

الفصل الرابع عشر: الرؤية الأشمل لهُويتك ١٨٧

مقدمة الناشر

تنعكس الصورة التي يحملها الانسان عن ذاته على تصرفاته وقدراته.

كيف ترى نفسك؟ سؤال صغير وبسيط من ثلاث كلمات، ولكن لا يستطيع الكثيرون الاجابة عنه، ولربما لا يرغبون في الاجابة عنه.

يذهب البعض إلى فرضية وجوب رؤية النفس كما يراها الآخرون من حولنا، بينما يُفضل البعض أن يروا أنفسهم من منظورهم الشخصي.

في هذا الكتاب سنضيف إلى القاريء العزيز مفهوم لربما يكون جديدًا، وإن لم يكن جديدًا فهو مفهوم قديم متجدد يساعدك أن ترى نفسك كما يراك الله.

قد تخطيء في رؤيتك لنفسك فتقسو عليها مصغرًا ومشرذمًا لها سواء كان هذا يتوافق مع الواقع أو يدفعك وازع ديني أوأخلاقي لتقييمها بهذه الطريقة لتبدو متواضعًا. ما أجمل وأوقع أن ترى نفسك كما يراها الله كلي المعرفة!

سوف تكتشف الكثير من الحقائق التي ستعيد تشكيل حياتك، قد تغير كل مستقبلك إذا بدأت في مسيرة وخطى التغيير فتتجدد وتتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح.

يسر هيئة الخدمة الروحية وتدريب القادة أن تقدم لك هذا الكتاب الرائع راجين أن تتمتع برؤية نفسك كما يراك الله.

الجزء الأول
مَنْ أنت؟

الفصل الأول

أعمق من الظاهر

تخيل أنك تفتح الباب، وتستلم خطابًا خاصًا بك. وبمجرد أن تفتح الخطاب وتبدأ في قراءته، تشعر بالدهشة وبالاثارة، حيث تدرك أن هذا الخطاب يمكن أن يغيِّر حياتك، ويحقق أحلامك وطموحاتك المالية.

إذ يدعوك مكتب شئون العاملين بشركة عالمية كبيرة لتلتحق بوظيفة مريحة للغاية، وذات مستوى رفيع، ويصل راتبك المبدئي لثلاثة أضعاف راتبك الحالي، بالإضافة إلى زيادات سنوية كبيرة، وفرص للحصول على علاوات مذهلة. والمدهش أن كل المؤهلات المطلوبة في متناول يديك. وكل ما عليك هو أن تملأ الطلب المرفق، وترسله إلى المقر الرئيسي للشركة. وهكذا تجلس على الفور لتملأ الطلب.

لكن يشترط طلب الالتحاق بالوظيفة أن تخضع إلى اختبار شامل يكشف عن هُويتك، حيث يطلب مكتب شئون العاملين أن ترسل إليهم مجموعة من المواد التي تقدِّم وصفًا تفصيليًا عن هُويتك؟

فماذا ترسل لهم؟

ستبدأ على الأرجح بصورة فوتوغرافية تظهر فيها بأفضل وضعية وشكلاً مهنيًا، فتبحث في الدرج لتفرز مجموعة من الصور وأنت تُذكِّر نفسك أن تحرقها في يوم من الأيام، من بينها صورة جواز سفرك البشعة، ولقطة بزي السباحة تُظهر وزنك الزائد المنفر، وصورة قديمة تظهر فيها ملابسك وقصة شعرك الآن بصورة

مضحكة، لا تتماشى مع الموضة، لذلك تقرر أن تذهب إلى مصور محترف ليلتقط لك صورة مناسبة. فأنت بكل تأكيد تريد أن تظهر بأفضل صورة في هذا الموقف.

ثم تعد سيرة ذاتية بها سجلاً مطولاً ومفصلاً عن تعليمك وتاريخك المهني وأنشطتك في الكنيسة والمجتمع. وربما تضيف إلى مؤهلاتك قائمة بإنجازاتك الجديرة بالذكر، بما في ذلك المناصب التي توليتها، ومراتب الشرف والمكافأت التي حصلت عليها، والترقيات التي نلتها. وقد ترفق بعضًا من خطابات التوصية المليئة بالمديح من أصدقائك وزملائك الذين يعرفون كم أنت شخص رائع. وفي مقدمة كل هذا، يأتي خطاب تزكية من راعي كنيستك يبرز تضحياتك في خدمة الله والناس.

وهكذا ترسل ملفك، وتسترخي بابتسامة راضية واثقًا بأنه عندما يقرأ شئون العاملين ملفك من المؤكد ستصبح الوظيفة من نصيبك. ولكن بعد أيام قليلة، يرجع ملفك مع رسالة من شئون العاملين تقول: "ملفك غير كامل، أنت تخبرنا عن مظهرك الخارجي، وبراعتك في أداء وظيفتك، وما حققته أيضًا، لكنك لم تخبرنا كثيراً عن نفسك".

مَنْ أنت؟

عزيزي القارئ، ما شعورك إذا استلمت تلك الرسالة؟ ربما كنت ستقول: "لكني أخبرتكم مَنْ أنا. ماذا يمكنني أن أخبركم أكثر من ذلك؟"

فكِّر فيما تقول عن نفسك! ما الذي يشكل هويتك؟ فكما تقول الرسالة، إنها ليست صفاتك الجسدية، ولا تعليمك وتاريخك المهني الرائعين، ولا حتى إنجازاتك الكثيرة، ولا مواهبك الروحية هي التي تحدد من أنت. فضلاً عن أنها ليست أيضًا جنسيتك، ولا سلسلة نسب عائلتك، ولا فكرك الاجتماعي والسياسي، ولا حتى مكانتك في المجيء الثاني للمسيح. وبالرغم أن هذه المقومات مهمة، مثلما هي مهمة لك، فإنها لا تعبر عن هُويتك الحقيقية؛ لأنها لا تعدو سوى مجرد المظاهر الخارجية لهُويتك.

قال أحد الأشخاص: "الملابس تصنع الشخص"، لكني أشك جديًا أن يأخذ أحد بصحة هذه العبارة. ربما تجمِّل الملابس إنسانًا، أو تخفي حقيقته مؤقتًا، أو ترفع من شأنه، ولكنها لا تصنع شخصًا. ونحن نعلم أن الكيان الداخلي يتمتع بأكثر مما يمكن أن نجمِّل ونزين به أجسادنا من الخارج. وكل أنظمة الريچيم واللياقة البدنية الحديثة تعد بأن تحولك إلى شخص جديد، حيث تردد الآتي: تخلص من وزنك الزائد، قوِّ عضلاتك، وشاهد تغييرًا في حياتك. لكن هل تغيير شكلك يؤثر على هُويتك الحقيقية؟ بالتأكيد لا. ربما تشعر بشعور أفضل تجاه نفسك، وربما تنعم بحياة أطول، ولكن هُويتك الحقيقية لن تتأثر كثيرًا سواء كان جسمك رياضيًا تمامًا، أو تعاني من السمنة في بعض المناطق من الجسم.

فإذا كانت كل هذه المظاهر الخارجية ما هي إلا كماليات خارجية لهُويتك الحقيقية، فما هي هُويتك الحقيقية التي تحت هذه المظاهر؟ إن إجابتك عن هذا السؤال لن تجعلك مؤهلاً إلى وظيفة مريحة ومربحة أو غير مؤهل، ففي الواقع فهمك لنفسك هو أكثر أهمية لحياتك من أي وظيفة مريحة ومربحة.

تلعب هُويتك الأساسية- وبالأخص مفهومك عنها- دورًا حيويًا في مسار حياتك اليومية، ومقدار السعادة التي تشعر بها، وكيف تتعامل مع الآخرين، وكذلك كيف تتجاوب مع الله. فمن الضروري أن تتعرف على نفسك بعيدًا عن مظهرك الخارجي وعملك.

هل أنت سعيد بنفسك وبحياتك وأحيانًا تشعر بالإثارة وبالانطلاق؟ هل تنعم بالسلام الداخلي حتى حينما يكون مظهرك الخارجي وأداؤك وحالتك الاجتماعية ليسوا أفضل شيء؟ بدون إدراك واضح لهُويتك المختفية تحت هذه المظاهر الخارجية المتعددة، ربما تعاني من شعور بعدم الرضى، وبغياب الهدف في حياتك. وقد تعاني من شعور مستمر بخيبة الأمل مع نفسك، مثل ذلك الطالب الجامعي الذي قال لي: "چوش، أعرف عشرين شخصًا آخرين أتمنى أن أكون مثل أحدهم، فأنا غير راضٍ عن نفسي". أو ربما تعيش تحت سحابة مظلمة من الاكتئاب الشديد، مثل ذلك الرجل الذي كتب لي يقول: "أنا وحيد، ومضطرب، ولا أشعر أن في حياتي شيئًا يستحق الحياة من أجله. فأنا أبكي كل يوم حتى أنام،

وأحيانًا أخرى لا أتمنى سوى الموت".

ربما هذا السؤال البسيط "مَنْ أنت؟" جديد عليك، وربما ظللت تبذل قصاري جهدك في العمل على الجوانب الخارجية من حياتك لدرجة أنك فشلت في التعرف على نفسك بصفتك شخص ذو قيمة عظيمة، وجدير بهذه القيمة؛ لأنك خُلقت على صورة الخالق مكللاً بالمجد والبهاء (مزمور ٨: ٥).

شكلت العديد من المؤثرات المختلفة نظرتك عن نفسك. فإذا كنت أتيت من خلفية تعتقد في أفكار المدرسة السلوكية، فمن المحتمل أن ترى الحياة على أنها حادث كوني عارض، والناس فيها ليسوا أكثر من آلات مبرمجة. أمّا إذا كنت تؤمن بالنظرية الوجودية، فربما تعتبر حياتك نوعًا من العبث، في حين أنه إذا اتبعت أصحاب نظرية النشؤ والارتقاء، فربما ترى نفسك ليس إلا عبارة عن بعض الأطوار الوراثية المنحدرة من القردة. وفي أي من هذه النظريات، يبقى السؤال عن الهُوية مطروحًا للنقاش؛ لأن القيمة الإنسانية باتت في موضع شك على أحسن تقدير. فإذا كنا ونحن بشر لسنا أكثر من ذرات متناثرة عديمة القيمة في هذا العالم، فمن السهل إذًا أن نفترض أن قيمة الإنسان وأهميته ضئيلة للغاية.

ربما تكون قد تأثرت أيضًا بنظرية علمانية أخرى تقول: إن الإنسان معتمد على نفسه تمامًا ومستقل بذاته. ويدَّعي مناصرو هذه النظرية أن العلم والتكنولوچيا قد ابعدا معوقات الحياة البدائية، وأننا لم نعد مقيدين بخرافات ومخاوف أجدادنا. ولأننا كبرنا ولم نعد بحاجة إلى الله والدين، صرنا أحرارًا في اختيار الطريقة التي نعيش بها. ومرة أخرى، يصبح السؤال عن الهُوية الشخصية لا معنى له لهؤلاء الذين انتحلوا بشكل مُخزٍ دور الخالق في التجربة الإنسانية.

تعرّف على الخالق

قالت شابة عن إحدى صديقاتها معلقة: "صديقتي واحدة من أجمل فتيات العالم"، لكنها تعتبر نفسها قبيحة جدًا، وغريبة الشكل. وهذا هو السبب الذي جعلها لا تصدِّق أي شخص يعترف بحبه لها، لقد بدت وكأنها تقول لله: "يا رب إذا كنت تحبني، فلابد أنك مغفل!"

تمثلت الحقيقة الوحيدة التي قالتها هذه الفتاة في أن الله يحبها فعلاً. فقد حدث خللاً في تفكيرها لأنها فشلت في إدراك أن الله المحب بيده مفتاح هُويتها. فالله هو الوحيد الذي يعرف قيمتها الحقيقية، التي بكل تأكيد أغلى من مظهرها الخارجي أو أدائها أو مكانتها الاجتماعية. كما إنه الوحيد الذي يستطيع أن يشبع رغبتها واحتياجها إلى الشعور بالقبول وبالحب وبالأهمية.

يحتاج البشر في عصرنا هذا أن يدركوا أن الله خالقهم يحبهم ويقدِّرهم. وهذا ما ترد به المسيحية على بحث البشرية عن الهُوية وهدف الحياة. فالعلاقة الشخصية بالرب يسوع المسيح تطلق الإنسان حرًا ليتمتع بالصورة التي خُلق ليكون عليها. وعندما يتجاوب البشر مع المسيح فإنهم ببساطة لا يعتنقون فلسفة في الحياة، ولكنهم يبنون علاقة شخصية مع خالقهم المحب الوحيد الذي يعرفهم معرفة كاملة، ويحبهم محبة تامة. فمنذ الأزل وهم معينون ليكونوا أبناء ملك الملوك. والسؤال هو: مَنْ سيكون أكثر سعادة ورضىً في الحياة من شخص يتمتع بمثل هذه الهُوية؟!

مع بزوغ فجر الألفية الثالثة، نجد للأسف أناسًا كثيرين- حتى المؤمنين منهم- مضغوطين وغير سعداء وغير راضين ومحبطين. لماذا؟ لأن الكثيرون غير متأكدين من هُويتهم الحقيقية. في حين تتقبل ثقافتنا فكرة أن لنا قيمة ذاتية وأهمية شخصية متدنية وتروج على نطاق واسع لذلك، حتى أن الكنيسة تلام أحيانًا بسبب تعتيمها على قضية الهوية عندما تؤكد بشكل مبالغ فيه على طبيعة الخطية القديمة، التي قد صُلبت ودُفنت مع المسيح.

كما يمكن أن يتأثر شعورنا بهُويتنا تأثيرًا سلبيًا عندما يُشار إلينا "بأننا في الأصل خطاة مخلصين". فبعد أن تتحول اليرقانة إلى فراشة، لا نطلق عليها يرقانة متحولة. لأنها الآن أصبحت فراشة بالفعل. فالعتيق قد مضى والجديد صار. كذلك عندما نؤمن بالمسيح نصير خليقة جديدة: «الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو ٥: ١٧).

أتمنى عزيزي القارئ أن أساعدك من خلال هذا الكتاب لا لكي تفهم حقيقة

نفسك فحسب، بل أن تتمتع بكونك هذا الشخص أيضًا. أعلم من خلال خبرتي الشخصية أن النظرة الكتابية عن الله وعن نفسك وعن الآخرين ستكون قوة محررة في حياتك. فبمجرد أن تبدأ في التعرف بنفسك على الملك، ستبدأ في العيش كأمير أو كأميرة- فهذه هي هُويتك. فهُويتك بصفتك ابن لله ستحدث تغييرًا شاملاً في رؤيتك لحياتك ولصراعاتك ولعلاقاتك مع الله والآخرين.

هذه ليست هُويتنا

وقبل أن نرى ما يقود إلى هُويتنا الحقيقية. يجب أن نناقش السمات التي لا تعبِّر عن هُويتنا. يجب أن نرفض الخرافات السائدة في ثقافتنا المتمثلة في أن المظهر والأداء والمكانة الاجتماعية يشكلوا أساس هُويتنا كأشخاص.

الخرافة الأولى: المظهر هو كل شيء

يُعد المظهر الخارجي اللطيف والجذاب أكثر السمات الشخصية تقديرًا في ثقافتنا اليوم. فالناس يتساءلون بصورة مستمرة: "كيف يبدو مظهري؟" وهكذا نميل إلى تشكيل شعورنا بالقيمة من مدح الآخرين أو سخريتهم من مظهرنا.

يبدأ كل هذا في مرحلة الطفولة. والمحزن أن الأطفال يتسمون بالقسوة الشديدة في الطريقة التي يتحدثون بها عن المظهر. فإذا أطلق أقرانك عليك بعض الألقاب مثل: ذو أربع عيون، أو صاحب الأنف الكبيرة، أو شفتيك مثل شفتي القرد، أو صاحب الأرداف السمينة، سيتأثر شعورك بهُويتك تأثرًا سلبيًا، بل أن بعض الآباء والأمهات يزيدون من هذه القسوة. ذات مرة، أشارت إحدى الأمهات مازحة إلى ابنتها بأنها "أقبح شخص في العائلة". ولك أن تستنتج كيف كانت هذه الفتاة الصغيرة ترى نفسها بينما تكبر عامًا بعد الآخر. فإن كنت قد عانيت من مثل هذه السخرية، فالأرجح أنك تعاني من شعور داخلي بالهُوية مشوه تشويهًا سيئًا، وربما تقول لنفسك: "أنا شخص قبيح ولن ألفت انتباه أحد".

تظهر الأهمية التي نعوّل عليها على مظهرنا الخارجي في مقدار المبالغ الطائلة التي ننفقها على الملابس وأدوات التجميل والمجوهرات وقصات الشعر

واللياقة البدنية. ويرى الكثيرون أن تجميل المظهر الخارجي فحسب أمر غير كافٍ، فملايين طائلة من الدولارات تنفق سنويًا لتغيير المظهر الخارجي، وذلك من خلال جراحات التجميل وشفط الدهون والوشم. حيث يعدِّل الناس كل شيء اليوم من الأنف حتى سرة البطن، حتى أنهم يثقبون كل جزء يُمكن تصوره من الجسم ويزينون شكله. وكلما اقتربنا من الظهور "بصورة مثالية"، ازداد شعورنا بالقيمة عند أنفسنا والآخرين.

كانت سوزان موظفة شابة تتطلب طبيعة وظيفتها أن تكون محاطة بنساء فاتنات يوميًا. ومع أنها تتمتع بمظهر جيد جدًا وفقًا للمعايير المعاصرة، لم تكن ترى نفسها كذلك. ففي سنوات المراهقة، أخبرتها والدتها أن قوامها ليس مثاليًا، وبدلاً من أن تدرك قيمتها وجدارتها بصفتها خليقة الله، كانت ترى نفسها كإنسانة قبيحة لا تتمتع بالكفاءة، واقتنعت بأنه لن يحبها أي رجل أبدًا لأن قوامها غير مثالي. وازداد شعورها بالاستياء نحو نفسها بسبب عملها في وسط مليء بالنساء التي تعتبرهم جميلات. وبدأ إحساسها بعدم ثقتها في مظهرها يؤثر على كفاءتها في العمل، وفي النهاية، فقدت وظيفتها.

تعرض «سام» للتشوه نتيجة حادث في طفولته ترك أثر مرعب ودائم في وجهه، لذلك كان يعاني من الرفض في مرحلة المراهقة من أقرانه، وخاصة البنات. وتلخص شعوره المشوه بهُويته في عبارة واحدة هي «عجيب الخلقة»، ونتيجة لذلك انطوى «سام» اجتماعيًا، وهرب إلى عالم وهمي، فكان يقضي ما يزيد عن عشرين ساعة في أسبوعيًا في مشاهدة الأفلام. وربما اعتبر أيضًا ظلام صالة العرض بالسينما مكانًا مناسبًا ليعيش الخلقة العجيبة التي وضع نفسه فيها.

يتشكل شعورنا بهُويتنا إلى حد ما بالصورة التي يبدو عليها مظهرنا، أو نعتقد أننا نظهر بها للآخرين. فنحن نعتقد في اللاوعي، أن الذين يتمتعون بالجمال يحظون بتقدير وبقيمة أكبر، وحيث أن الجميع يريد أن يحظى بتقدير كبير، لذلك يصارعوا حتى يتمتعوا بالجمال.

ولكن هل تتحدد هُويتنا الحقيقية بمظهرنا؟ بالطبع لا، إنها خرافة. ولو كانت

حقيقة، لما جاء يسوع بكل حب للبُرص وللفقراء وللعرج وللعميان، هؤلاء الذين لا يمت مظهرهم الخارجي بصلة للوسامة أو للجمال وفقًا للمعايير البشرية. ونحن نشكر الله أن هُويتنا بصفتنا خليقة الله أعمق من أن تتحدد بمظهرنا. ويذكرنا الكتاب المقدس أن «الإِنْسَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ, وَأَمَّا الرَّبُّ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْقَلْبِ» (١صم ١٦: ٧).

وهنا لا أقصد أن المظهر الخارجي غير مهم. فلا عيب أن أتمتع بأناقة المظهر، وأرتدي ملابس أنيقة، وأن تهتم بجسدك حتى تظهر في أفضل حالاتك. ولكن الخطأ أن أفعل ذلك لكي أكون شخص بعينه. ولأنك خليقة الله المتميزة- بغض النظر عن مظهرك- فأنت بالفعل لك قيمة وجدارة غير محدودتين.

الخرافة الثانية: عملك هو هويتك

تنادي خرافة أخرى عن الهُوية بأن الأداء يحدد قيمتنا وهُويتنا. فنحن نعيش في مجتمع يهتم بالعمل، ويقيِّم الإنسان بناءً على مقدار ما يفعله ودرجة إتقانه له. وفي عدة مجالات، يُعد معيار الكفاءة محل مفاضلة. فالذين يجتهدون أكثر في أعمالهم، أو يقضون ساعات أطول من زملائهم، يتوقع لهم أن ينالوا مكافأة بالترقية. وفي هذا المناخ، نخطئ في ميلنا إلى الربط بين هُويتنا والعمل الذي نقوم به خاصة عندما نُقارن أنفسنا بما يفعله الآخرون. ووفقًا لذلك، ربما نشعر بنوع من التهديد عندما ينجح شخص آخر، أو ربما نشعر بكبرياء مريض عندما تفوق قدراتنا قصور إنسان آخر.

أعرف هذه المشاعر من واقع خبرتي الشخصية. فمنذ سنوات طُلب مني أن أعظ في مؤتمر للعُزّاب بولاية فلوريدا، لكني لم أستطع الحضور، لذلك اقترحت أن يقوم قائد المؤتمر بالاتصال بزميلي السابق في الدراسة بكلية «ويتون»، وهو صديقي العزيز «ديك برنيل»، ويطلب منه أن يعظ في المؤتمر بدلاً مني. لكن قائد المؤتمر قال: "نحن لا نعرف «ديك برنيل»"، فأجبته "ثق بكلامي، واتصل به، ستحبه مجموعتك".

وبعد انتهاء المؤتمر، اتصل بي قائد المؤتمر وقال ضاحكًا: "نحن سعداء أنك

لم تستطع الحضور، كان «ديك برنيل» رائعًا". ففكرت لدقائق قليلة أن صديقي «ديك» بدا أنه يمثل تهديدًا كبيرًا بالنسبة لي. هذه المشاعر السلبية أيقظتني بإنني أبني هُويتي وشعوري بالأمان على خدمة الوعظ التي أقوم بها. ومع ذلك، بدأت أعمل على هذه المشاعر، ثم بعد ذلك كنت قادرًا على أن أشارك هذه القصة مع آخرين قائلاً بكل صدق: "إن تعليق قائد المؤتمر على عدم حضوري كان أحد أكثر الأحداث فائدة في نموي الروحي هذا العام".

وبعد شهور قليلة، طُلب مني أن أعظ في مؤتمر للعاملين في شركة طيران. وهذه المرة منعني المرض من قبول الدعوة، فرشحت مرة أخرى صديقي «ديك». وبعد فترة، بينما كنت على متن طائرة، قابلت واحدة من العاملات كانت قد حضرت المؤتمر وقالت لي: "كان مرضك من تدبير الله، فكل العاملين أحبوا «ديك»". وهذه المرة امتلأ قلبي في الحال بالعرفان بالجميل لصديقي «ديك برنيل» وقدرته على التواصل مع مَنْ حوله.

وبعد مرتين من دعوة «ديك» ليعظ بدلاً مني ثم أجد بعد ذلك الناس يستمتعون جدًا بشكل لا أستطيع أن أقدمه إليهم، أشعر بكل تأكيد بالسرور جدًا لأن هُويتي مبنية على ما هو أعمق من أدائي. ففي يوم من الأيام، كانت مثل ردود الفعل هذه تهددني وتهدد صداقتي «بديك»! واليوم أتمنى أن يكون لديَّ مئة شخص مثل «ديك» حتى أرسلهم بدلاً مني!

إن الشخص الذي يبني هُويته على أدائه في العمل غالبًا ما يكون مدمنًا للعمل. والعديد منا لديه قدر من هذه السمة في تكويننا. وعادة ما يعاني الخدام والمؤمنون العاملون في مجال الخدمة من وباء إدمان العمل، لأنهم يشعرون أن قيمتهم عند الله تعتمد على القيام بعملهم في الخدمة وتحقيق الإرسالية العظمى. ولا يشعر المدمنون للعمل بالرضى عن أنفسهم، إلا عندما يعانون من شدة الإعياء نتيجة العمل لساعات طويلة. قالت سيدة: "أنا فعلاً أشعر بالسعادة عندما يأتي الليل وأكون متعبة جدًا حتى أنني بالكاد أستطيع التحرك".

كما قال لي صديق شخصي إنه خاض معركة مع هذا النموذج المألوف الذي

يضع القيمة والهُوية على قدم المساواة مع الأداء، فقد تربى في بيت مسيحي، وبصرف النظر عن إتقانه للمهمة الموكلة إليه، فإن والديه كانا دائمًا يطالبونه بأداء أفضل. فلم يسمع منهما مطلقًا كلمة "أحسنت". وكان يبدو له دائمًا أنه من الصعب الوصول إلى إعجاب والديه به، وبالأخص والده. وقال لي: "إنني أتسلق دائمًا في البيت جبلاً من الصعب الوصول لقمته".

وحتى الآن ومع أنه أصبح شابًا ناضجًا، يجد صديقي نفسه يعمل بجدٍ حتى ينال إعجاب والديه. ومع أن كلاً منهما قد توفى الآن، فإن معاييرهما عن الأداء تعيش في داخله. ولأنه لا يستطيع أن يقوم بما يكفي لإشباع رغبته الداخلية المدمنة للعمل، فإنه لا ينعم بالسلام مع نفسه.

هل لديك ميول نحو إدمان العمل؟ ربما تظهر هذه الميول في صعوبة أن تحصل على وقت للاسترخاء. هل بوسعك؛ أن تأخذ إجازة ليوم واحد من حين لآخر لتستمتع بوقت فراغك، وتقضي وقتًا في المرح؟ هل لا تزال تستطيع أن تجلس لتقرأ أو لتسترخي بدون أن تشعر بالقلق على المهام التي تحتاج أن تقوم بها؟ يعاني مدمنو العمل من الإحباط عندما تتعطل أنشطتهم بسبب الإجازات وعطلة نهاية الأسبوع أو ظروف المرض أو السن أو البطالة.

فليس من الخطأ أن تعمل بجد ولساعات طويلة، لكن إذا كان يجب عليك أن تتمتع بالنشاط حتى تشعر بالرضا تجاه نفسك، فربما تكون هُويتك معتمدة على أدائك بدلاً من قيمتك غير المتناهية في عيني الله بعيدًا عن أي شيء تحققه. عندما اختار الله تلاميذه الاثني عشر، دعاهم أولاً أن "يكونوا معه"، ثم بعد ذلك- «أرسلهم ليكرزوا، وليكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين» (انظر مر ٣: ١٤، ١٥). ذات مرة، قال شخص: "قد خلقنا الله لنكون كائنات بشرية وليس آلات بشرية عاملة". ولا يمكن لأي مقدار من الأنشطة التي تقوم بها من أجل الله أن يحل محل كونك ابنًا له.

الخرافة الثالثة: لن تصبح شيئًا إلا إذا كان لك نفوذ

تظهر الخرافة الثالثة المشهورة عن الهُوية في السؤال عن "كم أنا مهم؟"

وتتركز هذه الخرافة حول قضية المكانة الاجتماعية. لا يشعر الكثيرون بالرضى عن أنفسهم إلا إذا كان لهم قدر من السلطة أو النفوذ أو السيطرة على الآخرين. حيث تتلخص هُويتهم في مقدار ما يحققونه من مكانة اجتماعية. ويندفع هؤلاء الأشخاص في السعي وراء مواقع بارزة في العمل والسياسة والكنائس والعلاقات حتى يشعروا بأن حياتهم لها قيمة وفائدة.

كان «چاك» و«جريس» زوجين مؤمنين يتميزان بدماثة الخلق في بداية الخمسينات من عمرهما. وعندما كبر أطفالهما وتركوا البيت، ابتدأ چاك وجريس في تكريس المزيد من الوقت لكنيستهما بالعمل كمتطوعين. وقد انضما للخدمة في لجنتي مدارس الأحد، وقيادة مجموعات دراسة الكتاب. ولأن چاك عضو جديد متلهف ونشيط في لجنة إعداد مناهج التعليم المسيحي، عرض أن يتولى رئاسة اللجنة. ولأنه لم يكن لأحد آخر وقت لهذه المهمة، قبلت اللجنة عرضه على الفور. بينما التحقت جريس بخدمة دراسة الكتاب المقدس للسيدات، وسريعًا ما أصبحت قائدة لمجموعة صغيرة، وعضوة في فريق القادة المسؤولين عن هذه الخدمة.

ولم يمضِ سوى وقت قصير في أدوارهما الجديدة التي قبلوها، حتى ابتدأ چاك وجريس في الحصول على مزيد من النفوذ بطريقة غير مباشرة. واستطاع چاك أن يقنع اللجنة بتغيير منهج التعليم المسيحي إلى المنهج الذي كان يستخدمه في كنيسته السابقة. ولأن اللجنة أرادت الاحتفاظ بچاك، وافقت على طلبه، مع أن تغيير المنهج دمر الميزانية المخصصة لذلك، وأثار تمردًا بين بعض أعضاء فريق التدريس الذين كانوا مسرورين وراضين بالمواد الدراسية الموجودة سابقًا. وهكذا أوضح چاك أنه قد يرحب بالعمل لبعض الوقت كمدير التعليم المسيحي.

وفي الوقت نفسه، تولت «جريس» مركزًا قياديًا أكبر في خدمة السيدات. وابتدأت تستخدم مادة دراسة الكتاب الخاصة بها في مجموعتها الصغيرة بدلاً من المواد الدراسية التي تستخدمها بقية المجموعات. كما مارست نفوذها على لجنة المؤتمر السنوي للسيدات، وأقحمت نفسها لتكون مسؤولة عن كثير من التفاصيل المهمة. وفي كل مساعيها، تركت انطباعًا بأن أفكارها أعظم من أية أفكار أخرى،

وعلى اللجنة إدراك ذلك.

وبعد شهور قليلة، ابتدأ نفوذ وفاعلية «چاك» و«جريس» في خدمتهما، يتضاءل أمام المتطوعين الآخرين. فقدم قادة الكنيسة الشكر لچاك وجريس على رغبتهما في الخدمة، وطلبوا منهما أن يكونا أكثر تجاوبًا مع مواهب الآخرين. ولأن أجنحة النفوذ والمكانة قد تعرضت للقص فجأة، ترك «چاك» و«جريس» الكنيسة في آخر الأمر، حتى يبدأن العملية من جديد مرة أخرى مع كنيسة أخرى تشتاق إلى متطوعين من ذوي الخبرة.

يرى الكثيرون من أمثال چاك وجريس أن قيمتهم وهُويتهم الشخصية مرتبطتان جزئيًا على الأقل بالمكانة الاجتماعية والشعور بالأهمية. فهم لا يشعرون بالسعادة لمجرد أنهم موجودون في الخدمة، ويخدمون في أي مكان يحتاجهم، لكنهم يجب أن يبسطوا نفوذهم وسلطتهم حتى يشعروا بأنهم ذو شأن. ولو كانت هُويتنا بصفتنا أبناء لله وقيمتنا عنده مبنيتين على الأهمية والمكانة الاجتماعية التي نحققها، فإن معظمنا سيكون من البؤساء. لا يمكن لأي شركة سوى أن يكون لها العديد من المسؤولين التنفيذيين، كما لا يمكن للمجتمع أن يكون به سوى الكثير من القادة السياسيين، كذلك الكنيسة أيضًا لا تستطيع أن تضم سوى العديد من رؤساء اللجان.

يذكر الكتاب المقدس بوضوح أن هُويتنا بصفتنا شعب الله لا تعتمد على المكانة الاجتماعية التي نحققها. وعلى خلاف الاعتقاد بأن الأهمية والمكانة تعادل المعني، أعلن الرب يسوع «وَأَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِماً لَكُم. فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ» (مت ٢٣: ١١، ١٢). لذلك اختار السيد المسيح اثني عشر رجلاً من عامة الناس ليكونوا تلاميذه الأعزاء، وأعطاهم قلبه، واستأمنهم على خدمة الكرازة بالإنجيل في كل العالم. وترك القادة الدينيين الذين انتفخوا بمكانتهم وبرهم الذاتي.

عزيزي، سواء كنت تتمتع بمكانة في أسرتك أو وظيفتك أو مدرستك أم لا، فأنت تتمتع بالفعل بمكانة عند الله. سواء كنت قد حققت أشياء عظيمة أو

بسيطة، فإن قيمتك غير المحدودة عنده لم تتأثر مطلقًا. الصورة الذاتية السليمة هي أن ترى نفسك كما يراك الله.. ليس أكثر، ولا أقل.

"الصورة الذاتية السليمة هي أن ترى نفسك كما يراك الله .. ليس أكثر ولا أقل."

تحطيم قيود الماضي

هل تقدِّم صفحات هذا الفصل من الكتاب وصفًا لك؟ هل أنت محبط بعض الشيء لأنك أدركت أنك تربط كثيرًا بين قيمتك وهُويتك من ناحية وبين مظهرك وأدائك ومكانتك من ناحية أخرى؟ إذا كنت هكذا، فأنت لست الوحيد. فأنا مقتنع تمامًا أن معظم الناس يصلون مرحلة الرشد بشعور مشوه لقيمتهم عند الله والآخرين، ونتيجة لذلك أصبح لديهم شعور مشوه أيضًا عن هُويتهم الحقيقية. وقد عزز كل من الوالدين والمدرسين ووسائل الإعلام، وحتى بعض خبراتنا الروحية، فكرة أن هُويتنا تُشكل بناءً على مظهرنا وأدائنا وإنجازاتنا. وحتى عندما نفهم الحقيقة، فإنه من الصعب أن نخرج من دائرة الأفكار الراسخة لدينا التي تبدو أنها تتحكم في سلوكياتنا في هذه الجوانب.

ونصبح مثل فيل السيرك الذي رُبطت رجله بسلاسل في الدراجة. فكيف لهذه السلاسل الضعيفة أن تقيّد حيوانًا قويًا مثل الفيل؟ لقد ظل الفيل مقيدًا بما يحتفظ به في ذاكرته. فعندما كان فيلاً صغيرًا، حاول أن يتحرر من هذه السلاسل، لكنه لم يكن قويًا بما يكفي ليفعل ذلك. وهكذا تعلَّم الفيل أن السلاسل التي تقيده أقوى منه، ولم ينسَ الدرس. ومع أنه الآن يتمتع بالقوة الكافية، ويستطيع أن يتحرر منها، فإنه نادرًا ما يحاول فعل ذلك، لأنه قد تعود على هذه القيود. ولكن في اللحظة التي سيتحرر من هذه القيود، سيكون من الصعب السيطرة عليه مرة أخرى بأي وسيلة كانت.

ينطبق الشيء نفسه على إدراكنا لمسألة الهُوية. فمنذ الطفولة ونحن نتعلم أهمية المظهر والأداء والمكانة الاجتماعية ونتكيف مع ذلك، ونظل مقيدين بهذه الفكرة الخاطئة، حتى عندما نتعرف على الأمور بطريقة أفضل. لكن حقيقة هُويتك أقوى من القيود الواهية التي أبعدتك عن الإدراك الكامل لكونك خليقة

الله المميزة التي تتمتع بالقيمة. ويمكنك مثل الفيل أن تختبر التحرر من القيود الداخلية، وتنعم بالفرح وبالأهمية وبالرضا الكاملين الذين هم ميراثك لكونك ابنًا لله. سيقدِّم لك هذا الكتاب كيف يمكنك أن تفعل ذلك.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله ومعرفة ما في قلبه من نحوك. تأمل في الحقائق الآتية عن الله. خذ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله محبة. نقرأ في ١يوحنا ٤: ١٦ «اَللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ».

- ماذا يعني لك أن الله محبة؟

- جزء آخر من هذه الآية يقول: "وَنَحْنُ قَدْ عَرَفْنَا وَصَدَّقْنَا الْمَحَبَّةَ الَّتِي للهِ فِينَا".

- ماذا يعني لك أن هذا الإله المحب يحبك أنت؟

(٢) الرب هو الخالق. نقرأ في إشعياء ٤٤: ٢٤ «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ فَادِيكَ وَجَابِلُكَ مِنَ الْبَطْنِ: «أَنَا الرَّبُّ صَانِعٌ كُلَّ شَيْءٍ».

- ماذا يعني لك أن الله هو الخالق؟

- ماذا يعني لك أن الله الخالق هو الذي صنعك؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنتم أولادي". نقرأ في يوحنا ١: ١٢ «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "لقد آمنت بالله، وقبلته، لذلك أعطاني الحق في أن أكون ابنًا له".

- ماذا يعني لك أن الله يعتني بك بما يكفي لتكون ابنه وواحد من خاصته؟

- هل تشعر بقلب الله نحوك؟

(٢) يقول الله: "أنتم مختاري". نقرأ في أفسس ١: ٤ «كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله اختارني من قبل أن يؤسس العالم لأكون قديسًا وبلا لوم".

- ماذا يعني لك أن الله اختارك. لم يخترك كمجرد واحد من أفراد مجموعة كبيرة، لكنه اختارك أنت بشخصك؟

- هل تشعر بقلب الله نحوك عندما كان يفكِّر فيك قبل أن يؤسس العالم؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وصورتك عن نفسك.

الفصل الثاني

حل مسألة الهُوية المغلوطة

هل تحتفظ بصور لأسرتك في حافظتك؟ هل تفتخر بعرض هذه الصور على الآخرين عندما تتحدث عن والديك أو إخوتك وأخواتك أو زوجتك أو زوجك أو أولادك؟ تشتاق معظم الناس إلى استعراض صور أو لقطات عن أحبابهم. لكن ما هو شعورك عندما تظهر صورًا أخرى في حافظتك مثل الصورة الموجودة برخصة القيادة الخاصة بك؟ ربما تنكمش ذعرًا من الفكرة ذاتها مثلما أفعل أنا. فعندما أخرج حافظتي لأفتخر بزوجتي وأطفالي الأربعة، أجد نفسي راغبًا في وضع إبهام يدي على صورتي المشوهة. ويبدو أن إدارة المرور تتمتع بمهارة فائقة في التقاط أسوأ الصور الممكنة. مع أن هذه الصورة لا تعبِّر عن حقيقة ملامحي.

يحمل كل منا صورة شخصية أخرى، وهي الصورة الأكثر أهمية من أي صورة في حافظتك. إنها الصورة الذاتية الموجودة في عقولنا، التي تمثل نظرتنا لأنفسنا. فمثل صورة رخصة القيادة، قد تمثل صورتك الذاتية الداخلية حقيقتك بدقة أو لا تمثلها. ومثلما تقل جودة الصورة بسبب قلة خاصية التركيز أو عيب ما في أوضاع الكاميرا، فإن صورتك الذاتية الداخلية قد تكون غير دقيقة لأن ما يدخل إدراكك عن نفسك قد يكون مغلوطًا أو ناقصًا.

على سبيل المثال، كان «أليكس» في سنوات نضوجه كثيرًا ما يسمع عبارة: "أليكس، أنت لا تستطيع فعل شيء جيد". هل كان ذلك تصوير دقيق لشخصية «أليكس»؟ مستحيل! كان أليكس لا يتقن الكثير من الأمور، مثلما هو الحال

معنا جميعًا، لكن عندما نقول إنه لا يستطيع فعل شيء جيد، فهذه عبارة فظة ومذلة ومبالغ فيها، لكن هذه الرسالة انطبعت في قلب «أليكس» منذ طفولته. ويحمل «أليكس» اليوم صورة ذاتية مشوهة في كل مكان يذهب إليه. إنها صورة رجل يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، لكنه يحتقر نفسه، وينتظر فشلاً يحدث له، كما يخجل من كشف هُويته الخاطئة للآخرين مما جعله خجولاً وعازفًا عن الاختلاط بالآخرين.

على الجانب الآخر، لنتأمل «تريزا» جيدًا التي يتناسب مفهومها عن هويتها مع صورتها الحقيقية. فقد تربت تريزا في بيت تلقت فيه الرعاية والتربية على يد أبوين مؤمنين محبين. وتعلمت مبكرًا أنها خليقة الله المميزة والمحبوبة. ونتيجة لذلك دخلت مرحلة المراهقة وهي واثقة جدًا من قيمتها في نظر الله والآخرين. وكانت تتعامل مع الأشخاص الجدد بسهولة، وقد استخدمها الله لتربح عددًا من أصدقائها للمسيح.

كيف ترى صورتك الذاتية الداخلية؟ هل هي مثل صورة «أليكس»، تسبب لك الإحراج، وتفضل أن تخفيها عن عيون الآخرين؟ أم أنها مثل الصورة الذاتية لتريزا، الصورة التي تشعر أنها تمثل هُويتك الحقيقية بصفتك ابن لله؟ أتحدث مع عشرات الآلاف من الشباب والمراهقين كل عام، وأتحدث مع مئات منهم بشكل شخصي في هذه اللقاءات. والشيء المحزن أني أقابل عددًا كبيرًا منهم مثل «أليكس». على سبيل المثال، كان «تود» يبدو واثقًا ويتمتع بالأمان، لكنه قال لي: "چوش، أتخيل نفسي شخصًا عديم القيمة. فأنا خائف من نظرة الناس لي. وأجد صعوبة في تقبل نفسي. ولا أزال أشعر بالخوف من النظر في عيون الناس، أو حتى التواجد معهم. أشعر بأنني شخص تافه ومُهمَل، وخوفي من رفض الناس شديد".

يحمل الناس مثل «أليكس» و«تود» صور ذاتية سيئة التركيز وباهتة الألوان. فالقليلون يتمتعون بنشأة إيجابية وصحية مثل التي تمتعت بها «تريزا». بينما يصارع الكثيرون في الحياة بسبب الحياة الصعبة التي عاشوها في بيوتهم، أو الثقافة السائدة البعيدة عن الله التي تحيط بهم، أو الخبرات الروحية البعيدة غير الكتابية، أو توليفة من هذه العوامل قد أعمتهم عن رؤية هُويتهم الحقيقية.

ما تراه هو ما تحصل عليه

سواء رضينا أو لم نرضَ فإن نظرتنا لأنفسنا لها تأثير كبير على مشاعرنا وعلاقاتنا وحياتنا الروحية. أظهرت الأبحاث أننا نميل إلى التصرف بما يتوافق مع نظرتنا لأنفسنا. على سبيل المثال، الأطفال الذين يتعرضون للسخرية ووصفهم بأنهم غير أكفاء أكثر احتمالية بأن يرتكبوا أخطاءً أكثر. وعادة يجد الذين يعتقدون أنهم غير جذابين صعوبة في الاحتفاظ بصداقات سوية. فإذا كنت ترى نفسك فاشلاً، ستفشل بطريقة أو بأخرى مهما حاولت جاهدًا أن تنجح. أمّا إذا رأيت نفسك شخصًا كفء بفضل علاقتك بالله، فإنك ستواجه الحياة بمزيد من التفاؤل، وسيكون أداؤك أفضل ما يمكن.

كان «بن» الذي يبلغ من العمر ست سنوات يصارع منذ وقت مبكر مع بعض المفاهيم في المدرسة. وكان والدي «بن» وأجداده يصفونه بأنه بطيء الفهم وغبي بعدما لاحظوا تعثره في الدراسة. وكلما سمع «بن» هذه الكلمات منهم، زاد صراعه مع أدائه المدرسي. ونتيجة لذلك، كانت أولى صور «بن» عن نفسه عبارة عن كلمة واحدة كبيرة هي: "غبي". وعاش «بن» هُويته غير الحقيقية التي عرفها وهو في سن السادسة بدون أن يشعر.

تزوجت «تانيا» من «رون» دون أن تعرف أي شيء عن تدبير المنزل ومهارات الطبخ. وحقيقة أن والديها لم يعلموها أساسيات الطبخ تركت انطباعًا لديها بأنها غير كفء في المطبخ. ولم يكن «رون» شابًا مواكبًا لعصره، وكان يتوقع من «تانيا» أن تعد له وجبة كبيرة لذيذة تنتظره عندما يعود إلى المنزل، ومع أن «تانيا» كانت تحاول كثيرًا، فإنها كانت تحرق كل الطعام في الأسابيع الأولى من الزواج، أو كانت تخرجه غير مطهوًا جيدًا. فقد أخرجت اللازانيا من الفرن سوداء كالفحم. وكان الدجاج المحمر نيئًا من الداخل، والچيلي خفيفًا مثل الشوربة. ولم يكن «رون» متعاطفًا معها. فقال لها: "ماذا بكِ يا «تانيا»؟ فأنت لا تستطيعين أن تسخنين علبة من اللحم البقري أو حتى من الفول". وعندما كانت «تانيا» تتخيل نفسها في المطبخ، كانت ترى زوجة مرتدية لافتة كبيرة حول عنقها مكتوب عليها "فاشلة"، ولأنها كانت ترى نفسها بهذه الصورة، فقد استمر أداؤها سيئًا في المطبخ.

إن الإدراك الواضح لهُويتك الحقيقية ميزة لا تُقدّر بثمن لحياة سوية وسعيدة ومثمرة. في حين تُعد النظرة المشوهة للهُوية عائقًا أمام تعزيز هذه القيم. فالذين مثل «بن» و«تانيا» المقتنعين بأنهم غير أكفاء أو غير محبوبين أو قبيحين أو غير مهمين- لا يحبون أنفسهم عامة. ولأنهم يتصارعون مع قبول الذات، فقد أسقطوا هذه النظرة على الآخرين، وهو ما جعلهم غير قادرين على تصديق أي شخص آخر يحبهم، حتى إن كان الله نفسه. تولد هذه المشاعر السلبية القلق والضغط والاكتئاب مما يؤثر تأثيرًا سلبيًا على علاقات الصداقة والأداء في العمل وكذلك النمو الروحي.

هل ترى نفسك بصورة واضحة تمامًا؟

يتمتع الناس إمّا بنظرة ملبدة بالغيوم عن أنفسهم أو نظرة واضحة عن أنفسهم. يشعر الأشخاص الذين يتمتعون برؤية واضحة بالمعني. كما أنهم يستوعبون مدى أهميتهم عند الله والآخرين، وأن العالم مكان أفضل لأنهم يعيشون فيه، وهم قادرون أن يتفاعلوا مع الآخرين، وقادرون أن يروا قيمتهم دون أن يشعروا بأي تهديد. وهم يشعون أملاً وبهجة وثقة؛ لأنهم يشعرون بالأمان فيما يتعلق بهُويتهم بصفتهم أبناء لله. ويقبلون أنفسهم بصفتهم أعضاء في خليقة الله يتمتعون بالحب وبالقيمة وبالكفاءة، وأن الله قد افتداهم وتصالح معهم ليتمتعوا بالصورة التي رسمها لهم.

على الجانب الآخر، يُظهر هؤلاء الذين لديهم نظرة قاتمة عن هُويتهم بصفتهم أولاد لله عددًا من السمات الواهية، دعنا نستعرض ثلاث سمات منها:

(١) يعاني الذين لهم نظرة قاتمة عن هُويتهم من صعوبة في التعامل الجيد مع الآخرين. كما يفتقد الذين يعانون من صورة ذاتية خاطئة-نتيجة تركيزهم الشديد على عيوبهم وقصورهم- إلى الطاقة والاهتمام اللذين تحتاجانه العلاقة حتى يتواصلوا تواصلاً إيجابيًا مع الآخرين. وينطبق ذلك خاصة عندما يتواجدون مع أشخاص يذكرونهم بعيوبهم. كما يحتاج الذين يعانون من شعور فقير بالهُوية إلى مزيد من الاهتمام، وبسبب هذا الاحتياج الشديد لا يكن بوسعهم أن يظهروا

اهتمامًا نحو الآخرين. ونتيجة لذلك يُنظر إليهم كثيرًا على أنهم لا يهتمون بغيرهم، وأنهم يتمركزون حول ذواتهم.

(٢) يعتمد هؤلاء الذين لديهم شعور ضعيف بهُويتهم على الآخرين حتى يحددوا نظرتهم عن أنفسهم في وقت معين. فعندما يتواجدون حول مَنْ يمتدحونهم ويشجعونهم، يشعرون بأنهم جديرون بالاهتمام. لكن عندما ينتقدهم أحد من أفراد الأسرة والأصدقاء والزملاء في العمل، فإن شعورهم بهُويتهم يتأثر سلبيًا. في الواقع، هم عبيد لآراء الآخرين، فهم ليسوا أحرارًا في أن يستمتعوا بحياتهم لأن هُويتهم تعتمد على ردود فعل الآخرين. وهذه كانت حالة «بوب».

كان «بوب» شابًا وسيمًا، وأنيق المظهر، ونموذج للموظف الإداري. وكان يتمتع بالثقة التي تجسد المبادئ التي كان يُدرِّسها باعتباره مُحاضر محفز. فكان يحاضر في العديد من الشركات عن موضوعات تتعلق بتحفيز فريق العمل، ومهارات البيع والتسويق الناجح، والثقة بالنفس. وكانت مصافحة «بوب» وسلوكه الإيجابي يعكسان نجاحه واثبات شخصيته. ولكن ماذا كان يفعل «بوب» في مكتب أحد المشيرين النفسيين؟

عندما يتحدث «بوب» عن غضب زوجته ونقدها ورفضها له، يختل مظهره الواثق ويتصدع، فهو شخص مختلف في البيت. حيث قد تلاشى شعور «بوب» بالكفاءة نتيجة الخلافات التي يعاني منها في زواجه. واعترف «بوب» باكيًا بخوفه من الفشل بدون مساندة زوجته. ماذا حدث لثقته التي لا تهتز؟ كان شعوره بالقيمة كبيرًا في مناخ عمله الناجح، لكن في البيت، حيث تصفه زوجته بالفاشل، كان شعوره بعدم الثقة بالنفس يتغلب على ثقته بنفسه في العمل. ومن ثم، بدون رؤية واضحة لهُويته، ستستمر الصورة الذاتية لبوب في التغيُّر مثل الحرباء بناءً على ما يتلقاه من المحيطين به.

(٣) يعاني هؤلاء الذين لديهم نظرة سلبية عن هُويتهم من التوقعات السلبية أيضًا. فهم يسيرون في الحياة متوقعين أن يعانوا من الرفض والاستغلال

وبَخس قيمتهم. ولأنهم يتوقعون الأسوأ، فعادة ما تسير الأمور على هذا المنوال. ويتورطون في سلوكيات تأتي عليهم بأثر عكسي. ولا يثقون في الآخرين، ويشكون فيهم. ويصارعون بين أملهم الضعيف في الحصول على قبول الآخرين، واعتقادهم المستتر بأنهم غير مقبولين، وغير مرغوب فيهم. على سبيل المثال، لنتأمل «كارين»، فبينما كانت «كارين» تسير في اتجاه مكتب أحد المشيرين، كانت تشبه طائر اللقلق؛ فهي طويلة ونحيفة ومنحنية المنكبين. وكان مظهرها يعكس حالة اليأس العميق التي تمر بها، وشعورها الشخصي بالنقص. وكانت ملابسها وطريقة تكلفها في التعامل تعكس شعورها بعدم الرضى عن نفسها. فكل ما كانت تفعله يوحي بأنها تقول: "لن يحبني أحد إطلاقًا".

كانت «كارين» تبحث عن أحد المشيرين لأنها تعرف أن زوجها القس كان سيترك حقل الخدمة إذا ما اكتشف أحد سلوكها التي لا تستطيع السيطرة عليه، فقد كانت تسرق معروضات المتاجر على مدار عدة شهور دون أن يلقي القبض عليها. وكانت تُسيء مؤخرًا إلى الطفل الذي كانت تعتني به. وكان شعورها بهُويتها المنقوصة يقلل من قيمتها تقليلاً كبيرًا. ولأنها كانت تعتبر نفسها خاطئة وبلا قيمة، كانت تتوقع الأسوأ من نفسها فاتحة الباب أمام ارتكاب مزيد من الأفعال والعادات الخاطئة.

ولحسن الحظ لم تكن حالة «كارين» ميؤسًا منها. فعندما فتح المشير النفسي عينيها وقلبها على هُويتها الحقيقية في المسيح، تغيّرت حياتها. واليوم هي إنسانة مختلفة، وزوجة محبة لزوجها، وأم لثلاثة أطفال.

عدة صور للشخص نفسه

ماذا ترى عندما تنظر إلى نفسك؟ كيف يراك المقربون إليك مثل والديك، أو شريك حياتك، أو أولادك، أو أصدقائك المقربين؟ كيف تظهر للذين لا يعرفونك جيدًا مثل البقال، أو أحد جيرانك، أو مَنْ يجلس بجوارك في الكنيسة يوم الأحد؟ ماذا يرى الله عندما ينظر إليك؟ تعد الإجابة عن هذه التساؤلات أمرًا جوهريًا في عملية تغيير نظرتك غير الدقيقة عن نفسك إلى نظرة دقيقة عن هُويتك الحقيقية.

من الواضح أن كل شخص يراك بصورة مختلفة من خلال منظوره الفريد. وتعد نافذة «جوهاري» إحدى الطرق التي تساعدك في فهم وجهات النظر المتعددة، وهي وسيلة معروفة تستخدم في تفسير كيفية التواصل بين الأشخاص، إذ تحتوي نافذة «جوهاي» على أربع ألواح زجاجية يمثل كل منها منظورًا مختلفًا.

يُطلق على اللوح الزجاجي الأول "النفس المرئية (الظاهرة)"، وتمثل ما يمكن أن تراه أنت وغيرك عن نفسك؛ أي الأمور الواضحة مثل الاسم، والمظهر، والتاريخ العام لحياتك، والمعلومات السطحية عنك، وما تعلنه عن نفسك أمام الناس. أمّا اللوح الزجاجي الثاني فيسمى "النفس المخبأة" وتمثل ما تستطيع أنت أن تراه، ولا يراه الآخرون ولا حتى يستطيعوا أن يروه. ويمثل هذا اللوح الزجاجي عالمك الخاص من الأفكار والطموحات والرغبات السرية.

في كل من اللوحين الأول والثاني، تتمتع بنظرة جيدة عن نفسك بينما قد يكون شعورك بهُويتك مقيد في اللوحين الثالث والرابع.

يُطلق على اللوح الثالث "النفس العمياء (غير المرئية)"، وتمثل ما يراه الآخرون فيك، ولكنك لا تستطيع أن تراه في نفسك. على سبيل المثال، قد ترى زوجتك أنك زوج صبور يعتني بأسرته، في حين لا ترى أنت سوى إخفاقاتك. أو قد يرى راعي الكنيسة التي تخدم فيها موهبتك الفطرية في التعليم، من خلال طريقتك في التعامل مع الأطفال في مدارس الأحد، لكنك ترى نفسك غير مناسب وغير مؤثر. ويمكن أن تتلاشى بعض هذه الجوانب غير المرئية بناءً على ما يمكن أن يشاركك به الآخرون بما يرونه فيك.

وأخيرًا، يُطلق على اللوح الرابع "النفس المجهولة"، وتمثل ما لا تراه أنت أو غيرك عن نفسك، وهي التجارب المنسية التي شكلت سلوكك، ودوافعك الدفينة، والجروح العميقة التي تحتفظ بها في العقل الباطن. وتعد هذه المنطقة المجهولة من النفس هي الأكثر صعوبة في تغييرها لأنك لا تستطيع أنت أو الذين يحبونك أن يكتشفوها بسهولة.

إذا سعيت في تغيير صورتك الذاتية الداخلية، فمن الواضح أنك بحاجة إلى منظور آخر؛ إذ تحتاج مساعدة شخص آخر بوسعه أن يرى كل الجوانب الأربعة من نفسك في الوقت نفسه. بمعنى آخر، أنت بحاجة إلى شخص يرى الصورة كاملة كما هي. علاوة على ذلك، يجب أن يكون هذا الشخص محبًا بما يكفي حتى يقبلك كما أنت، كما يجب أيضًا أن يكون قويًا بما يكفي، ليساعدك أن تغيِّر ما لا تستطيع أن تراه، وما لا قوة لك على تغييره.

هذا الشخص هو الله بكل تأكيد. إنه الوحيد الذي يعرف كل شيء عنك. ويحبك في كل الأحوال. إنه الوحيد الذي يعرف ماضيك وحاضرك ومستقبلك. صلى الملك داود في هيبة معترفًا أن الله يعرفه معرفة كاملة ومفصّلة، وكتب يقول:

«يَا رَبُّ، قَدِ اخْتَبَرْتَنِي وَعَرَفْتَنِي. أَنْتَ عَرَفْتَ جُلُوسِي وَقِيَامِي. فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيدٍ. مَسْلَكِي وَمَرْبَضِي ذَرَّيْتَ، وَكُلَّ طُرُقِي عَرَفْتَ. لأَنَّهُ لَيْسَ كَلِمَةٌ فِي لِسَانِي، إِلاَّ وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَهَا كُلَّهَا... أَحْمَدُكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي قَدِ امْتَزْتُ عَجَبًا. عَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ، وَنَفْسِي تَعْرِفُ ذلِكَ يَقِينًا. لَمْ تَخْتَفِ عَنْكَ عِظَامِي حِينَمَا صُنِعْتُ فِي الْخَفَاءِ، وَرُقِمْتُ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ. رَأَتْ عَيْنَاكَ أَعْضَائِي، وَفِي سِفْرِكَ كُلُّهَا كُتِبَتْ يَوْمَ تَصَوَّرَتْ، إِذْ لَمْ يَكُنْ وَاحِدٌ مِنْهَا» (مز ١٣٩: ١- ٤، ١٤- ١٦).

ولا عجب أن يصلي داود بكل ثقة لأجل الأماكن المظلمة وغير المرئية في حياته: «اخْتَبِرْنِي يَا اَللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي. وَانْظُرْ إِنْ كَانَ فِيَّ طَرِيقٌ بَاطِلٌ، وَاهْدِنِي طَرِيقًا أَبَدِيًّا» (مز ١٣٩: ٢٣- ٢٤).

وهذه هي ثقتنا الكبيرة عندما نسعى إلى مطابقة صورتنا الذاتية مع ما يراه الله فينا. فالله يعرفنا تمامًا، ويحبنا محبة غير محدودة. حتى النفس العمياء أو المجهولة من نفوسنا واضحة له وضوح الشمس في كبد السماء، وهو يعرف ما نحتاجه حتى تظهر هذه المناطق إلى النور، لأنه يحبنا ويشتاق أن يغيِّرنا إلى الصورة التي خلقنا لنكون عليها.

يمكنك أن تغيِّر صورتك المعيبة

ربما تفكر قائلاً: "چوش، لا عجب في أن الفوضى تملأ حياتي، فشعوري بهُويتي مغلوط تمامًا. هل يوجد أي أمل لي؟" صدقني، أعرف تمامًا ما تشعر به. إذا قرأت سيرتي الذاتية التي أوردتها في كتاب بعنوان (A Skeptic Quest)، سيتاح لك أن تكون فكرة عن طفولتي التي عشتها مع أب مدمن للخمر، الشيء الذي تركني بنظرة سلبية عن قيمتي وهُويتي بصفتي خليقة الله.

ولو كنت استمريت في السماح للتجارب التي مررت بها في طفولتي لتلون صورتي الذاتية الداخلية، لكنت الآن إنسانًا ساخطًا ويائسًا. ولكن عندما آمنت بالمسيح، بدأت الصورة السلبية التي ورثتها نتيجة المؤثرات السلبية في حياتي تتغير وصولاً إلى هُويتي الحقيقية.

أريد أن أؤكد لك من خلال الكتاب المقدس ومن خلال اختباري الشخصي، أن صورتك الذاتية الداخلية المعيبة لن تظل دائمة. ومع أن صورتك الشخصية قد تكون متأصلة تأصلاً عميقًا في وعيك أو عقلك الباطن، فإنه لا يزال يوجد أمل، وبإمكانك أن تغيِّر هذه الصورة بمزيد من الفهم الدقيق للصورة التي خلقك الله لتكون عليها. ولكنك لن تستطيع أن ترى نفسك أبدًا بوضوح مثلما يراك الله. وسوف تعمل نقاط الضعف من حين لآخر على تشويه نظرتك لنفسك، لكن يمكنك أن ترى نفسك بصورة أكثر وضوحًا مما تراه الآن. وكلما زادت رؤيتك لنفسك كما يراك الله- وهي الرؤية التي تعبِّر عن هُويتك الحقيقية- ازددت تمتعًا بهذه الهوية. وعندما تتطابق صورتك الذاتية مع صورة الله لك، ستجد نفسك تتمتع بصورة ذاتية سوية.

"عندما تتطابق صورتك الذاتية مع صورة الله لك, ستجد نفسك تتمتع بصورة ذاتية سوية"

بدأت «بوني» التي آمنت بالمسيح مؤخرًا في حضور كنيسة كان المؤمنون فيها يتسمون بالحرفية والنقد الشديدين. وكانوا ينتقدونها كثيراً بسبب ما كانوا يعتبرونه ملابس وممارسات عالمية. وقد شعرت «بوني» في هذا الجو أنها تحتاج أن تثبت

إيمانها أكثر فأكثر. وكانت تشعر باليأس من ناحية استحقاقها لمحبة الله وخلاصه الذي نالته بالفعل من خلال إيمانها بالمسيح. وعندما غيّرت «بوني» وظيفتها، وانتقلت من المدينة التي كانت تعيش فيها، التصقت عبارة "غير مستحقة روحيًا" بهُويتها، نتيجة التأثير السلبي الذي تعرضت له.

لكن الكنيسة التي واظبت عليها «بوني» بجوار سكنها الجديد كانت مختلفة تمامًا ومنتعشة. وبدلاً من انتقاد ملابسها وإدانتها بسبب بعض تصرفاتها قامت الكنيسة بالترحيب بها، وقبلها شعب الكنيسة كما هي. وبناءً عليه تغيَّرت نظرة «بوني» لنفسها في بيئتها الجديدة التي شعرت فيها بالقبول. وأدركت أنها شخص له قيمة كبيرة عند الله وعند كنيستها التي تقدم كل محبة. وعندما بدأت في رؤية هُويتها الحقيقية بأكثر وضوح، شعرت «بوني» برضى كبير في مسيرة إيمانها، وأصبحت شاهدة نشيطة عن محبة الله.

كيف يحدث مثل هذا التغيير؟ ستقدم لنا الفصول التالية إجابة عن هذا السؤال بمزيد من التفاصيل، وسأقدم لكم هنا ما اختبرته أنا شخصيًا. أولاً: دخلت في علاقة شخصية حية يصبغها محبة الله من خلال ابنه يسوع المسيح. ثانيًا: تعهدت أمام نفسي أن أتمثل بصفات الله من خلال دراسة كلمته. ثالثًا: سمحت لبعض المؤمنين الآخرين خاصة الذين لهم نظرة أوضح عن هُويتي أكثر مني، ليساعدوني في أن أعيد تشكيل رؤيتي وفهمي لنفسي. وأنا الآن أرى نفسي كما يراني الرب يسوع، وراضٍ تمامًا عن نفسي!

بمقدورك أنت أيضًا أن تغيِّر نظرتك عن نفسك وتدرك هُويتك الحقيقية. كما يمكنك أن تستبدل صورتك المشوهة والمحرجة والمحبطة، التي تشكلت بناءً على نشأتك وخبراتك إلى صورة ذاتية حية ومشرقة وتعبِّر عن حقيقتك.

أريد أن أساعدك حتى ترى نفسك كما يراك الله، وتكتشف شخصيتك الحقيقية والمميزة التي خلقها الله.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله ومعرفة ما في قلبه من نحوك. تأمل في الحقائق الآتية عن الله. خذ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله عالم بكل شيء. نقرأ في مزمور ١٣٩: ١، ٥ «يَا رَبُّ قَدِ اخْتَبَرْتَنِي وعَرَفْتَنِي... مِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدَّامٍ حَاصَرْتَنِي وَجَعَلْتَ عَلَيَّ يَدَكَ».

-ماذا يعني لك أن الله يعرف كل شيء عنك؟

-ماذا يعني لك أن الله العالم بكل شيء يعرف أنك محبوب وغالٍ على قلبه؟

(٢) الرب هو ملك الكون. نقرأ في ١أخبار ٢٩: ١١ «لَكَ يَا رَبُّ الْعَظَمَةُ وَالْجَبَرُوتُ وَالْجَلاَلُ وَالْبَهَاءُ وَالْمَجْدُ، لأَنَّ لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. لَكَ يَا رَبُّ الْمُلْكُ، وَقَدِ ارْتَفَعْتَ رَأْساً عَلَى الْجَمِيعِ».

- ماذا يعني لك أن الله هو ملك الكون؟

- ماذا يعني لك أن الله الملك يتحكم في كل ظروف حياتك؟

جزء آخر من فهمك لنفسك يتضمن سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنت تحفته". نقرأ في أفسس ٢: ١٠ «لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ
قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيها».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "أنا عمل الله. والله جعلني إنسانًا جديدًا في المسيح يسوع".

- ماذا يعني لك أن الله يدعوك عمله وخليقته المميزة؟

- هل تشعر بما في قلب الله من نحوك، وأنه يجد سروره ولذته فيك؟

(٢) يقول الله: "مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُك". نقرأ في إرميا ٣١: ٣ «مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَدَمْتُ لَكِ الرَّحْمَةَ».

-خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله يحبني محبة أبدية، وهو يقربني إليه في محبته".

-ماذا يعني لك أن الله يحبك محبة أبدية، وأن ما تقوله أو تفعله لن يغيِّر شيئًا من محبته لك؟

-هل تشعر بما في قلب الله من نحوك، أنه يريد أن يقربك إليه؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه، واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وصورتك عن نفسك.

الفصل الثالث

إلقاء الضوء على صورتك الشخصية

كيف تكتشف نفسك؟ يجب أن ترجع إلى خالقك. إن هُويتك الحقيقية تتمثل في "مَنْ أنت؟" في نظر الله. ولكي تتمتع برؤية واضحة لهُويتك الحقيقية، يجب عليك أن ترى نفسك كما يراك الله، ليس أكثر ولا أقل. ومن ثم، فإن السؤال المهم هو كيف يراك الله؟ ولأني سوف أتحدث عن ذلك باستفاضة في الفصول التالية من الكتاب سأقدِّم لك هنا إجابة مختصرة لهذا السؤال.

كيف يراك الله؟

(١) الله يرى أنه يحبك محبة أبدية، فهو أبوك، وقد خلقك على صورته (تك ١: ٢٦، ٢٧). وأنت أروع ما أنتجه روحه المبدع. تعجب كاتب المزمور من خليقة الله قائلاً: «وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ» (مز ٨: ٥)، ونتيجة لإيمانك بالمسيح رحب بك الآب السماوي في عائلته بصفتك ابنه (يو ١: ١٢، ١٣). إن الله يحبك جدًا حتى أنه عيّن ملائكته لخدمتك (انظر عب ١: ١٤، مز ٩١: ١١، ١٢). كما اتخذ الله التدابير اللازمة ليكون في علاقة حميمة ومستمرة معك؛ لأنه يحبك. ولا شيء يمكن أن يقلل من محبته لك.

(٢) الله يراك ذا قيمة غير محدودة. ما هي قيمتك عند الله؟ في الجلجثة، أعلن الله إلى السماء والجحيم وكل الأرض أنك تستحق عطية الرب يسوع المسيح، ابنه العزيز والمحبوب. وإذا فكرت يومًا أن تضع ثمنًا لنفسك، فلا بد أن يكون ثمنك

«يسوع» شخصيًا، لأنه الثمن الذي دفعه الله ليخلصك (١كو ٦: ١٩، ٢٠؛ ١بط ١: ١٨، ١٩). كان موت المسيح على الصليب هو الثمن المدفوع عن خطاياك. لذلك، قيمتك عند الله هي "يسوع" لأنه الثمن الذي دفعه الله لأجلك كي يخلصك. وهذه هي قيمتك الحقيقية عند الله، ورؤية الله لهويتك حقيقية وصحيحة، لذلك فإن قيمتك هي قيمة مشتقة، وليست قيمة تصنعها بنفسك. فأنت تتمتع بقيمة عظيمة؛ لأن الله المحب خلقك لتكون كذلك. كذلك أنت بحاجة إلى أن تدرك أنه لو كنت أنت الإنسان الوحيد على ظهر الأرض، فإن الله كان سيرسل ابنه لأجلك. وبعد أن انتصر الرب يسوع على الخطية والموت والقبر، لم يكتفِ بذلك بل صعد إلى السماء ليعد لك بيتًا أبديًا (يو ١٤: ١- ٣).

(٣) الله يراك متمتعًا بالكفاءة الكاملة. وقد أعلن الرب يسوع لتلاميذه: «لَكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ» (أع ١: ٨). ونتيجة لوعد المسيح، استطاع بولس أن يفتخر قائلاً: «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (في ٤: ١٣). وكذلك يذكرنا بولس قائلاً: «لَيْسَ أَنَّنَا كُفَاةٌ مِنْ أَنْفُسِنَا أَنْ نَفْتَكِرَ شَيْئاً كَأَنَّهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، بَلْ كِفَايَتُنَا مِنَ اللهِ، الَّذِي جَعَلَنَا كُفَاةً لأَنْ نَكُونَ خُدَّامَ عَهْدٍ جَدِيدٍ» (٢كو ٣: ٥، ٦). وقد أعطاك الله قوته عن طريق الروح القدس الساكن فيك، وأعلن أنك تتمتع بالكفاءة بصفتك سفير له. فكِّر في ذلك: إن الله يثق فيك جدًا لدرجة أنه تركك على الأرض لتكمّل خدمة المصالحة التي بدأها الرب يسوع: «كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا» (٢كو ٥: ٢٠). ربما تتسأل في وقت من الأوقات، لماذا يضع الله ثقة كبيرة فيك لكي تمجِّد اسمه وتخدمه؟ فأنت تدرك جيدًا مواطن ضعفك، وقد ترى أن الكثيرين لديهم إمكانيات أفضل منك وأكثر جاهزية منك. لهذا السبب يذكرنا الرسول بولس قائلاً: «وَلَكِنْ لَنَا هَذَا الْكَنْزُ فِي أَوَانٍ خَزَفِيَّةٍ، لِيَكُونَ فَضْلُ الْقُوَّةِ لِلَّهِ لاَ مِنَّا» (٢كو ٤: ٧).

فكِّر في كيف استخدم الله إنسانًا بسيطًا وهاويًا ليبني الفلك، في حين شيّد سفينة تيتانك متخصصون مدربون! ومع ذلك فمن المهم أن نتذكر أننا أشخاص محبوبون وذو قيمة وأكفاء بصفتنا أولاد لله، وهذا مستمد من خلقه لنا وعمله من أجلنا، وليس لشيء حلو فينا، أو شيء عملناه بقدرتنا قد جذب انتباه الله

أو التمس رعايته. نحن مديونون بهُويتنا لله وحده، وعلينا أن نتهلل مع كاتب المزمور. «أَحْمَدُكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي قَدِ امْتَزْتُ عَجَباً. عَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ وَنَفْسِي تَعْرِفُ ذَلِكَ يَقِيناً» (مز ١٣٩: ١٤).

الحياة في النور

لماذا يعيش الكثيرون منا كما لو أنهم لا يصدقون الله الذي يراهم محبوبين وذو قيمة وأكفاء؟ يصف الرسول بولس حالتنا كالتالي: «لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلاً ظُلْمَةً وَأَمَّا الآنَ فَنُورٌ فِي الرَّبِّ» (أف ٥: ٨). كنا قبل الإيمان نعيش في الظلمة، لكن عندما سلمنا حياتنا لربوبية المسيح، انتقلنا إلى النور لذلك بوسعنا أن نرى الحقيقة.

"في نور كلمة الله، نرى أن الله يحبنا ويعتز بنا ويجعلنا أكفاء."

هل ذهبت من قبل إلى معرض لوحات فنية، ورأيت عندما تضاء أضواء الحجرة، في حين تبقى الكشافات التي تضيء فوق اللوحات غير مضاءة؟ عندما تكون الحجرة مضاءة، تستطيع أن ترى براويز اللوحات، وربما تستطيع أن تميِّز بعض السمات القليلة لهذه اللوحات. ولكن عندما تضاء الكشافات، ويركز الضوء الشديد على كل لوحة، يمكنك أن ترى كافة تفاصيل اللوحة، بما في ذلك تعبيرات الوجه، ولونِ البشرة، ولون العينين، واستدارة الشفتين. وتستطيع أن ترى صاحب الصورة مثلما أراد الفنان أن تراه. هكذا يشبه نور الكشافات ضوء الله بالنسبة لنا. إنه يشرق علينا إشراقًا ليظهر لنا هُويتنا التي خلقنا الله عليها.

لكن لا يرى الكثيرون منا لوحة الله المرسومة لهم بوضوح؛ فقد حجبت بعض ظروف حياتنا حقيقة نور الله فيما يتعلق بهُويتنا الحقيقية، أو حصرتها في جوانب معينة. وعندما يُحجب نور الله، تعاق رؤيتنا لهُويتنا الحقيقية، وبالتالي نعاني في حياتنا. دعونا نتأمل أولاً، كيف يسمح الله للنور أن يدخل حياتنا؟ يحدد الكتاب المقدس ثلاثة مصادر لنور الله في العالم:

(١) يمثل الرب يسوع المسيح المصدر الأساسي للنور. قال يوحنا عن الرب يسوع قائلاً: «فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ» (يو ١: ٤).كما قال الرب

يسوع عن نفسه: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ» (يو ٨: ١٢). والطريقة التي ندرك بها النور هي أن ندخل في علاقة شخصية مع المسيح. وبذلك تزداد معرفتنا بأننا محبوبون وذو قيمة وأكفاء كلما تعمقنا في هذه العلاقة من خلال العشرة الحميمة مع المسيح.

(٢) تمثل كلمة الله- الكتاب المقدس- مصدرًا آخر للنور. كتب الملك داود: «سِرَاجٌ لِرِجْلِي كَلاَمُكَ وَنُورٌ لِسَبِيلِي» (مز ١١٩: ١٠٥). فكلما جهزنا عقولنا، وفتحنا قلوبنا لكلمة الله، زاد تمتعنا بالنور. ففي نور كلمة الله، نرى أن الله يحبنا ويعطينا قيمة ويجعلنا أكفاء. وبالتالي يفتقد المؤمنون الذين لا يدرسون كلمة الله، ولا يختبرونها في حياتهم اليومية إلى النور الذي يحتاجونه.

(٣) يمثل المؤمنون مصدرًا ثالثًا لنور الله. إن الرب الذي قال: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» هو الذي قال لتلاميذه: «أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ» (مت ٥: ١٤). فعندما نكون في علاقة مع السيد المسيح- النور- فإنه يملأنا بالنور. وعندما نشارك بعضنا البعض بنور المسيح وكلمته، يزداد إدراكنا بأن الله يحبنا ويقدِّرنا ويجعلنا أكفاء. وهذا هو السبب الأول في أن الكتاب المقدس يعلِّمنا قائلاً: «غَيْرَ تَارِكِينَ اجْتِمَاعَنَا كَمَا لِقَوْمٍ عَادَةٌ، بَلْ وَاعِظِينَ بَعْضُنَا بَعْضاً، وَبِالأَكْثَرِ عَلَى قَدْرِ مَا تَرَوْنَ الْيَوْمَ يَقْرُبُ» (عب ١٠: ٢٥). ونحن بحاجة إلى أن نتفاعل مع إخوتنا المؤمنين لتفيض حياتنا بنور المسيح الذي يكشف لنا هُويتنا الحقيقية.

أين تعرضت للنور؟

فيما يلي العديد من الأسئلة المهمة التي سوف تساعدك على اكتشاف لماذا تعيش أحيانًا كما لو أنك لا تعرف هُويتك بصفتك ابن محبوب وذو قيمة وكُفْء. اسأل نفسك هذه الأسئلة:

كم من النور تعرضت له في بيتك عندما كنت طفلاً؟

هل كان أبواك والأشخاص الناضجون الذين أثروا في حياتك مؤمنين بالمسيح؟ إذا كانوا كذلك، هل كانوا في علاقة تمتاز بالحب مع الرب يسوع المسيح، أم كان

«إيمانهم» عبارة عن بعض القوانين والمحرمات؟ إذا كانت القوانين والمحرمات هي التي صاغت حياتك، فأنت لم ترَ الصورة الحقيقية التي يراك الله بها. ربما نضجت وأنت ترى الله كشخص يأمر وينهي ومستعد أن يصفعك على وجهك في اللحظة التي تتجاوز فيها الحدود. وربما كبرت وأنت ترى محبة الله عبارة عن شيء عليك أن تحصل عليه. وربما ترى أن قيمتك مبنية على أدائك، وليس على قيمتك الحقيقية في عينيّ الله.

كم من نور كلمة الله رأيته في بيتك؟ هل كان والديك وأجدادك وأقاربك المؤثرون في حياتك يقرأون الكتاب المقدس ويوقرونه؟ هل كانوا يقرأون لك الكتاب المقدس وأنت طفل؟ هل كانت أسرتك تكرس وقتًا تقرأ فيه الكتاب المقدس، وتناقشه معك بطريقة تتناسب مع مستوى إدراكك؟ هل كانت القصص والمفاهيم الكتابية تُناقش في بيتك بتلقائية وبدون تكلف؟ إذا كنت كبرت وأنت محاط بتفاعل وتطبيق إيجابيين للكتاب المقدس، فإن قدرًا كبيرًا من النور لابد وأن انعكس على حياتك. أمّا إذا لم يكن للكتاب المقدس مكان في حياة أقاربك أو الذين قاموا بتربيتك، فإن الظلمة الناتجة عن ذلك ربما تساهم الآن في شعورك بالاضطراب وبالتشويش فيما يتعلق بهُويتك في المسيح.

هل كنت مواظبًا على حضور الكنيسة وأنت طفل ومراهق؟ هل كانت الحقائق الكتابية تُدرس في كنيستك ويُحتذى بها؟ هل كانت أسرتك تشجعك على المشاركة في الاجتماعات التي تجمعك بالمؤمنين من نفس سنك مثل مدارس الأحد أو مدرسة الكتاب الصيفية أو أندية الكتاب المقدس أو اجتماعات الشباب وأنشطتهم؟ فبقدر ما كنت تجتمع مع المؤمنين الآخرين حول دراسة الكتاب المقدس ودروس التلمذة، بقدر ما تعرضت لمزيد من نور الله. أمّا إذا كانت الكنيسة وأنشطة جماعة المؤمنين لم تكن جزءًا من تربيتك، فإن شعورك بهُويتك قد يكون مشوهًا بدرجة ما بسبب ندرة النور الذي تعرضت له.

كم من النور تعرضت له في المجتمع المحيط بك؟

أعتقد أن المجتمع قد انتقل من حقبة ما بعد المسيحية- كما سماها الراحل

الدكتور «فرانسيس شيفر»- التي تمتد من السبعينيات والثمنينيات من القرن العشرين إلى حقبة أخرى مناهضة للمسيحية. كان المؤمنون يعانون ببساطة من التجاهل في الجيل الماضي، وكان العالم يقول: "قم بممارسة أمورك الدينية إذا كانت تتناسب معك، ولكن لا تتوقع أننا سوف نسايرك في ذلك". واليوم ازداد العالم عدوانية تجاهنا وتجاه القيّم التي نفهم من الكتاب المقدس أنها ثوابت مطلقة. كما نسمع الآن: "كيف تجرؤن أن تفرضوا قيمكم الخاصة على المجتمع، فاختيار ما هو صواب وما هو خطأ يمثل قرارًا شخصيًا، وليس قرار المجتمع أو قرار الكنيسة".

إذا كان المناخ الذي نشأت فيه قد تأثر تأثيرًا قويًا باللامبالاة أو العداء أو كلايهما نحو الله والكتاب المقدس والمسيحية، فإن حياتك قد حُجب عنها النور من خلال الظلال الكثيفة للثقافة المناهضة للمسيحية، فبدلاً من أن تصور ثقافتنا السائدة البشر كأفراد محبوبين وذوي قيمة وأكفاء، نجدها قد ركزت الضوء على صلاح الفطرة الإنسانية وإنجازات البشر. ونتيجة لهذه النظرة القاتمة لهُويتنا، فإننا استقبلنا من بيئتنا مخزونًا إيجابيًا شحيحًا فيما يتعلق بهُويتنا الحقيقية.

كيف منعت الثقافة وصول النور إليك؟ أحد أكثر الأساليب التي تتخذها الثقافة لتعمي أبصار الناس عن الحق تتمثل في وسائل الإعلام بأشكالها المختلفة. إن الرسالة السائدة في مجتمعنا تتلخص في أن الله بمثابة حيلة نفسية للضعفاء، ويسوع المسيح لا يعدو أكثر من معلم صالح ينادي بأخلاقيات سامية، والكتاب المقدس محرف وغير موحى به، والثوابت الأخلاقية شيء أخرق يعيش في بيوتنا مثل الحيوانات الأليفة. هذه الرسائل تنتقل عبر البرامج التليفزيونية التي نشاهدها، ومواقع الإنترنت التي ندخل عليها.

كم من النور تمتعت به من خلال أقرانك؟

كم من النور تمتعت به من خلال أقرانك الذين كنت تعيش معهم عندما كنت طفلاً أو مراهقًا؟ ما هو اعتقاد أصدقائك وزملاء الجامعة والآخرين من أقرانك عن الرب يسوع المسيح والكتاب المقدس والكنيسة؟

في دراسة أجريت على الشباب المسيحي، طلبنا من أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة شاب مواظبين على حضور الكنيسة أن يرتبوا أمنياتهم للمستقبل حسب أولوياتهم. وجاءت ثلاث رغبات على رأس قائمة تتكون من خمس عشرة رغبة، وهي كالتالي:

(١) التعرف على شريك حياة من أجل الزواج.

(٢) التمتع بصحة بدنية جيدة.

(٣) تكوين صداقات حميمة ولها طابع شخصي.

إن النظرة التي نتمتع بها عن أنفسنا عادة ما تتأثر كثيرًا بأقراننا؛ لأننا جميعًا نريد ونحتاج إلى صداقات شخصية تتميز بالحميمية.

على سبيل المثال يمثل ضغط الأقران سوء فهم أحيانًا؛ إذ يعتقد البعض أن الإغواء بتناول الكحوليات أو تعاطي المخدرات ينبع من رغبة الشخص في ذلك، في حين أن الأقران هم ببساطة وسيلة الإغراء. لكن الانخداع بسلوك غير مقبول في كثير من الحالات ليس بالشيء الذي يغوينا، بل هي الرغبة الداخلية في أن نتمتع بقبول أقراننا. ما نريد أن يفكر فيه أقراننا عنا يمثل القوة الدافعة في كل منّا. وبقدر ما كان أقرانك في مرحلة الطفولة في ظلمة فيما يتعلق برؤية الله لهُويتهم، بقدر ما نجحوا في حجب النور عن فهمك لهُويتك أنت أيضًا.

إن صورة الله لك تُظهر أنه يراك محبوبًا وذا قيمة وكفء. وإذا كنت عاجزًا عن رؤية هذه الصورة بوضوح، فربما تكون حقيقة نور الله محجوبة عنك أو خافتة. وبالتالي عندما تسمح لنور الرب يسوع المسيح والكتاب المقدس والمؤمنين الآخرين بأن يسطع على صورتك، ستبدأ في رؤية نفسك كما خلقك الله.

نحو صورة أوضح عن هُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل في الحقائق الآتية عن الله. اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله نور. نقرأ في رسالة معلمنا يوحنا الأولى: «إِنَّ اللهَ نُورٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمَةٌ الْبَتَّةَ» (١يو ١: ٥).

- ماذا يعني لك أن الله نور؟

- ماذا يعني لك أن الله خلقك لتكون نورًا؟ (أف ٥: ٨)

(٢) الله حنان. نقرأ في مزمور ١٤٥: ٨ «اَلرَّبُّ حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ».

- ماذا يعني لك أن الله حنان؟

- ماذا يعني لك أن الله الحنان قد اختارك لتكون ابنه؟

جزء آخر من فهمك لنفسك يتضمن سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: «أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ». نقرأ في إنجيل متى «أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ. لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَلٍ، وَلاَ يُوقِدُونَ سِرَاجًا وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لِجَمِيعِ الَّذِينَ فِي الْبَيْتِ» (مت ٥: ١٤).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: «أنا أحد مصابيح الله، وعليّ أن أشع نورًا إلى العالم».

- ماذا يعني لك أن الله يثق فيك لتكون نوره حتى يراه الجميع؟

- هل تشعر بما في قلب الله من نحوك، والقيمة التي يعطيها لك بما يكفي ليجعلك ممثلاً عنه في العالم؟

(٢) يقول الله: "أنت من أبناء النور" نقرأ في رسالة بولس الرسول الأولى إلى تسالونيكي: «جَمِيعُكُمْ أَبْنَاءُ نُورٍ وَأَبْنَاءُ نَهَارٍ. لَسْنَا مِنْ لَيْلٍ وَلاَ ظُلْمَةٍ» (١تس ٥: ٥).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية «خلقني الله لأكون ابن نهار، ولا أحتاج أن أعيش في الظلمة بعد ذلك».

- ماذا يعني لك أن الله خلقك لتكون واحدًا من أبناء النور؟

- هل تشعر بما في قلب الله من نحوك وهو يفيض على حياتك بالنور؛ لأنه نور؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وصورتك عن نفسك.

الفصل الرابع

كيف تؤثر احتياجاتك غير المُشبِعة على هُويتك

إذا لم تتخلل حياتك مصادر النور الثلاثة التي تتمثل في الرب يسوع والكتاب المقدس والمؤمنين الآخرين، فربما تعاني من احتياجات عديدة لم يتم إشباعها. ويمكن لهذه الاحتياجات التي لم تُشبع أن تشوه إدراكك لهُويتك ونظرتك لنفسك. ولنأخذ تجربة «چوانا» باعتبارها مثال جيد لذلك.

لخصت «چوانا»- وهي امرأة مؤمنة جذابة- حياتها كالتالي: "لا تستطيع الدودة أن تصف بشكل كافٍ ما أشعر به تجاه نفسي، فالدودة تستطيع أن تزحف على الأرض، وتختبئ دون أن تترك بإفرازاتها أثرًا من ورائها. أمّا أنا فمثل البزاقة الرخوية القبيحة في البيت التي تترك أثرًا فظيعًا خلفها في كل مكان تذهب إليه. وأنا مثلها تمامًا، أخرّب كل شيء في أي مكان أذهب إليه. يا له من وصف محزن لحياة أحد المؤمنين!"

كانت «چوانا» تعيش في ظلام فيما يتعلق بهُويتها الحقيقية. فهي ليست دودة أو بزاقة مثلما تصف نفسها، لكنها إنسانة ترتكب أخطاءً مثلنا جميعًا، وبكل تأكيد «لا تخرّب كل شيء» حيثما تذهب.

كانت «چوانا» تعاني من العديد من الاحتياجات التي لم تُشبع في حياتها، ونتيجة لذلك تشوه شعورها بهُويتها الحقيقية. وهذه الهُوية الناقصة جعلتها

---

[٤] **البزاق: كائن رخوي ينتمي إلى رتبة الحلزونات. يتكون جسده من الماء ويفرز نوعًا من المخاط ليحمي نفسه لأنه لا يحتوي على صدفة أو قشرة خارجية.. المترجم.**

سجينة الكآبة وإدانة الذات واليأس، مما أوقف بالتالي نموها الروحي وشهادتها للمسيح.

عندما يحدث تشويش على هُوية المؤمن الحقيقية بصفته ابن محبوب وذو قيمة وكفء، فإن النتائج تكون محزنة. وغالبًا ما يتجه هؤلاء الأشخاص نحو تكوين نظرة متشائمة وخائفة من العالم، وعن قدرتهم على مواجهة تحدياته. ويعتبرون المواقف الجديدة وغير المتوقعة بمثابة تهديدات تستهدف سعادتهم وأمنهم، فهم يشعرون أن العالم مغلق عليهم ويخنقهم ويسحقهم، ويبدو لهم أن كل الصعوبات التي يواجهونها تنبع من فشلهم الشخصي.

ويميل هؤلاء الذين يعانون من ارتباك بشأن هُويتهم إلى تحمل ما تقدمه الحياة لهم دون اعتراض أو محاولة لتغييره. كما يرون أنفسهم كضحايا في بيئة عدوانية. وعلى النقيض، يرى هؤلاء الذين يسيرون في نور أن الله يحبهم ويعطيها قيمة ويراهم أكفاء، أن العالم يمثل تحديًا لابد أن يواجهوه في فرصة لاختبار إيمانهم بالمسيح. ويقبلون من خلال نعمة الله وقوته في حياتهم- أنهم يستطيعون أن يغيِّروا بيئتهم نحو الأفضل، ويرون أن مصيرهم يقع في ما يستطيع الله أن يفعله من خلالهم، وأنهم يستطيعون أن يحققوا أمورًا عظيمة من أجل الأبدية حتى في أصعب الظروف.

كذلك يؤثر الإحساس المغلوط بالهُوية في العلاقات. حيث يفسر أولئك الذين لديهم شعور مغلوط بهُويتهم رسائل الآخرين ودوافعهم من خلال صورتهم الذاتية غير الدقيقة التي يحملونها، وذلك لأنهم يتبنون موقفًا دفاعيًا في الحياة. على سبيل المثال، كانت «چوانا» تجد صعوبة في قبول أي مدح أو ثناء من الآخرين. وكانت تعتقد أن البزاقة الرخوية القبيحة لا يمكن أن تكون جذابة أو نافعة أو معطاءه. ولا تزال تجادل قائلة: "هل يمكن لأي شخص يتمتع بهذه المفاهيم الخاطئة أن يكون أهلاً للثقة؟" وحتى يحدث تغيير لصورة «چوانا» الذاتية الداخلية، ستبقى متشككة حتى في أكثر المحاولات المخلصة وحسنة النية التي تسعى للنهوض بها.

الحياة في ظل احتياجات لم تُشبع

كيف يتوصل هؤلاء من أمثال «چوانا» إلى هذه النظرة غير الدقيقة عن أنفسهم؟ أعتقد أن ذلك يرتبط ارتباطًا مباشرًا بمقدار نور الله الذي يتخلل حياتهم. فعندما يتشجع الناس بالدخول في علاقة حميمة ومستمرة مع المسيح وكلمته وشعبه، فإن نور الحق الإلهي يتدفق في حياتهم. وعندما يحدث ذلك فإن احتياجاتهم الروحية والعاطفية تُشبع، وهكذا يكتسب الناس نظرة أوضح لهُويتهم الحقيقية بصفتهم أولاد لله محبوبين وذو قيمة وكفاءة.

مع ذلك، فمن المحزن أن تعيش «چوانا» وكثير من المتألمين مثلها في احتياج عميق يلقي بظلاله الكثيفة على النور، ويعوق قدرتهم على رؤية أنفسهم كما يراهم الله. ولكن عندما يشبع الرب يسوع وكلمته والمؤمنون هذه الاحتياجات، سيستطيع هؤلاء الذين يتمتعون بحسن النية أن يعرفوا هُويتهم الحقيقية.

ما هي أكثر احتياجاتنا أهمية؟

ما هي الاحتياجات التي لم تُشبع، ويمكن أن تلقي بظلالها الكثيفة على صورتنا الذاتية؟ بينما يمكننا وضع قائمة بالعديد من هذه الاحتياجات، دعونا نلقي نظرة على أهم عشر احتياجات عاطفية. وقد اقتبست هذه القائمة من البحث الذي قام به «ديڤيد فيرجسون» الذي يدير خدمة Intimate Life Ministries في مدينة «أوستن» بولاية تكساس. وقد استطاع «ديڤيد» وزوجته «تريزا» أن يساعدا الآلاف من المؤمنين على اكتشاف هُويتهم الحقيقية بصفتهم أولاد لله.

قدَّم «ديڤيد فيرجسون» في كتابه "The Great Commandment Principle"، عشرة احتياجات إنسانية أساسية مستمدة من الكتاب المقدس، ولابد من إشباعها حتى يختبر المرء العلاقة الحميمة مع الله والآخرين. وعندما لا تُشبع هذه الاحتياجات يشعر الناس بالوحدة، ويقل شعورهم بهُويتهم الحقيقية. حيث يحتاج جميعنا الآتي:

(١) الاهتمام

(٢) القبول

(٣) التقدير

(٤) المساندة

(٥) التشجيع

(٦) دفء المشاعر

(٧) الاحترام

(٨) الشعور بالأمان

(٩) التعزية/ المواساة

(١٠) الإعجاب

دعونا نلقي نظرة على هذه الاحتياجات واحدة تلو الآخرى بصورة أكثر تدقيقًا في محاولة لمساعدتك على فهم احتياجاتك الأولية من خلال هذه القائمة ذات العشر احتياجات.

(١) الاهتمام: يُقصد باحتياجنا للشعور بالاهتمام أننا نحتاج إلى مَنْ يفكِّر فينا، ويقدِّم لنا اهتمامًا وعناية مناسبة، وكذلك يقدِّم لنا الدعم والمساندة. فعندما نهتم ببعضنا البعض، نختبر ما عبّرت عنه كلمة الله في رسالة بولس الرسول الأولى إلى كورنثوس: «لِكَيْ لاَ يَكُونَ انْشِقَاقٌ فِي الْجَسَدِ، بَلْ تَهْتَمُّ الأَعْضَاءُ اهْتِمَامًا وَاحِدًا بَعْضُهَا لِبَعْضٍ» (١كو ١٢: ٢٥). الاهتمام يقول: "سأدخل عالمك وأتعرف عليه لأنني مهتم بك".

(٢) القبول: إن احتياجنا للشعور بالقبول يُقصد به أننا نحتاج لمن يقبلنا عن اختيار وليس اضطرار، ويقدِّرنا ويحترمنا، حتى وأن أختلف معنا في الرأي. وعندما نقبل بعضنا البعض، نتبع بذلك الأمر الكتابي في رسالة معلمنا بولس الرسول إلى رومية: «لِذلِكَ اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا قَبِلَنَا، لِمَجْدِ اللهِ» (رو ١٥: ٧). يقول القبول: "حتى وإن لم يتغيِّر فيك شيء، فأنا أحبك كما أنت وفي كل الظروف".

(٣) التقدير: ويُقصد بحاجتنا للشعور بالتقدير أننا لا نحتاج أن يقدِّر الآخرون شخصيتنا وأعمالنا فحسب، بل أن يتواصلوا معنا من خلال الكلمات والمشاعر التي تعبِّر عن الامتنان أيضًا. وعندما نقدِّر بعضنا البعض نتبع بذلك تعليم الكتاب المقدس الوارد في رسالة بولس الرسول إلى كورنثوس: «فَأَمْدَحُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ عَلَى أَنَّكُمْ تَذْكُرُونَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَحْفَظُونَ التَّعَالِيمَ كَمَا سَلَّمْتُهَا إِلَيْكُمْ» (١كو ١١: ٢). يقول التقدير: "أشكرك على تفكيرك فيَّ، ومراعاتك لي. وأشعر بالامتنان جدًا أنك تحدثت معي".

(٤) المساندة: ويُقصد بحاجتنا للشعور بالمساندة أننا نحتاج إلى مَنْ يقف بجانبنا، ويساعدنا برفق على تحمل مشكلة أو معاناة ما. وعندما نساند بعضنا البعض، نختبر بذلك ما ورد في رسالة بولس الرسول إلى غلاطية: «احْمِلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ، وَهكَذَا تَمِّمُوا نَامُوسَ الْمَسِيحِ» (غلا ٦: ٢). تقول المساندة: "أشعر أنك تحتاج إلى المساعدة، اسمح لي من فضلك أن أساعدك في حمل بعض أحمالك".

(٥) التشجيع: ويُقصد بحاجتنا للتشجيع أننا لا نحتاج فقط لمن يحثنا على التقدم، بل نحتاج إلى مَنْ يبث فينا الشجاعة أو الروح أو الأمل أيضًا. وعندما نشجِّع بعضنا البعض، نتبع الأمر الكتابي الذي عبَّرت عنه رسالة بولس الرسول الأولى إلى تسالونيكي: «لذلك عزوا بعضكم بعضًا، وابنوا أحدكم الآخر، كما تفعلون أيضًا» (١تس ٥: ١١). يقول التشجيع: "سيتأثر الكثيرون تأثيرًا إيجابيًا بدورك الممتاز في هذا المشروع. وأثق أنك ستنهي هذا العمل بنجاح".

(٦) دفء المشاعر: ويُقصد بحاجتنا للشعور بدفء المشاعر أننا نحتاج لمن يهتم بنا، ويقترب إلينا من خلال اللمسات الحانية والكلمات المشجعة. وعندما نتبادل دفء المشاعر بعضنا البعض، نختبر بذلك ما ورد في رسالة بولس الرسول إلى رومية: «سَلِّمُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِقُبْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ. كَنَائِسُ الْمَسِيحِ تُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ» (رو ١٦: ١٦) إن دفء المشاعر يضع يده على كتف أحدهم، ويقول له: "سعدت بحضورك اليوم".

(٧) الاحترام: إن احتياجنا للاحترام يُقصد به أننا نحتاج لمَنْ يقدِّرنا ويعترف بقيمتنا ويحترمنا. وعندما نحترم بعضنا البعض، نعيش بذلك ما ورد في رسالة

بطرس الرسول الأولى: «أَكْرِمُوا الْجَمِيعَ. أَحِبُّوا الإِخْوَةَ. خَافُوا اللهَ. أَكْرِمُوا الْمَلِكَ» (١بط ٢: ١٧). يقول الاحترام: "أنا أحتاج لرأيك في هذا الموضوع؛ لأن أفكارك نافعة لي جدًا".

(٨) الشعور بالأمان: ويقصد بحاجتنا للشعور بالأمان أننا نحتاج إلى مَنْ يحمينا من الخطر والحرمان والعلاقات الضارة. وعندما نتبادل الشعور بالأمان مع بعضنا البعض، نتبع بذلك الشوق الذي عبَّر عنه كاتب المزامير: «لِيَسْتَرِحْ مُحِبُّوكَ. لِيَكُنْ سَلاَمٌ فِي أَبْرَاجِكِ، رَاحَةٌ فِي قُصُورِكِ». مِنْ أَجْلِ إِخْوَتِي وَأَصْحَابِي لأَقُولَنَّ: «سَلاَمٌ بِكِ» (مز ١٢٢: ٦- ٨). يقول الشعور بالأمان: "أنا ملتزم بك، وبعون الله ومشيئته سأشبع احتياجك الآن وفي المستقبل".

(٩) التعزية أو المواساة: يُقصد باحتياجنا للشعور بالتعزية أو المواساة أننا لا نحتاج لمن يخفف عنا أحزاننا أو آلامنا فحسب، بل نحتاج أيضًا لمن يمنحنا قوة وأملاً في المضي قدمًا. وعندما نواسي ونعزي بعضنا البعض، نختبر بذلك ما ورد في رسالة بولس الرسول الثانية إلى كورنثوس ١: ٣- ٤: «مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الرَّأْفَةِ وَإِلهُ كُلِّ تَعْزِيَةٍ، الَّذِي يُعَزِّينَا فِي كُلِّ ضِيقَتِنَا، حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نُعَزِّيَ الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ ضِيقَةٍ بِالتَّعْزِيَةِ الَّتِي نَتَعَزَّى نَحْنُ بِهَا مِنَ اللهِ». تقول التعزية: "حزنت جدًا عندما سمعت بانفصال ابنتك عن زوجها. يا له من أمر مؤلم لك! أعلم ذلك وسأصلي من أجلك، وأنا متاح لسماعك والوقوف بجانبك الفترة القادمة".

(١٠) الإعجاب: ويُقصد بحاجتنا للشعور بالإعجاب أننا نحتاج إلى مَنْ يُعبِّر عن تأييده لنا ويؤكد لنا أننا مقبولون. وعندما نتبادل مشاعر الإعجاب بعضنا البعض، نتبع بذلك تعاليم الكتاب المقدس الواردة في رسالة معلمنا بولس الرسول إلى رومية «لأَنَّ مَنْ خَدَمَ الْمَسِيحَ فِي هذِهِ فَهُوَ مَرْضِيٌّ عِنْدَ اللهِ، وَمُزَكًّى عِنْدَ النَّاسِ» (رو ١٤: ١٨). يقول الإعجاب: "أنا مسرور بك".

لم يخلقنا الله بهذه الاحتياجات فحسب، بل يريد أن يشبعها أيضًا. ولم يختر أن يشبع هذه الاحتياجات بنفسه فقط، بل اختار آخرين أيضًا ليشبعها. فبعد أن

خلق الله آدم الإنسان الأول، ووضعه في ظروف مثالية في جنة عدن، أعلن الخالق: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ» (تك ٢: ١٨). نحن نرى أن الله يرغب في أن يُشرك آخرين معه في القضاء على هذا الشعور بالوحدة. وقد تضمنت خطته للتعامل مع الشعور الأصيل بالوحدة لدينا تدخله المباشر، أو مشاركة الآخر مثل الزوج أو الزوجة، أو أفراد العائلة، أو أعضاء الكنيسة. لكن عندما لا تُشبع احتياجاتنا الجوهرية، ينحجب عنا نور الله، وتختبئ هُويتنا الحقيقية في الظل. تأمل العواقب التي قد تحدث عندما يُحجب النور من المصادر الثلاثة التي تحدثنا عنها من قبل.

عدم إدراك حب الله لك

كان «كاندل» مواظبًا على حضور مجموعة كبيرة لدراسة الكتاب المقدس لغير المتزوجين كل أسبوع تقريبًا، لكن لم يكن أحد يشعر بوجوده في المجموعة. فقد كان يصل بالكاد في الميعاد، ويجلس بمفرده، ويتجه نحو الباب بعد الصلاة الختامية مباشرة. وفي كل مرة يحاول أي شخص أن يجعله يشارك في الحوار، كان «كاندل» يبدو متوترًا، ولا يتحدث سوى قليلًا جدًا عن نفسه.

لاحظ «ألڤن»، وهو أحد قادة المجموعة، «كاندل»، وقرر أن يكون صديقه. وعلى مدار عدة أسابيع، كان «ألڤن» يسعى وراء «كاندل» بعد كل اجتماع لدراسة الكتاب حتى يقول له أهلاً بك. وفي النهاية، استطاع «ألڤن» إقناع «كاندل» بالخروج معًا لتناول الغداء.

وبعد لقاءين معه على الغداء و الفطار، ابتدأ «كاندل» ينفتح على صديقه الجديد المثابر؛ «ألڤن»، وذات يوم قال «كاندل»: "الله قطعًا لا يحبني، وهو صابر عليَّ لأني قبلت المسيح كمخلص، وهو يسامحني على خطاياي لأني أعترف بها وفقًا لما ورد في رسالة يوحنا الأولى ١: ٩، وبالتالي عليه أن يسامحني. لكن الله لن يحبني أبدًا كابن له. أعرف جيدًا ما ارتكبته في حياتي. ربما يكون الوضع في السماء مختلفًا، لكني أشعر الآن بأنني محظوظ لأنه خلصني".

لم يرد «ألفن»- بحكمة منه- على اعتراف «كاندل» بإمطاره بوابل من الآيات الكتابية التي تشهد عن محبة الله. ولكن بدلاً من ذلك حاول بلطف أن يعرف الخلفية التي جاء منها «كاندل». وهكذا علم أنه تربى في بيت لأبوين غير مؤمنين. وكان عمل الوالد يضطره أن يكون بعيدًا عن البيت لمدة أسابيع في كل مرة. وعندما كان يعود، كانت الأم تسرد عليه قائمة بأخطاء «كاندل» التي ارتكبها خلال فترة سفر والده. وكان الأب يضربه بالسوط بشكل يتناسب مع حجم الجريمة التي ارتكبها محذرًا إياه من أن يرتكب مثل هذه الأفعال أثناء غيابه في الرحلة التالية. لم يتذكر «كاندل» أن والده سبق وأن لمسه لمسة حانية، أو قال له: "أحبك".

"إن الشعور بالانتماء يتلاشى عندما لا نشعر بمحبة الله أو محبة الإخرين لنا."

كيف يفشل أمثال «كاندل» في أن يروا أنفسهم موضع محبة الله غير المشروطة؟ إن شعورهم بالانتماء يتلاشى عندما لا يشعرون بمحبة الله أو بمحبة الآخرين لهم. ولأنهم لا يشعرون بمحبة هؤلاء الذين يجب عليهم أن يشبعوا احتياجاتهم إلى الحب، لذلك فإنهم يفترضون بالمنطق أنهم غير محبوبين. لذلك لا تجدهم يسقطون هذا المفهوم على الآخرين المحيطين بهم وعلى الله فحسب، بل يسلكون بدون وعي أيضًا بطرق توصل للآخرين: "لا تقتربوا أكثر لأننا لا نستحق الحب".

من الصعب أن نؤمن بأن الله يحبنا إذا لم تُشبع احتياجتنا الشخصية إلى الحب.

(١) دفء المشاعر: قد يشعر الناس بأنهم غير محبوبين عندما لا يُشبع احتياجهم إلى دفء المشاعر. حيث يكبر الكثير من الرجال والنساء مثلهم في ذلك مثل «كاندل» وهم يفتقدون الأحضان، والقبلات، ولمسات التشجيع، والمداعبة من الوالدين خاصة الأباء. وقد يسعى البعض إلى إشباع هذه الحاجة بأي وسيلة ممكنة عندما لا تُشبع بالشكل المناسب، وعادة ما ينتج عن ذلك سلوكيات غير مناسبة وضارة بشكل كبير.

أحد ردود الفعل لذلك هو أن تبتعد عن الله والآخرين بمسافة كافية. وهذا ما فعله «كاندل»، مما جعل محاولات «ألڤن» للدخول معه في علاقة صداقة صعبة جدًا. فكلما ظل «كاندل» معزولاً، نسي أنه غير محبوب. ولكن بسبب انعزاله، أصبح غير قادر على ممارسة مواهبه الروحية، واشباع احتياجات الآخرين من حوله، ومن ثم أصبح عضوًا غير مؤثر في جسد المسيح. ولأنه كان من الصعب جدًا أن يعبِّر عن مشاعره، تعامل مع الآخرين بدون محبة.

من ناحية أخرى، تظهر بعض الأعراض الأخرى للاحتياج إلى دفء المشاعر عكس الانعزال تمامًا؛ إذ يتمسك البعض بعلاقاتهم، ويغاروا على أصدقائهم أو أفراد عائلتهم، ويطالبونهم بتوفير الوقت والمشاعر لهم. أمّا البعض الآخر فيبحث عن الحب ودفء المشاعر من العلاقات الجنسية غير المميزة أو من خلال مشاهدة الأفلام الإباحية وممارسة العادة السرية والمتعة الذاتية. اعترف «كاندل» بعد عدة شهور من التقابل مع «ألڤن» بأن جوعه إلى دفء المشاعر جعله يدمن مشاهدة الأفلام الإباحية وممارسة العادة السرية.

(٢) القبول: قد يشعر الناس بأنهم غير محبوبين عندما لا يُشبع احتياجهم إلى القبول. كبر «كاندل» وبداخله شعور أن والده لا يهتم إلا بالابن الذي يتصرف بشكل أفضل، فلم يهتم «بكاندل» كما هو عليه الآن. يميل هؤلاء الذين لا يشعرون بالقبول إلى النضال من أجل أن يصبحوا أشخاصًا مهمين بدلاً من الاسترخاء والاستمتاع بحياتهم كما هي الآن. لماذا؟ لأنهم لا يشعرون بأن أحدًا يحبهم لذاتهم. وربما يصارعون أيضًا مع فكرة قبول الله لهم، لذلك يحاولون أن يكسبوا قبوله لهم من خلال التدين والعبادة.

(٣) الإعجاب: قد يشعر الناس بأنهم غير محبوبين عندما لا يُشبع احتياجهم إلى الإعجاب. قبل أن يعظ الرب يسوع عظة واحدة أو يُجري معجزة واحدة، أعلن الله الآب عنه قائلاً: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ!» (مر ١: ١١). نحتاج جميعًا أن يُظهر لنا الآخرون إعجابهم بكل حب بعيدًا عن إنجازاتنا وإسهاماتنا. كما يحتاج الأطفال كذلك أن يشعروا بإعجاب والديهم بهم- سواء حصلوا على الدرجات النهائية أو سجلوا أهدافًا في مباراة أو لم يحدث. كان «كاندل» لا يجذب

انتباه والده إلا عندما كان يسيء التصرف. وقد ترك غياب الإعجاب «كاندل» يشعر بأنه غير محبوب.

إن هؤلاء الذين لا يحظون بالإعجاب معرضون أن يكونوا موضع استهزاء الآخرين، فهم مستعدون أن يقوموا بعمل أي شيء لأي شخص حتى ينالوا قدرًا من الإعجاب. يرضخ الكثير من المراهقات لرغبات الشباب الجنسية، لأنها وسيلة لنوال الإعجاب الذي افتقدوه من والديهم. وتقود الحاجة إلى الحصول على الإعجاب من الآخرين بعض المؤمنين إلى السلوك بشكل متكلف ومتزمت؛ فيقتنعون أن عليهم أن يحضروا كل الخدمات، ويصلوا لفترات أطول أو بصوت أعلى، ويعطوا أموالاً أكثر لخدمة الإرساليات، ويقبلوا المزيد من المسئوليات في الكنيسة حتى ينالوا الإعجاب الذي يسعون إليه.

(٤) الاحترام: قد يشعر الناس بأنهم غير محبوبين عندما لا تُشبع حاجتهم إلى الاحترام، نحتاج جميعا أن نشعر بأننا مهمون، وأن الآخرين يحتاجون إلى وجودنا ومواهبنا وإسهاماتنا. كبر «كاندل» وهو يشعر أن دوره الوحيد في الحياة هو أن يعطي والده عذرًا حتى ينفس عن غضبه.

يعد عدم احترام الشخص لنفسه أحد الأعراض الرئيسية التي تشير إلى أن حاجتنا للشعور بالاحترام لم تُشبع. فعندما نعتقد أن الآخرين يعتبروننا غير مهمين نرى أنفسنا غير مهمين. ويظهر عدم احترام الذات في عدم الاهتمام بالمظهر والأناقة والعادات الصحية السليمة. كذلك يمكن أن يقودك الإحساس بعدم الأهمية إلى عدم احترام القانون، أو وصايا الكتاب المقدس، أو الآخرين، أو قدسية الحياة البشرية، وحتى كرامتك الشخصية.

كان «ألڤن» يتقابل مع «كاندل» بصبر ومثابرة لعدة شهور. ونتيجة لذلك استطاع القائد أن يقنع «كاندل» بالانضمام إلى إحدى مجموعات الرعاية في خدمة غير المتزوجين. وفي المجموعة أصبح «كاندل» موضع اهتمام ثمانية أفراد من الشباب والشابات. وتغيَّرت نظرة «كاندل» لهُويته عندما أشبع أصدقاؤه الجدد احتياجه إلى الحب والقبول والإعجاب والاحترام، وهي الاحتياجات التي كانت تعاني من التجاهل لفترة طويلة.

كان «كاندل» يسمع عن محبة الله من الكتاب المقدس منذ أن كان طفلاً. وعندما ابتدأ يختبر هذه المحبة من خلال اهتمام أصدقائه، أظهر نور الله- الذي كان يزداد قوة- محبة الله له. وفي غضون سنتين، أصبح «كاندل» عضوًا في فريق القيادة يسعى نحو الآخرين بكل حب مثلما كان «ألڤن» يفعل معه.

عدم إدراك تقدير الله لك

كان مقدرًا أن تصبح «كاترينا» عارضة أزياء ونجمة سينمائية. فعندما كان عمرها ستة أشهر، انتقلت بها «چويس» والدتها غير المتزوجة إلى ولاية لوس أنجلوس، وألحقتها بوكالة عرض أزياء لتقدم إعلانات لمنتجات الأطفال. وكانت الطفلة الصغيرة مقيدة بجدول مزدحم من دروس عرض الأزياء، والمنافسات، وتعلم الرقص، والتمثيل، وبروڤات عرض الإعلانات، والظهور في بعض العروض التليفزيونية الصغيرة. وكانت «چويس» تشرف بنفسها على نظام غذائي صارم أعد خصيصًا لابنتها، وتدريبات لياقة بدنية لتتأكد أن «كاترينا» تحافظ على صحتها وحيويتها. وقد عزمت أن تواصل ابنتها طريقها نحو الشهرة في هوليود.

لكن اختفت «كاترينا» في الليلة التي تخرجت فيها من المدرسة الإعدادية بولاية لوس أنجلوس. حيث ودعت والدتها بعد الاحتفال؛ لأنه كان من المفترض أن تذهب إلى أحد النوادي لتحتفل طوال الليل مع أصدقاء الدراسة، لكنها لم ترجع في صباح اليوم التالي. وبعد عدة شهور، وجدت «كاترينا» في ملجأ لأطفال الشوارع في مدينة «بالتيمور»، وكانت متسخة وتظهر عليها علامات التشرد في شوارع المدينة.

دفعت «چويس» ابنتها نحو الهروب من المنزل. وبعد أن التقيا مرة أخرى، قالت چويس باكية: "انظري إلى شعرك وجسمك، لقد دمرتِ حياتك". فردت عليها «كاترينا» بغضب: "لا يا أمي، لقد دمرتِ حياتك أنتِ، لم يكن لي حياة إلا عندما تركت المنزل. فقد سرقتِ طفولتي، وحولتِ حياتي الحقيقية إلى حياة دُمية من أجل متعتك الشخصية. لم أكن ابنتك إلا عندما كنت أصور عرض أزياء أو أقوم بالتمثيل. حسنًا، دميتك قد كبرت الآن يا أمي، ولن تلعبي بي مجددًا".

عاشت «كاترينا» في لوس أنجلوس، وحصلت على وظيفة نادلة، وابتدأت في المواظبة على كنيسة صغيرة بعد أن تلقت دعوة من أحد أصدقاء الدراسة السابقين. وبرغم أن أعضاء الكنيسة لم يعلموا أي شيء عن ماضي «كاترينا»، فأنها في بداية الأمر وجدت صعوبة في قبول ترحيبهم الحار بها. وكانت تعاني من الشكوك نفسها نحو الله، وكانت تظن أنه لا يقبل شخصًا ارتكب ما ارتكبته. وكانت قيمتها كشخص مرتبطة بمظهرها وأدائها لفترة طويلة.

يصل الكثيرون لمرحلة البلوغ ولديهم نظرة قاتمة عن قيمتهم في نظر الله والآخرين. فغالبًا ما يقيِّم الآباء والأمهات أولادهم على أساس إنجازاتهم بدلاً من قيمتهم كأشخاص؛ إذ قدَّم الله ابنه الوحيد ثمنًا غاليًا لافتدائهم. ولذلك يحمل هؤلاء الأطفال صورًا ذاتية مشوهة حتى يصلوا سن المراهقة وهم يشعرون أنهم لن يحصلوا على اهتمام الله إلا من خلال أدائهم. وعندما لا تُشبع احتياجات معينة، ينغمس هؤلاء الذين يشعرون بعدم استحقاقهم في سلوكيات منحرفة.

(١) الاهتمام: يشعر الناس عادة بأنهم بلا قيمة عندما لا يُشبع احتياجهم إلى الاهتمام. ونحن نمنح الآخرين الاهتمام من خلال الدخول في عالمهم، والاهتمام بما يهتموا به. ويحظى الطفل بالاهتمام عندما ينزل أحد والديه على الأرض ويلعب معه. فشلت «چويس» في أن تُشبع حاجة «كاترينا» للاهتمام عندما أجبرتها على الدخول في عالمها الخاص، عالم عرض الأزياء والتمثيل. حيث تمثلت القيمة الوحيدة لكاترينا بالنسبة لأمها في النجاح في منافسات عروض الأزياء.

يفتقد أحيانًا أولئك الذين لا يشعرون بالاهتمام إلى الثقة في مهاراتهم الاجتماعية. حيث يشعرون دائمًا بأنهم تحت ضغط لكي يقدموا أداءً أفضل، مما يجعلهم غير قادرين على الاستمتاع بعلاقاتهم. وهكذا يصبح الأصدقاء وزملاء العمل وحتى الغرباء هدفًا للحصول على الاهتمام. وكذلك يعاني هؤلاء عادة من التوتر والخوف عندما يكونون بمفردهم، لذلك فإنهم يحتاجون إلى الآخرين حولهم ليؤكدوا على قيمتهم من خلال المقارنة.

(٢) الشعور بالأمان: قد يشعر الناس بأنهم بلا قيمة عندما لا يُشبع احتياجهم

للشعور بالأمان. لذلك يعتمد هؤلاء الذين لا يشعرون بالأمان عادة على مخزون كبير من المقتنيات المادية من أجل الإحساس بالأمان. كذلك يحتاجون لقدر كبير من الترتيبات والتحكم الخارجي في حياتهم حتى يشعروا بالأمان. ومع ذلك، ينظرون للمستقبل نظرة تشاؤمية متوقعين حدوث الأسوأ.

(٣) التعزية أو المواساة: يشعر الناس عادة بأنهم بلا قيمة عندما لا يُشبع احتياجهم للتعزية وللمواساة، فعندما نُجرح عاطفيًا في علاقاتنا، فإن روشتة الله للشفاء تتضمن استخدام جرعات التعزية التي يقدِّمها الآخرون لنا بكل حب (انظر مت ٥: ٤؛ ٢كو ١: ٣، ٤). يشعر هؤلاء الذين يعانون بمفردهم من جروح الحياة العميقة أنهم غير نافعين من وجهة نظر مَنْ يتجاهلونهم. ونتيجة لذلك يبني المجروحون حواجز بينهم وبين الآخرين حتى يتجنبوا حدوث أي جروح جديدة، حتى أنهم يعتبرون أحيانًا أفراد عائلتهم وأصدقاءهم مصدر تهديد لسلامهم، وتكون المحصلة النهائية علاقات يشوبها التوتر بدلاً من علاقات تتميز بالنمو.

استمرت «كاترينا» في صراع مع الشعور بالقيمة عند الله والآخرين، لكن علاقاتها ببعض النساء القليلات المهتمات بها استمرت في النمو والتطور. أظهر هؤلاء النساء اهتمامًا بشخص «كاترينا» كما هي، وليس بسبب ماضيها أو بما حققته. وعندما أخبرت اثنين من الشابات عن مقدار الألم الذي عانت منه في علاقتها بأمها، قاموا بمواساتها بالدموع. فبدأت «كاترينا» تشعر بقيمتها كإنسانة لأول مرة في حياتها. وتوقع أصدقاؤها الجدد أن تفتح «كاترينا» قلبها للمسيح قريبًا.

عدم إدراك أن الله يراني كفء

عندما تفهم الخلفية التي عاشت فيها «چوانا»، لن تندهش لشعورها بأنها مثل البزاقة التي تفسد كل شيء حيثما تذهب. كان «باك»، زوج أمها، عائلاً مجتهدًا لابنته وأمها. وكانت «چوانا» تتذكر بصعوبة أباها الحقيقي الذي مات عندما كان عمرها سنتين. لكن «باك» كان ينزع إلى الكمال في كل شيء، لذلك كان

يدفع «چوانا» حتى تكون الأفضل في كل شيء تحاول فيه. وكانت وسيلته الأولى في تحفيزها هي إذلالها. فإذا لم تستخدم جميع طاقاتها، كان «باك» يهينها. فكان يطلق عليها أسماء الحيوانات الأليفة، فضلاً عن ألقاب مثل دُمية وبطيئة وثقيلة الحركة وبدينة وغبية. وكلما استشاط غضبًا عليها، زاد انزعاجها، وزادت الأخطاء التي ترتكبها.

وصلت «چوانا» لمرحلة البلوغ ولسان حالها يقول: "لا أستطيع عمل أي شيء بطريقة صحيحة"، وهو المفهوم الذي ترسخ في عقلها الباطن. لذلك فشلت في الاحتفاظ بأول وظيفتين نتيجة ارتباكها تحت ضغط السعي إلى النجاح. وقد تمكنت من الاحتفاظ بوظيفة سهلة ذات راتب ضعيف، لكن كان أداؤها أقل من المطلوب. إن الشعور بعدم الكفاءة الذي كان يحلق فوق رأس «چوانا» كان نتيجة للاحتياجات الملحة التي لم تُشبع.

(١) التشجيع: قد يشعر الناس بأنهم غير أكفاء عندما لا يُشبع احتياجهم إلى التشجيع؛ إذ يعمل المناخ الذي يسود فيه النقد على إضعاف الروح المعنوية، وهز الثقة بالنفس فضلاً عن تحطيم الدوافع الداخلية. وغالبًا ما يتصف أولئك الذين يشعرون بأنهم غير أكفاء بالتحفظ الشديد في سلوكهم وأحاديثهم. وتجدهم يرثون حالهم قائلين: "نعرف أننا لن ننجح. لا نفعل شيئًا مفيدًا. لماذا نحاول، فكل شيء نلمسه ينتهي إلى لا شيء؟" وتزداد نظرة التشاؤم من الحياة عند هؤلاء الذين يفتقرون إلى التشجيع.

(٢) المساندة: قد يشعر الناس بعدم الكفاءة عندما لا يُشبع احتياجهم إلى المساندة. يحتاج كل منّا لمن يحمل معه أثقاله، إلى شخص يسير بجانبه، ويشاركه في تحمل مهمة ثقيلة أو تجربة صعبة. فبدلاً من أن يوفر زوج الأم لچوانا المساندة التي تحتاجها، تركها بمفردها تغرق في مجهوداتها اليائسة. كانت «چوانا» تحارب مشاعر اليأس التي أعاقت محاولاتها المتتالية نحو النجاح، لأنها لم تكن قادرة أن تعيش حسب المقاييس التي يريد زوج أمها أن تصل إليها.

(٣) التقدير: قد يشعر الناس بأنهم غير أكفاء عندما لا يُشبع احتياجهم إلى

التقدير. لا يوجد شخص يتمتع بالكفاءة بشكل كامل. يصارع البعض من أجل إتمام المهام بدرجة متواضعة من النجاح، ولكن بإمكان أي أحد أن يشعر بالتقدير نتيجة أشياء أخرى مثل: اجتهاده ومساندته وموقفه الإيجابي ومثابرته في الشدائد أو حتى الرغبة في المحاولة. إن هؤلاء الذين لا يشعرون بالتقدير مثل «چوانا» يرون أن نجاحهم لا يكفي ليمحو الألقاب التي نعتوا بها أنفسهم مثل البزاقة التي تفسد كل شيء حيثما تذهب.

أثناء قراءتك للاحتياجات العشر في هذا الفصل، هل لمست أن بعضها ينطبق عليك؟ هل بمقدورك أن تتعرف على هذه الاحتياجات التي لم تُشبع خلال طفولتك وشبابك؟ وهل بمقدورك أيضًا أن تتعرف على بعض الأعراض الناتجة عن عدم إشباع هذه الاحتياجات، التي تعوق إدراكك لهُويتك الحقيقية بصفتك ابن لله محبوب وذو قيمة وتتمتع بالكفاءة؟

قال أحد الأشخاص إن تحديد المشكلة هو نصف الحل. ربما ترى الآن بعض الجوانب المتعلقة بهُويتك التي تحتاج لدخول نور الله فيها. هذه الخطوة مهمة للغاية نحو تغيير صورتك الذاتية الداخلية. سنتناول في الفصول التالية الإجابة عن كيف تخطو نحو التغيير وقبل أن أقوم بهذه الخطوة، من المهم لك أن تتعرف على مزيد من العوامل التي لعبت دورًا في ما وصلت إليه صورتك الحالية غير الدقيقة عن نفسك.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله. رجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله رؤوف. نقرأ في مزمور ٨٦: ١٥ «أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَإِلَهٌ رَحِيمٌ وَرَأُوفٌ طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ».

- ماذا يعني لك أن الله رؤوف؟

- كيف لمست رحمة الله ورأفته في حياتك؟

(٢) الله أمين. نقرأ في هوشع ٢: ٢٠ «أَخْطُبُكِ لِنَفْسِي بِالأَمَانَةِ فَتَعْرِفِينَ الرَّبَّ».

- ماذا يعني لك أن الله أمين؟

- ماذا يعني لك أن الله الأمين قد خلقك لتكون خاصته؟

جزء آخر من فهمك لنفسك يتضمن سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أَنْتُ في أمانٍ". نقرأ في رسالة معلمنا بولس الرسول إلى فيلبي: «فَيَمْلأُ إِلَهِي كُلَّ احْتِيَاجِكُمْ بِحَسَبِ غِنَاهُ فِي الْمَجْدِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (في ٤: ١٩).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: «أنا في أمان؛ لأن الله وعد أنه سيسدد كل احتياجاتي".

- ماذا يعني لك أن الله سيسدد كل احتياجك بغنى؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك حيث جعل كل غناه في المجد متاحًا لك ليسدد احتياجك؟

(٢) يقول الله: "أنا أعرف احتياجاتك مسبقًا". نقرأ في إنجيل لوقا «وَأَمَّا

أَنْتُمْ فَأَبُوكُمْ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ. بَلِ اطْلُبُوا مَلَكُوتَ اللهِ وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (لو ١٢: ٣٠، ٣١).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله- أبي- يعلم كل احتياجي. وإذا اخترته أن يكون هو الأول في حياتي، سيسدد كل احتياجاتي".

- ماذا يعني لك أن الله لا يعرف احتياجاتك فحسب، بل يريد أن يسددها أيضًا؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك في تأكيده أنه سيسدد احتياجاتك ويشبعها؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك ونظرتك عن نفسك.

الجزء الثاني
مَنْ أخبرك بهُويتك؟

الفصل الخامس

تأثير عائلتك

من أين استقيت صورتك الداخلية الذاتية؟ في الواقع، لم تبدأ كصورة ذاتية على الإطلاق، لكنك ورثت نظرة أولية عن هُويتك من مصادر أخرى. فبداية من ميلادك وحتى طفولتك ومرورًا بالسنوات الأولى من شبابك، وسم المحيطون بك عوامل معينة بهُويتك من الطريقة التي كانوا يتعاملون بها معك أو يتحدثون بها إليك. فإذا كنت قد تمتعت بالرعاية والتدليل كأنك أمير أو أميرة، ستكبر وأنت تفكر بالمثل باعتبارك أحد أفراد الأسرة المالكة. أمّا إذا كانوا ينتهرونك باستمرار بسبب عدم كفاءتك، فربما تكون تصورت نفسك مثل الدودة التي تفسد كل شيء. وفي براءة الأطفال وسذاجتهم، قبلت هذه الصورة التي رُسمت لك.

لكن هل هذه الصورة دقيقة؟ هذه الصورة ليست دقيقة على الإطلاق، بل بالنسبة لكثيرين منا بعيدة كل البعد عن الحقيقة. فأنت شخص غير كامل تربى على يد أشخاص غير كاملين. وتعتمد دقة صورتك الداخلية على مدى نور الله الذي تخلل بيئتك، وشكّل حياتك من خلال المحيطين بك. إذا كانت المصادر الأولية لصورتك قد أكدت أنك خُلقت على صورة الله، وتستحق موت ابنه عنك، فالله بذلك قد أنعم عليك لتنمو بصورة شبيهة بالأصل. أمّا إذا كانت حياتك قد افتقرت إلى فيض من نور الله فيما يتعلق بهُويتك الحقيقية، فربما تكبر وأنت تعاني من إحساس مشوّه عن هُويتك مثل «كاندل» و«كاترينا» و«چوانا» الذين سبق وأن ذكرناهم في الفصل السابق.

"إذا كانت المصادر الإولية لصورتك قد أكدت أنك خلقت على صورة الله, فالله بذلك قد أنعم عليك لتنمو بصورة شبيهة بالإصل."

لن تستطيع أن تحدد إذا ما كانت الصورة التي ورثتها تمثل بدقة كيف يراك الله إلا عندما تصبح شابًا ناضجًا أو بالغًا. ولن تستطيع أن تنتهج عملية تغيير نظرتك عن هُويتك إلا عندما ترى بوضوح صورتك التي ورثتها وتفهم من أين جاءت.

شكلت أربع عناصر هامة نظرتك عن هُويتك خلال مرحلة الطفولة، هي:

(١) عائلتك: وتشمل والديك، أو زوجة الأب أو زوج الأم، والأشقاء والشقيقات الأكبر منك، والأجداد، والأقرباء الآخرين المقربين.

(٢) الأقران والكبار الآخرون المهمون مثل: المدرسين والأصدقاء المقربين وزملاء الدراسة.

(٣) الثقافة التي نشأت فيها.

(٤) التربية الدينية والخبرات التي اكتسبتها في مرحلتي الطفولة والشباب.

ولكي تقيِّم تأثير كل مصدر من هذه المصادر على المفاهيم الأولى التي كونتها عن هُويتك لابد أن تسأل هذا السؤال: "كيف تخلل النور خلال أي من هذه المصادر حينما كان شعوري بهُويتي يتشكل؟" سنتحدث عن المصدر الأول وهو العائلة في هذا الفصل، وسنتناول المصادر الثلاثة الباقية في الفصل القادم.

عائلتك: من المثالية إلى الواقعية

ما هي خطة الله المثالية التي وضعها ليكتسب الأطفال نظرة سوية لهُويتهم؟ لأن هذه العملية لا تحدث بالصدفة. إن قصد الله الأمثل يبدأ بأسرة مؤمنة، أي رجل وامرأة التزما التزامًا كاملاً بمحبة الله، ومحبة بعضهما البعض كزوج وزوجة. ومن ثم يصبح الزوجان القناة الأولى التي يمر من خلالها نور الله الذي يكشف عن الهُوية الحقيقية لأبنائهم. يلاحظ الأبناء في السنوات الأولى من نشأتهم القدوة الحسنة لوالديهم، ويتمتعون برعايتهما التي تتسم بالمحبة، وتترسخ بداخلهم التعاليم الكتابية. كل ذلك يسمح لهم بأن يروا أنفسهم كما

يراهم الله. وفي هذه البيئة، من الطبيعي تمامًا أن يؤمن الأبناء بالمسيح إيمانًا شخصيًا، ويبدأون في العيش بصفتهم أولاد لله.

إذا سارت الأمور بهذا الشكل، فذلك يُعد بالطبع السيناريو المثالي. لكن المناخ الذي تربيت فيه كان بعيدًا كل البعد عن هذه المثالية، وربما تكون أسرتك أنت أيضًا كذلك. فربما تكون قد كبرت وأنت يتيم الأب أو الأم، أو قد يكون الزوج ليس هو الأب، أو الزوجة ليست هي الأم. وربما تربيت على يد جدك أو جدتك، أو إخوتك الكبار أو أحد الأقرباء الآخرين. وربما لم يكن الذين تربيت على يديهم مؤمنين، وربما كانوا يعاملونك بقسوة وإهانة. وحتى لو كانوا مؤمنين، فربما أسأوا فهم أهمية دورهم في تشكيل شعورك بهُويتك أو تجاهلوا ذلك.

ولأنك لم تختر أيًا من والديك أو أولياء أمرك، فأنت غير مسئول عن تأثير أسرتك في تشكيل شعورك بهُويتك. لكن يجب أن تدرك أن حدوث أي تغيير عن رسم الله المثالي خلال نشئتك، فلابد وأنه أثر على تفسيرك لهُويتك اليوم.

كيف شَكَّل والديك صورتك الذاتية؟

بغض النظر عن الأشخاص الذين تربيت على أيديهم، فإن تقيمهم لك قد انتقل إلى عقلك الذي كان يتميز بسرعة التأثر والتشكيل في مرحلة الطفولة المبكرة. وقد رأيت نفسك في ضوء مواقفهم وأفعالهم السائدة تجاهك. ومن الطبيعي أن يساهم المناخ الموجود في أسرتك في تشكيل شعورك الأولي بهُويتك أكثر من أي تأثير آخر. ولذلك يُعد فهمك لهذا المناخ عاملاً جوهريًا في تغيير فكرتك عن نظرة الله لك.

تبدو مواقف وسلوكيات الأبوين اليومية والثابتة لها تأثير أكبر في تشكيل هُوية الطفل من أي مواقف أخرى. إن هذه المواقف وإن بدت صغيرة لكنها خبرات متكررة. وبالرغم أنك ربما لا تتذكرها، فقد شكلت صورتك الداخلية الأولية بدرجة كبيرة.

أعرف زوجين شابين انتقلا مؤخرًا إلى منزل جديد، وكانا مغرمين بالمناظر

الطبيعية. فقاما بتجهيز عشرين شجيرة وبعض نباتات الزينة الأخرى، ثم بدأت الزوجة في عملية زراعتها. وعلى مدار عدة أيام كانت ابنتهما ذات الثلاثة أعوام تلعب بمفردها في الفناء بينما كانت أمها تعمل بجدٍ في تقليب التربة والحفر ووضع النباتات في الأرض. وكانت ابنتها ذات الثلاثة أعوام تتوسل إلى أمها مرارًا وتكرارًا لكي تلعب معها، لكن كانت الأم تجاوبها بنفاذ صبر: "عليَّ أن أنتهي من زراعة هذه الشجيرات، ثم نلعب بعد ذلك".

وفي صباح أحد الأيام، شاهدت البنت الصغيرة- التي كانت تشعر بالملل- أمها وهي تبذل كل طاقتها في الاعتناء بالشجيرات وبالنباتات. بينما كانت أمها قد حذرتها بعدم إزعاجها بطلب اللعب معها، لم تستطع البنت ذات الثلاثة أعوام والمهمَلة أن تكتم السؤال الذي كان يدور في ذهنها البريء: "ماما، هل تحبينني مثلما تحبي شجيراتك ونباتاتك؟"

من خلال انشغال أمها بتشجير الحديقة، استقبلت البنت الصغيرة رسالة عن نفسها نصت على الآتي: "أنا لست محبوبة مثل زهور ماما". ربما سمحت هذه الأم بوسائل أخرى غير ملحوظة أن تجعل أنشطة الحياة اليومية تؤجل حاجة ابنتها للاهتمام إلى وقت آخر. وقد تعترض هذه الأم بشدة على اتهامها بأنها أحبت الاعتناء بالزهور، أو التسبيح في فريق الترنيم بالكنيسة، أو مشاهدة البرامج التليفزيونية التي تفضلها أكثر من ابنتها. ولكن في كل مرة كانت الأم تعطي الأولوية عن غير قصد لأنشطة أخرى على حساب احتياجات ابنتها الصغيرة، وهكذا تأثر عقل الفتاة سريعًا فيما يتعلق بقيمتها في نظر أمها.

لا يتمتع الأطفال الصغار بصورة واضحة عن أنفسهم بعيدًا عن ما يستقبلونه. فهم يرون أنفسهم في البداية من خلال أعين والديهم، وأولياء أمرهم. وبالتالي فالأطفال الذين يسمعون من أحد والديهم أنهم أردياء أو كسولون أو أغبياء سيصِّدقون ذلك التقييم وسيميلون إلى العيش وفقًا له.

كان «لاري» يصارع ضد الشعور باليأس وعدم الثقة بالنفس منذ طفولته المبكرة. فحتى سن السادسة والعشرين، لم يكن قد قرر بعد ما سيفعله بحياته.

وكان يشعر بالإحباط وعدم الأمان والنقص بدرجة شديدة في معظم المواقف. وذلك لأنه عندما كان طفلاً، كان والده يصفه مرارًا وتكرارًا بالغباء. وحتى اليوم يقول له والده: "أنت لا تجيد فعل أي شيء". وهكذا كان «لاري» يعيش الصورة التي رسمها له والده بأنه أحمق وغير كُفْء على مدار الست والعشرين سنة. ومن هنا يجب أن يتغير مفهومه عن نفسه حتى يتوافق مع رؤية الآب السماوي له.

إن الأبناء الذين يتمتعون بالحب وبالقيمة عند والديهم يكبرون وهم يعيشون وفقًا لهذه الهُوية. منذ السنوات الأولى في حياة «تشارلي»، كان والدها يعلِّمها بسعة صدر إنجاز عدد من المهام المناسبة لسنها، من ربط حذائها حتى استخدام الكمبيوتر، واستخدام أدوات التحكم في الجراج. وقام والدها بتوصيل ثقته الكبيرة في ابنته، وكان يقول لها: "حبيبتي، أعرف أنكِ تستطيعين فعل ذلك، اسمحي لبابا أن يعلِّمك هذا الشيء مرة أخرى، ثم بعد ذلك يمكنك أن تحاولي أن تفعلي ذلك بمفردك". لم يضغط عليها لتؤدي بشكل جيد، ولم يركز أبدًا على إخفاقاتها. لذلك عندما تخرجت «تشارلي» من مدرسة الكتاب المقدس، اختارت الآية الموجودة في فيلبي ٤: ١٣ لترافق صورتها «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي». ولأنها تعلَّمت من والدها أن تكون قادرة وكُفء في مجالات كثيرة، لم يكن لديها مشكلة في رؤية نفسها بصفتها ابنة لله. ونتيجة لذلك اشتركت «تشارلي» في خدمة صعبة داخل المدينة، لكن بإصرارها وثقتها بنفسها ربحت نفوسًا كثيرة لملكوت السموات.

هل رأيت النور في مَنْ تربيت على أيديهم؟

يقدِّم الكتاب المقدس ثلاثة عناصر أساسية لعملية التربية وهي: القدوة والتعليم والعلاقات. إذا كانت هذه المكونات ظاهرة في حياة الذين تربيت على أيديهم، فإن طفولتك ستكون مغمورة بنور الله مما يسمح لك برؤية هُويتك الحقيقية. أمّا إذا كانت هذه المكونات ضعيفة أو مفقودة، فإن رؤيتك لهُويتك ستكون مشوهة.

(١) القدوة

يمثل الوالدين قدوة يُحتذى بها لأبنائهم سواء أدركوا ذلك أو لم يدركوا. والسؤال الوحيد هنا هو: هل كانوا قدوة صالحة أم سيئة؟ قال يسوع: «فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هَكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (مت ٥: ١٦). يراقب الأطفال والديهم، ويقلدون كلامهم، ويتصرفون بسلوكياتهم، ويتمثلون بمواقفهم. وهكذا يتعلَّمون أن يفكروا مثلما يفكر والديهم، ويشعرون بما يشعر به والديهم، ويختارون اختياراتهم، ويتصرفون مثلهم.

ماذا كان يمثل لك والديك؟ هل كانوا قدوة إيجابية أم سلبية؟

(٢) التعليم

أوصى الله شعبه قائلاً: «وَقُصَّهَا (الوصايا)عَلى أَوْلادكَ وَتَكَلمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ» (تث ٦: ٧). كما منح الله الوالدين مسؤولية تعليم أبنائهم المبادئ والتعاليم الكتابية ليعيشوا وفقًا لها. فالتعليم في البيت يجب أن يتخطى تعليم الأطفال كيف يربطون أحذيتهم وإنجاز أعمال المنزل. كما يجب أن يتضمن تعليمهم أمور مهمة عن الله والإيمان والخلاص والطاعة. كذلك لا يجب أن تتضمن التعاليم الكتابية التعليم الشفهي فحسب، بل يجب أن تشمل أيضًا تعليمًا منظمًا ومناسبًا للمراحل العمرية المختلفة. ماذا تعلَّمت من والديك عن الله، والإيمان المسيحي، والعلاقة مع الرب يسوع المسيح؟ وماذا تعلمت منهما عن الحياة وفقًا لتعاليم الكتاب المقدس؟

(٣) العلاقات

على الوالدين أن يحبوا أطفالهم ويتقربوا إليهم كأشخاص بطريقة تتسم بالحب والرعاية. يجب أن تُطبق وصية المسيح «كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ بَعْضاً» (يو ١٣: ٣٤) في البيت أولاً. كذلك يحتاج الأبناء إلى الحب والعناية بهم كأشخاص. لقد قال المرنم: «هُوَذَا الْبَنُونَ مِيرَاثٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ» (مز ١٢٧: ٣). كيف تتعامل مع الهبة أو العطية؟ لابد وأنك ستقدِّرها وتعتز بها. فبدون علاقة

حميمة ومحبة دافئة بين الوالدين والأبناء، يصبح القدوة والتعليم عنصرين غير مؤثرين في حياة الطفل. كيف تقرّب إليك أبواك عندما كنت طفلاً؟ هل تعاملا معك على أنك تدخل تحت نطاق مسؤوليتهما، أم عبء عليهما، أم شيء مزعج لحياتهما؟ هل تعاملا معك بكل محبة بصفتك شخص يقدِّرانه ويعتزان به؟

رؤية النور من خلال والديك

يتمتع الأبناء الذين يغمرهم نور الله من خلال والديهم- اللذين يمثلان قدوة حسنة ويقدّمان رعاية وحب- بفرصة أكبر لينموا وهم يرون أنفسهم كما يراهم الله. وسنقدم هنا الصورة التي يجب أن يكون عليها النور الذي يأتي من خلال والدين مؤمنين محبين:

(١) يساعد الوالدان أبناءهم على فهم أن الله يحبهم ويقدرهم عندما يظهران علاقة حميمة مع الرب يسوع المسيح. ويمثل ذلك عنصر القدوة في حيز التنفيذ. يعكس الوالدان نور السيد المسيح عندما يتحدثان باحترام ووقار عنه في حديثهما اليومي، وعندما يتقربان إليه كشخص وليس قائدًا دينيًا، وعندما يتشكل سلوكهما بتعاليم السيد المسيح وأفعاله.

كيف ينظر هؤلاء الذين تربيت على أيديهم إلى شخص الرب يسوع؟ هل كانا ينطقان باسمه بكل وقار في البيت، أم أنه كان للحلف والقسم فحسب؟ هل كانت محبة المسيح غير المشروطة ظاهرة في سلوك والديك أم كانت كلماتهما وأفعالهما تعكس روح الأنانية واللامبالاة؟ هل كانا يقرآن أو يقصان عليك بعض القصص عن الرب يسوع في البيت؟ هل كان يتحدثان عن تبعيتهما وعلاقاتهما اليومية بالسيد المسيح؟ هل سمعت مصادفة صلاة والدك أو والدتك، وشعرت أن الله موجود في الغرفة؟ هل كنت تسمع والديك يقولان أشياء مثل: "أليس رائعًا أن يسوع يحبنا ويسامحنا؟"، أو "نشكر الله لأجل أنه أعطانا ابنًا مثلك"، أو "قد حفظنا يسوع حقًا عندما كسرت تلك السيارة الإشارة الحمراء ونحن نعبر الطريق؟"

(٢) يساعد الوالدان أبناءهم في رؤية أن الله يحبهم ويقدرهم عندما يكون

الكتاب المقدس هو مركز حياة الأسرة. وهذا هو عنصر التعليم الخاص بالتربية في حيز التنفيذ. فالكتاب المقدس هو كلمة الله المكتوبة التي تقول مَنْ نحن في نظر الله. وعندما يكون الكتاب المقدس جزءًا من حياة الأسرة، فإن الأبناء سيستوعبون بصورة أوضح هُويتهم الحقيقية.

لا يعد الآباء والأمهات الذين يطلبون من أبنائهم أن يجلسوا كل يوم ويفتحوا الكتاب المقدس ويعظوهم فحسب، معلِّمون مؤثرون، لكن الكتاب المقدس هو بالأحرى أساس التعليم المؤثر عندما نرجع إليه، ونتحدث عنه، ونقرأه، ونقتبس منه النصوص المناسبة لسياق الأنشطة اليومية. وتكون الفائدة كبيرة عند دراسة الكتاب المقدس دراسة منظمة، وتحديد صلوات الأسرة في مواعيد محددة، أو التخطيط لعمل مسابقات في حفظ بعض أجزاء من الكتاب المقدس. لكن الدراسة المنظمة للكتاب لا تكون مؤثرة سوى عندما يتحدث الوالدان عن الكتاب المقدس، ويشيرا إليه تلقائيًا في أوقات أخرى خلال الأسبوع.

يعلِّم الآباء والأمهات مقدار أهمية الكتاب المقدس من خلال ارتباطهم به ارتباطًا شخصيًا. كان «توم» و«چاكي» لديهما ابنان. وبينما كان الابنان يكبران، كان «توم» معتادًا على الاستيقاظ مبكرًا في كل صباح ليقرأ أصحاحًا من الكتاب المقدس على المنضدة التي في حجرة الطعام. وكان عادة ما يفعل ذلك قبل استيقاظ بقية أفراد الأسرة. لكن في بعض الأحيان كان يدخل أحد الابنين إلى حجرة الطعام فيجد «توم» منحنيًا على الكتاب المقدس الموضوع على المنضدة. لم يكن «توم» يُعطي اهتمامًا كبيرًا لما كان يفعله، فلم ينظم أوقات صلواته بحيث يراه الطفلان على هذا النحو.

عندما دخل «كيب» الابن الأكبر المدرسة الثانوية، كان عليه أن يستيقظ مبكرًا ليتدرب في فريق السباحة. وفي صباح أحد الأيام، دخل «توم» حجرة الطعام ليقرأ الكتاب المقدس، فوجد «كيب» يجلس على كرسيه، ويقرأ الكتاب المقدس. لم يعارض «توم» على الإطلاق وبحث عن مكان جديد ليقضي فيه وقته المخصص للصلاة طوال الفترة التي كان فيها «كيب» يتدرب في فريق السباحة. واليوم تزوج الابنان، ويتذكران القليل جدًا عن صلوات الأسرة في بيت والديهما، لكنهما شاهدا

ماذا كان يعني الكتاب المقدس لوالدهما، ونتيجة لذلك صارا رجالاً حسب كلمة الله بالحقيقة.

كم من النور تخلل حياتك من خلال الكتاب المقدس أثناء نشأتك؟ إذا كان في بيتك كتاب مقدس، هل كان أهم من التحفة التي ورثتها الأسرة أو الديكور الموضوع هنا أو هناك؟ هل كنت ترى أحد والديك أو كليهما يقرآن الكتاب المقدس؟ هل كانا يقرآن عليك الكتاب المقدس أو بعض قصصه؟ هل كنت تشعر أن والديك يعتبران أن ما جاء في الكتاب المقدس هو الحق لدرجة أنهما كانا يعيشان حياتهما وفقًا لمبادئه وتعاليمه؟ هل تتذكر الأوقات التي كانت آيات الكتاب المقدس أو موضوعاته تُناقش بشكل عرضي غير متعمد في سياق أنشطة الأسرة؟

(٣) يساعد الآباء والأمهات أبناءهم على اكتشاف أن الله يحبهم ويقدِّرهم عندما تكون العلاقة مع مؤمنين آخرين جزءًا أساسيًا من حياتهما. وهذا عنصر آخر من عناصر التربية السليمة. يتضاعف الحب والرعاية التي يتمتع بها الأبناء عندما يتواجدون في بيئة يعتني فيها المؤمنون ببعضهم البعض، ويشجعون بعضهم البعض، وعندما يرى الأبناء والديهم يعتنون بالآخرين، ويعتني بهم الآخرون أيضًا، فيتعلمون أن الله يحبهم ويحب الآخرين أيضًا. علاوة على ذلك، عندما يتفاعل الأبناء مع مدرسين مدارس الأحد، وقادة الشباب، والمؤمنين الناضجين الآخرين في ضوء الكتاب المقدس، فإن الرسالة التي تحملها حياة والديهم تصبح أكثر تأثيرًا.

كم من النور تخلل حياتك من خلال دور الكنيسة؟ هل كان والداك نشيطين في كنيسة مركزها المسيح والإيمان بما جاء في الكتاب المقدس؟ هل كانت أنشطة الكنيسة جزءًا هامًا في حياة أسرتك؟ هل كان والداك يشجعانك على الاشتراك في مدارس الأحد أو مدرسة الكتاب الصيفية أو اجتماعات الشباب أو أنشطة أخرى تستطيع من خلالها أن تتقرب من أشخاص في نفس سنك؟

يوجد أمل للبيت غير المثالي

اعتدت قبل أن أتزوج أن أقضي وقتًا طويلاً في منزل «باولا». وكان والداها من أروع الأشخاص المؤمنين. لم أسمعهما مطلقًا يتجادلان أو حتى يرفعان أصواتهما على بعضهما البعض. وكنت دائمًا أفكر: "لماذا يا الله لم تعطني والدين مثل والدي «باولا»، فهم يُحبان بعضهما البعض؟" لم يكن بيتنا بيتًا مسيحيًا، ولم يكن الكتاب المقدس والكنيسة جزءًا من تربيتي، والأكثر من ذلك لا أتذكر أبي وهو يحتضني، ولم أراه يحتضن أمي أيضًا. ومع أن أسرتي كانت لها بعض الأوقات الطيبة، فأن تيارًا من المحن والشدائد والأحزان المستمرة خيّم على حياتنا. وكان إدمان والدي للكحوليات سببًا رئيسيًا وراء الكثير من المشكلات. ونتيجة لذلك كبرت ولديّ نظرة مشوهة عن محبة الله لي وقيمتي في نظره.

وهكذا تعودت أن أقضي الكثير من الوقت في بيت «باولا» لأنني كنت أحسدها. ثم أدركت بعد ذلك أن الله اختار لي والدين مثلما اختار والدي «باولا». وبدأت أرى أن الله استخدم الصفات التي اتصف بها والديَّ-حتى غير المرغوب فيها- ليُشكل حياتي.

إذا كنت تشعر بأنك غير متميز بسبب خلفية مظلمة، لا تُحبَط؛ فالله يستخدم ظروف حياتنا كافة، الجيدة والسيئة، ليعدِّنا لما سيفعله فينا وبنا. فكل شيء يحدث لنا يمثل فرصة يمنحنا الله من خلالها العزاء، ويعدنا لنعزي آخرين أيضًا (انظر ٢كو ١: ٣، ٤). وقد استخدم الله ما ورد في رومية ٨: ٢٨ ليساعدني على رؤية صورة أفضل لنشأتي: «وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعاً لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ». واليوم أنا أشكر الله بصدق شديد من أجل والدي مدمن الكحول؛ لأن الله المخلِّص استخدم هذه الظروف ليشكلني ويعدني لأساعد آخرين أيضًا.

ربما تكون قد فهمت بعضًا من إخفاقات والديك بشكل أكثر وضوحًا. إذا كنت كذلك، عليك أولاً أن تصل إلى النقطة التي تصلي فيها قائلاً: "شكرًا لك يا الله على والديَّ، فأنا لا أفهم حكمتك في أن تسمح لي أن أختبر ما قد اختبرته خلال نشأتي وتربيتي. لكن أؤمن أنك ستجعل كل هذه الأمور تعمل معًا لخيري".

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله. ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله يفهم ويفحص كل شيء. نقرأ في سفر أخبار الأيام الأول: «اعْرِفْ إِلَهَ أَبِيكَ وَاعْبُدْهُ بِقَلْبٍ كَامِلٍ وَنَفْسٍ رَاغِبَةٍ, لأَنَّ الرَّبَّ يَفْحَصُ جَمِيعَ الْقُلُوبِ وَيَفْهَمُ كُلَّ تَصَوُّرَاتِ الأَفْكَارِ» (١أخ ٢٨: ٩).

- ماذا يعني لك أن الله يعرف ويفهم كل شيء؟

- ماذا يعني لك أن الله يفهم كل شيء عنك وعن حياتك؟

(٢) الله لا يتغيَّر. نقرأ في ملاخي «لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ لاَ أَتَغَيَّرُ» (ملا ٣: ٦).

- ماذا يعني لك أن الله لا يتغيَّر؟

- ماذا يعني لك أن الله ثابت ويمكن أن تعتمد عليه، فهو ليس متقلب الأطوار؟

جزء آخر من فهمك لنفسك يتضمن سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنت إنسان كامل". نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى كولوسي: «وَأَنْتُمْ مَمْلُوؤُنَ فِي المسيح» (كو ٢: ١٠).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "بفضل يسوع المسيح أنا إنسان كامل، وليس ناقصًا في شيء".

- ماذا يعني لك أن الله خلقك إنسانًا كاملاً، وليس غير ذلك؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك عندما خلقك بهذا النوع من الكمال؟

(٢) يقول الله: "أنت وريثي". نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى رومية «فَإِنْ

كُنَّا أَوْلاَداً فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضاً وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضاً مَعَهُ» (رو ٨: ٧).

خذ هذه الآية بصورة شخصية: "أنا ابنٌ لله، وكل ما أعطاه لابنه المحبوب يسوع المسيح، سيشاركني فيه أيضًا".

- ماذا يعني لك أنك تشارك الله كل ممتلكاته؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك عندما جعلك وريثًا وابنًا له يفيض عليه بالبركات؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك ونظرتك إلى نفسك.

الفصل السادس

أول مَنْ رسم صورتك الذاتية

يُعد الوالدان هما أول مَنْ رسما صورتك الذاتية. وفي معظم الحالات، يكون الأب أو الأم الأكثر سيطرة وهيمنة على البيت هو صاحب التأثير الأكبر على الصورة التي ترى نفسك بها. بالنسبة لي، كان والدي هو الشخصية المسيطرة في البيت، ومع ذلك كنت على علاقة سطحية معه أو تكاد تكون منعدمة. وربما يكون ذلك هو ما حدث معك أنت أيضًا. وحدث الشيء نفسه بالتأكيد مع صديقي «أونيل».

كان «أونيل» هو الأخ الأكبر لثلاثة أطفال، وتربى في مدينة صغيرة. وكان والديه يُظهران الحب لأبنائهما بأفضل الطرق التي يعرفونها؛ حيث كان يوفران لهم كل احتياجاتهم المادية. لكن والده استبدل الحب الأبوي بالعمل الشاق. فلم يضع ذراعه مطلقًا حول ابنه، ولم يقول له كلمة حب، ولم يفتخر به يومًا. وكذلك والدته- التي كانت تفتقر أيضًا إلى الحميمية، وكانت تخاف عليه بصورة مفرطة.

عندما كان «أونيل» طفلاً اجتهد ليكسب قبول والديه، ومحبتهما، وإعجابهما. وحاول أن يكون الشخص الذي يريدانه. فقد كان ابنًا مطيعًا وناجحًا، وكان أخوه الأصغر وكذلك أخته يتخذانه مثلاً يُحتذى به. فلم يكن مسموحًا له بأن يتشاجر مع الأطفال الآخرين. وكانت والدته تتدخل دائمًا في أي وقت يحدث فيه مشاجرة. وعندما دخل المدرسة الثانوية، أطلق عليه أقرانه «لاسي»، لأنهم كانوا يعتقدون أنه فتى يرتدي ملابس داخلية نسائية.

وما زاد الأمور سوءًا أن «أونيل» كان يعاني من التبول اللإرادي حتى سن

الخامسة عشر. ولم يفهم والده أسباب ذلك، بل كان يتعامل معه بغضب متهمًا إياه بفعل ذلك عن قصد حتى يغيظه. وكان «أونيل» يعاني من شعور متزايد بالوحدة، وكذلك من الشعور بالدونية؛ لأنه لم يكن قادرًا أن يبيت ليلة واحدة مع أقرانه من الأولاد بسبب التبول اللاإرادي. وعندما حاول أن يشارك في بعض أنشطة الكشافة، كان زملاؤه يستهزئون به. امتلأ «أونيل» بالغيظ، لكنه لم يجد أي متنفس له بسبب عدم وجود علاقة مع والده، وعدم القبول الذي يعانيه مع أصدقائه.

بعد فترة اكتشف «أونيل» نفسه في لعبة كرة القدم، ووجد ضالته في التنفيس عن غضبه في أرض الملعب لأنه كان يتمتع بالطول والقوة والموهبة. وخلال المرحلة الثانوية، اختفت مشكلة التبول اللاإرادي، واستطاع أن يكوّن أول فريق في كرة القدم. وأخيرًا بدأ «أونيل» يتمتع ببعض الاحترام من زملائه في الفصل. ونتيجة إسهامات «أونيل» الكبيرة، ذهب فريقه ليشارك في مسابقات على مستوى الولاية. ولأن الشخص المسؤول عن توزيع الجوائز الرياضية في المنطقة لا يحب والد «أونيل»، لذلك تم تجاهل «أونيل» وقت الإعلان عن تسليم ميداليات الشرف في الولاية. وأدى ذلك إلي مزيد من الفرقة بين «أونيل» ووالده. وفي الوقت نفسه، اشترك «أونيل» في مجموعة شباب بالكنيسة وكانت إمكانياته تفوق الأفراد الآخرين في المجموعة. ومع أنه كان مسيحيًا بالاسم فقط، فقد أصبح قائدًا لمجموعة من الشباب بعد أن اكتسب تقدير المسؤولين الكبار. وفي أحد المعسكرات الصيفية كرّس حياته للخدمة لأنه شعر أن القادة الكبار يتوقعون منه ذلك. لكن بدأ «أونيل» حياته الجامعية بإخفاق جديد، حيث ألغيت منحة كرة القدم التي وُعد بها من إحدى الجامعات الكبرى في اللحظة الأخيرة. وبعد أن امتلأ بالغيظ من هذا الرفض، قرر أن يُثبت أنه يستطيع أن يلعب على المستوى الجامعي الأول. وتمكن بسهولة من تشكيل فريق وتسجيله في جدول المسابقات خلال عامه الأول في الجامعة. لكن المدير الفني لم يُعجب بهذا "الشاب المسيحي اللطيف"، فعمل على مضايقته داخل الملعب وخارجه، وروج اتهامات باطلة عنه، وأجلسه في الاحتياطي بدون سبب. وعندما واجهه «أونيل» بغضب، قال له

المدرب إنه لن يلعب كرة القدم مرة أخرى في الجامعة. وكان ألم الشعور بالرفض من شخص يمثل دور الأب أكبر مما يستطيع «أونيل» تحمله.

وكانت إجازات «أونيل» الأسبوعية في الجامعة عبارة عن مُعاناة من الوحدة والغضب والإحباط. وكان يمشي في الشوارع لساعات كل ليلة يبحث عن فتاة ليل، أو ينغمس في مشاجرة. ولم يكن لديه أصدقاء مقربون. وكان يخاف أن يسمح لأي شخص أن يقترب منه بشكل كافٍ خشية أن يرى الطفل المرعوب بداخله. وكان متأكدًا أنه لن يحبه أحد؛ لأنه لم يكن يحب نفسه. وكان طوال الوقت يعمل في إعداد نفسه للخدمة مع أنه كان يعرف أنه لا يوجد عمق لإيمانه المسيحي.

وفي وقت الصيف بعد عامه الأول في الجامعة، سمع «أونيل» لأول مرة رسالة الإنجيل عن بكل وضوح. وقَبِل المسيح، وتوقع أن حياته ستتغير تغييرًا كاملاً. لكن لم يبدو أن شيئًا قد تغيَّر. ولم يتلاشى شعوره بالوحدة والدونية والغضب. وكان أكثر إحباطًا ويأسًا من ذي قبل. عرف «أونيل» أن المسيح قد دخل حياته، لكنه كان يشعر بالإحباط لأن مشكلاته لم تنتهِ كما كان يتمنى.

تقابل «أونيل» في عام التخرج بفتاة رائعة وتزوجها. ولكن يبدو أن الزواج أثار بداخله مشاعر أكثر من الدونية. فلم يكن قادرًا على التواصل مع زوجته على المستوى الشخصي؛ لأنه كان خائفًا أن يسمح لها أن تعرف حقيقته. وهكذا عانى زواجهما في الشهور الأولى من مشكلات كثيرة.

التحق «أونيل» وزوجته بعد الجامعة بالعمل في معسكر مسيحي. وكانت نقطة التحول في حياة «أونيل» حين تقابل مع مشير مسيحي خلال المعسكر؛ إذ ساعده هذا المشير على فهم كيف أن ابتعاد والده عنه وعدم اهتمامه به قد ولَّد لديه شعورًا خاطئًا بهُويته. وقد أعاقته ظلال الماضي الكثيفة من التمتع بحياة مثمرة بصفته ابن لله محبوب وله قيمة. وقدَّم المشير الروحي الحقائق الكتابية التي تلقي بالضوء على هُويته الحقيقية في المسيح. وابتدأ «أونيل» يؤمن أن الله يحبه حقًا، ويقدره ويراه كُفء من خلال مشاعر القبول ودفء المشاعر والإعجاب التي أظهرها له المشير المسيحي. وفي هذا الصيف، ابتدأ أونيل يرى

نفسه كما يراه الله. وقد أدرك من خلال السعي إلى علاقة حميمة وعميقة مع المسيح بدراسة الكتاب المقدس، وحياة الشركة مع المؤمنين المحبين أن الصورة الداخلية التي ورثها عن والده والآخرين كانت غير دقيقة. وكان «أونيل» وزوجته يقضيان ساعات عديدة في المشورة المسيحية؛ مكتشفيْن الحقائق العجيبة عن هُويتهم في المسيح. لم يكن التغيير سهلاً، لكن «أونيل» تمتع أخيرًا بالصورة التي خلقه الله ليكون عليها. ولا يحمل «أونيل» اليوم أي مرارة نحو والده مع أن ذكريات طفولته الصعبة لا تزال تحركه عاطفيًا. وقد نضج من خلال تجربته المؤلمة، وخدم المئات من المجروحين على مر السنين. وتلخص شعوره بالامتنان في كلمات الرسول بولس: «مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الرَّأْفَةِ وَإِلهُ كُلِّ تَعْزِيَةٍ، الَّذِي يُعَزِّينَا فِي كُلِّ ضِيقَتِنَا، حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نُعَزِّيَ الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ ضِيقَةٍ بِالتَّعْزِيَةِ الَّتِي نَتَعَزَّى نَحْنُ بِهَا مِنَ اللهِ» (١كو ١: ٣، ٤).

الحياة مع أب مدمن للخمر

تتماثل تجربة «أونيل» مع تجربتي في عدة جوانب. فقد أعاقت تجربتي مع والدي بشدة اكتساب شعوري بهُويتي بصفتي ابن لله محبوب وذو قيمة وكُفْء. كان والدي مدمنًا للخمر، وكان أصدقائي في المدرسة يطلقون عليه النكت، ويقولون إنه «خامورجي» المدينة. ولم يدركوا مطلقًا كيف كان مزاحهم يضايقني، فكنت أضحك في الظاهر، ولكني كنت أبكي في داخلي. كنت أذهب أحيانًا إلى المخزن وأجد والدتي على الأرض فوق سبخ البقر بعد أن ضربها والدي ضربًا مُبرحًا حتى تكاد لا تستطيع الوقوف على قدميها. وقد تركت البيت مرتين نتيجة إيذائه لها. وعندما كنت أدعو أنا وإخوتي أصدقاءنا في البيت، كنت أتأكد قبلها أنه لن يُحرجنا بسكره. وأحيانًا كنت آخذه إلى المخزن وأقيّده، أو أخفي سيارته في الجراج بالجانب البعيد في الصومعة. وكنا ندعي أن والدنا كان مضطرًا للذهاب إلى مكان ما. لا أعتقد أن أحدًا قد كره شخصًا آخر أكثر من كرهي لوالدي. وفي مرات عديدة كنت أنفجر من الغضب وأضربه حتى أكاد أن أقتله.

أمّا بالنسبة لهُويتي أو نظرتي لنفسي، كنت معدوم الحيلة! فبسبب عدم

احترام والدي لوالدتي ولي، كنت غير مدرك تمامًا أن الله أو أي شخص آخر يمكن أن يراني محبوبًا وذا قيمة وكُفء. وحتى أعوض صورتي الداخلية القبيحة التي مررها لي والدي، كنت أحاول أن أصبح موضع إعجاب الآخرين، وهكذا كنت أبذل مجهودًا أكثر من أي شخص آخر في فريق الترنيم، وفي دراساتي، وفي الألعاب الرياضية. ونتيجة لذلك، تميّزت في الدراسة والرياضة، مع أني كنت طوال الوقت أتوقع الفشل في هذين المجالين.

وعندما التحقت بالجامعة، قال لي دكتور جامعي أنني أمتلك موهبتين هما: القدرة على جمع البراهين والحقائق معًا لإثبات نقطة معينة، وعزيمة وإصرار لا حدود لهما. واقترح عليَّ أن أفكِّر في دراسة القانون. ورأيت أخيرًا بصيصًا من الأمل لأكتسب الاحترام الذي افتقدته في طفولتي، وشرد ذهني إلى أبعد من مهنة المحاماة، إلى حيث سوف أظهر لوالدتي وللجميع أنني قوة لابد من الاعتراف بها. ثم وضعت خطة استراتيجية تمهد لي الطريق لأصبح حاكم ولاية «ميتشجن» خلال خمسة وعشرين عامًا. وكانت الخطوة الأولى هي أن يتم انتخابي ممثلاً عن طلاب السنة الأولى، وهي الخطوة التي تحققت سريعًا وحذفتها من قائمة أهدافي.

ولأني كنت مغرورًا بقوى المنطق التي أكتشفتها مؤخرًا في نفسي، قررت أن أقوم بدحض المسيحية وتفنيدها من خلال أحد الأبحاث المقررة عليّ. وكان ذلك كرد فعل لمناقشة عابرة مع مجموعة من المبشرين. وبعد أن بدأت المشروع، تقابلت مع مجموعة من الطلاب المسيحيين. ولمدة أكثر من عام، كنت أتجادل معهم عن حقيقة المسيحية. ومع ذلك، وبعد أن رأيت الأدلة الكاملة، أدركت أنني لن أستطيع أن أنفي صحة المسيحية.

كنت لا أزال مقاومًا. حتى لو كان يسوع أجرى معجزات، وقام من بين الأموات، لكنه أضاع سعادتي. لم أكن أريد أي شخص يفسد أوقاتي الطيبة. وبعد أكثر من عام، وبعد تفكير طويل وسهر وأرق بالليل، قررت أن أستسلم، وقلت لله: "رغمًا عن نفسي، أشعر أنني أؤمن بحقيقة وجودك". واعترفت له بخطاياي، وأنني كنت على خطأ، وطلبت منه أن يسامحني، وسألته أن يستلم حياتي

ويجعلني مثل أصدقائي المؤمنين.

لم أشعر بتحسن في البداية، لكني في الواقع ازدت سوءًا، وكنت أتساءل ما الذي فعلته بنفسي. لا زالت أكره والدي وأصارع مع شعوري بالدونية والانهزامية اللذين كبرا معي. لكن في غضون شهور، بدأت حياتي في التغيُّر. وبدأ قدر من السلام يحل محل شعوري المستمر بالخوف. اختفى طبعي الحاد، وترتب على ذلك أن الله غيَّر الكراهية التي بداخلي نحو والدي إلى نوع من التعاطف، واستخدمني الله لكي أقوده للمسيح قبل أن يتوفى.

كان شعوري المبكر عن هُويتي مشوهًا بدرجة كبيرة بسبب علاقة يشوبها الاضطراب مع أب مدمن للخمر. وكانت هذه الصورة الذاتية القاتمة تمثل عائقًا كبيرًا في حياتي إلى أن آمنت بالمسيح وبدأ يغيِّر نظرتي لنفسي.

تأثير الوالدين

إن عدم قدرة والدي على محبتي والاهتمام بي أعاقت بشدة قدرتي على اكتساب نظرة إيجابية عن نفسي. حتى أن هذه التجربة جعلتني أؤمن أن لا أحد يشترك في رسم صورتك الداخلية الأولى أكثر من الأب أو الأم المسيطر على البيت، وبالنسبة لي كان هذا الشخص هو والدي.

عندما يفشل أي من الوالدين في إشباع احتياجات أبنائهما من الاهتمام والقبول والتقدير والمساندة والتشجيع والحب والاحترام والشعور بالأمان والتعزية والإعجاب، فإن ذلك يعوق الأبناء عن رؤية أنفسهم كما يراهم الله المحب. ومن الخيال أن نعتقد أن الأبناء سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا يمكن أن يكتسبوا نظرة أولية دقيقة بالصورة التي خلقهم الله عليها بينما لا يقوم الأب أو الأم بدورهما الذي عينه الله لهما.

لا نحتاج لمن يذكرنا بانهيار الأسرة الأمريكية في مجتمعنا، واختفاء الآباء والأمهات المحبين الذين يساندون أولادهم، وبصفة خاصة الآباء. فقد تربى عدد محدود من الأبناء في بيوت كان الأب موجودًا ونشيطًا في تربية أولاده. ولكن

عندما يتخلى الأب عن دوره سواء بالغياب جسديًا من خلال الطلاق أو الانفصال أو الغياب عاطفيًا من خلال إعطاء الأولوية لشغله ولهواياته على أسرته، فإن الأبناء يُسلبون إحساسهم بهُويتهم وكينونتهم.

ويبدو أن هذه المشكلة بدأت مع الثورة الصناعية وتمدن المجتمع. فعندما كان المجتمع زراعيًا، وكانت الثقافة ريفية، كانت شخصية الأب لها دور محوري وفعّال في البيت الأمريكي وفي نمو الأبناء. وكان الأب يحتك احتكاكًا أكبر مع أبنائه بسبب عمله في مزرعة الأسرة، خاصة وأن الأبناء كانوا يعملون بجانبه بمجرد أن يكونوا قادرين على فعل ذلك. علاوة على ذلك، فإن غياب عوامل التشتيت الخارجية مثل التليفزيون وألعاب الڤيديو والإنترنت أتاحت وقتًا للتسلية معًا كأسرة واحدة في وقت المساء. وهكذا كان الأب والأم والأولاد يعملون معًا ويلعبون أيضًا معًا.

وحيث إن الأجيال السابقة كانت تلتزم التزامًا عميقًا بقيّم الكتاب المقدس، فكانت الأسرة الريفية كثيرًا ما تصلي معًا، وتحضر الكنيسة أيضًا معًا. وبفضل الاشتراك في العمل والتسلية والعبادة الحميمة مع الأب والأم، فإن أبناءهم تمتعوا برؤية أوضح لهُويتهم الحقيقية في نظر الله.

"عدم قدرى والدي على محبتي والاهتمام بي أعاقت بشدة قدرتي على اكتساب نظرة إيجابية عن نفسي."

في أيامنا هذه، يعمل معظم الآباء والأمهات خارج البيت، ومن النادر أن يرى الأبناء أماكن عمل والديهم. كذلك بعض الأبناء لا يعرفون مهنة والديهم، ناهيك عن فرصة العمل معًا. ربما يرى الأب أبناءه على الإفطار أو الغذاء، وفي بيوت عديدة يغادر الأب قبل أن يستيقظ الأبناء ولا يعود إلا في ساعات متأخرة من الليل. كذلك يسافر بعض الآباء طوال الأسبوع، ولا يريدون من يزعجهم في العطلة الأسبوعية. وبالتالي تعمل وظائفهم وهواياتهم على ابتعاد أولادهم عنهم بدلاً من التقرب إليهم على عكس المجتمعات الريفية.

يعاني أغلبية كبيرة من الأمريكيين اليوم من توتر علاقة الأب وأبنائه. وقد

أصبح ذلك مشكلة واسعة الانتشار، ولها تأثيرات كثيرة ونتائج لا حصر لها. ولو كنت أمتلك القوة اللازمة لتغيير إحدى الظواهر المجتمعية، كنت سأقوم بمعالجة مشكلة غياب الوالدين عن البيت الأمريكي ودورهم السلبي وعدم مشاركتهم في البيت- وأقصد بصفة خاصة الأب.

من المعروف أن الفتيات يتمتعن بتربية أكثر قربًا مع أمهاتهن أكثر من الأولاد سواء مع آبائهم أو أمهاتهم. ومع أن الصبيان والفتيات يحتاجون إلى مشاركة إيجابية من كلا الوالدين، فإن الأولاد يعانون بصورة أكبر من الضياع عندما يغيب الأب عن البيت جسديًا أو معنويًا. ونتيجة لذلك، تتمتع الفتيات في كثير من الأحيان بشعور أفضل عن هُويتهن أكثر من الصبيان.

أدرك صديق لي هذا الاختلاف عندما كان مديرًا لشئون العاملين في هيئة الخدمة الروحية، وكان يقوم في وظيفته بإجراء مقابلات مع خريجي الكليات المتقدمين لشغل وظائف في هيئة الخدمة الروحية. وقد لاحظ أن الفتيات المتقدمات يُظهرن بثبات شعورًا سويًا وواثقًا بهُويتهن أكثر من المتقدمين من الذكور لشغل الوظائف نفسها. كان الذكور بشكل عام أقل ثقة في أنفسهم. مع العلم أن جميع المتقدمين كانوا من الطلائع من المتفوقين رياضيًا أو دراسيًا. لكن صديقي وجد أن الذكور كانوا أقل ثقة في أنفسهم من الإناث.

رجال محرمون من رعاية الأب

إذا كنت رجلاً، فمن المحتمل أن يكون مفهومك لهُويتك قد تأثر بشكل كبير بعلاقتك بوالدك، خاصة من خلال علاقتك به في مرحلة طفولتك. هل تربيت في بيت كان الأب موجودًا فيه؟ إذا كان الوضع كذلك، هل كان لوالدك دور فعّال في حياتك سواء من خلال اعتنائه بك أو توجيهك أو تقويمك، أو كصديق لك أم كنت مثل «أونيل» ومثلي، ضحية أب غير محب اعتاد على إهانتك؟ أو هل كان مدمنًا للخمر، وبالتالي شعرت بأنك غير محبوب وبلا قيمة وغير كُفْء؟ سواء كنت محرومًا من والدك؛ لأنه كان غائبًا جسديًا أو معنويًا، فعلى الأرجح قد تشكلت هُويتك وتأثرت بغياب دوره في حياتك.

(١) يكبر الرجال المحرومين من وجود الأب بشعور ضعيف فيما يتعلق برجولتهم. عندما يفتقر الصبيان إلى رعاية آبائهم ومحبتهم، يُتركون لأنفسهم اكتشاف معنى الرجولة. ويحاول معظم الرجال تعويض هذا النقص، ويقومون بذلك بطرق شتى.

يحاول البعض أن يبرهنوا رجولتهم من خلال إنجازاتهم. فإذا استطاع الرجل أن يكسب مالاً كثيرًا، أو أن يتسلق السلم الوظيفي أسرع من زميله في العمل، فهو يعتقد بذلك أنه أظهر رجولته.

ويحاول البعض الآخر أن يبرهن رجولته من خلال المنافسة. فالشاب الذي يفوز سواء في لعبة الشطرنج أو الجولف أو البيسبول يصبح «الرجل الأفضل». وكان هذا أمرًا هامًا بالنسبة لي خلال سنوات حياتي. حيث كنت منافسًا شرسًا يكره الخسارة. وكانت تلك هي طريقتي في إظهار رجولتي.

وعادة ما ينقل الرجال الذين يسعون بشراسة إلى الفوز هذا الشعور المشوه بالرجولة لأبنائهم. عندما كان يلعب «چويل»- ذو التسع سنوات- ألعاب الڤيديو مع والده، كان اللعب ينتهي دائمًا ببكاء «چويل». فوالد «چويل» لم يكن يلعب للمتعة، ولم يكن يسمح لابنه الصغير أن يتقدم عليه. وكان عليه أن يفوز دائمًا، ونتيجة لذلك كبر «چويل» وهو يعاني من نفس الاضطراب النفسي.

لكن يوجد الكثير فيما يتعلق بهُويتك بصفتك ابن لله أكثر من رجولتك. فإذا وجدت أنك تصارع دائمًا من أجل إثبات نفسك، فربما يحدث ذلك لأنك لم تلقَ اعتناءً كافيًا من والدك. ستساعدك الفصول القادمة أن تختبر عملية التغيير لترَ نفسك كما يراك الله.

(٢) عادة ما يكبر الرجال المحرمون من الأب بمشاعر عدوانية نحو النساء. وقد يظهر ذلك بسبب أن الأم تحاول أن تعوض غياب الأب أو سلبيته. ومع ذلك، عندما يقترب الابن من سن العاشرة أو الحادية عشر يبدأ في مقاومة أمه المتسلطة التي تضيق عليه الخناق. وقد يكون محبًا لأمه، لكن هيمنتها عليه قد تؤدي إلى محاولته الانسحاب بعيدًا عنها سواء ماديًا أو عاطفيًا، وذلك حتى يهرب

من اهتمامها المفرط الذي يشعره بالاختناق. وفي فترة النضوج قد ينتقل غضب الرجل تجاه والدته إلى النساء الأخريات.

وبجانب العدوانية تجاه الأم، يأتي الخوف من سيطرة أي امرأة أخرى كنتيجة طبيعية. وقد يقسم الرجل عندما يصبح شابًا أنه لن يسمح لامرأة مهما كانت بأن تتحكم في حياته. وقد يتجنب بدون وعي أي علاقة عاطفية حميمة بالرغم من سعيه إلى علاقة جسدية. وعندما يتزوج قد يصبح مسالمًا وصامتًا أو غاضبًا وغامضًا. وبالطبع تؤدي أي من السلوكيات السابقة إلى مشكلات خطيرة في الزواج.

(٣) يخاف الرجال المحرمون من الأب عادة من تكوين علاقات قوية مع رجال آخرين. وتظهر الدراسات أن نسبة عالية من الرجال في هذه الأيام ليس لهم أصدقاء من نفس جنسهم مما يمكن أن يتعاملون معهم بشكل أكثر حميمية. فبعد أن يتحدثون عن المناخ والرياضة والبورصة وأسعار الفائدة والسيارات، لا يجد الكثير من الرجال ما يتحدثون فيه. ولذلك تعد العلاقة السليمة بين الابن وأبيه أساسًا ونموذجًا للتدريب على علاقات حميمة مع رجال آخرين في مرحلة النضوج. ولذلك لا يمتلك الرجال الذين لم يختبروا علاقة حميمة مع آبائهم المهارات الضرورية لتنمية علاقات مماثلة مع رجال آخرين. وقد يشعرون بالخوف أن تؤدي هذه الصداقة الحميمة مع رجال آخرين إلى ممارسة الشذوذ الجنسي. على الجانب الآخر، قد يتسبب غياب رعاية الأب فعلاً في توجه البعض إلى ممارسة الشذوذ الجنسي. ويبدو أن الحاجة إلى علاقة مع أب بديل بجانب الخوف أو العدوانية تجاه المرأة قد يترك البعض عرضة إلى الانخراط في علاقة جنسية مثلية.

إذا كنت رجلاً وقد أزعجت حياتك بعض المشكلات التي ذكرناها سابقًا، فإن ذلك يوضح أن صورتك الداخلية لا تزال تعاني من عدم وجود علاقة حميمة مع والدك. أمّا إذا كنتِ امرأة، فربما تكتشفين بعضًا من هذه المشكلات لدى زوجك أو خطيبك. وفي أيِ من الحالتين، أشجع القارئ العزيز أن يستمر في القراءة حتى يعرف كيف يغيِّر هذه الصورة المعيبة إلى صورة حقيقية تمثل هُويته الحقيقية.

نساء محرومات من رعاية الأب

إن هؤلاء النساء اللاتي يتربين في بيت يفتقد وجود الأب بشكل مادي أو معنوي عادة ما يتعرضن إلى مجموعة من المشكلات المماثلة.

(١) قد لا تثق النساء المحرومات من الأب في الرجال بشكل عام. عندما لا تتمتع البنت بعلاقة حب دافئة مع والدها، قد تصل مرحلة الشباب وهي تعاني من عدم الثقة في الرجال بشكل عام. وحيث إن والدها قد فشل في إشباع احتياجاتها العاطفية وبناء علاقة عميقة معها، فقد تتوقع دون وعي أن يخذلها الرجال الآخرون أيضًا، لذلك تحتفظ بمسافة آمنة بينها وبينهم.

كانت «كلوديا» التي تبلغ من العمر واحد وثلاثين عامًا، مندوبة في إحدى شركات التأمين، وكان كل شيء يسير معها على ما يرام. فبالإضافة إلى مظهرها المدهش، كانت ناجحة في عملها، وتمتلك منزلاً خاصًا بها، وسيارة جميلة، ولديها العديد من الأصدقاء. كما كانت نشيطة في كنيستها، وتشهد لإيمانها من خلال حياتها كقدوة، وكذلك من خلال حديثها مع الناس. ويقول الجميع عنها: "إنها امرأة رائعة. ولا تحتاج إلى شيء سوى زوج".

وكانت «كلوديا» تقول إنها تود أن تتزوج وتنجب أطفالاً. وكانت تجذب عيون العديد من العزّاب المناسبين لسنها من خلال عملها وكنيستها. وكانت تخرج مرارًا وتكرارًا، وكان معظم الذين تخرج معهم يتصلون بها مرة أخرى. لكن كانت بعد خروجتين أو ثلاثة مع نفس الشاب، وعندما يبدأ الشاب في التفكير في العلاقة بشكل جدي، كانت «كلوديا» تنسحب على الفور. وحتى عندما تكون معجبة بالشاب، تجد نفسها تقوم بعمل أشياء تحبط تقدمه. فكانت تتجنب متعمدة أن ترد على مكالمته. وكانت تتأخر متعمدة على ميعادها معه، وكانت تتركه ينتظرها. وكثيرًا ما تكون متقلبة المزاج، وكثيرة الانتقاد له عندما يكون معها. وبالتالي سرعان ما يُحبط الشاب ويتوقف عن الاتصال بها. عندئذ كانت تستريح «كلوديا» في داخلها وتقول لأصدقائها: "لم نوفق". ثم تبدأ العملية نفسها مرة أخرى بعد فترة وجيزة بشاب آخر يشتاق أن يرتبط بها، لكن كانت تنتهي دائمًا

بالنهاية نفسها.

لاحظت «إيڤلين» زوجة راعي الكنيسة أن «كلوديا» تمر بالعملية نفسها عدة مرات. فقامت بدعوتها على الغداء في أحد الأيام، وبدأت تسألها عن أسرتها وخاصة والدها. كشفت «كلوديا» أنها لم يكن لها علاقة حميمة مع والدها، وأنه كان يفضل عليها إخوتها الذكور الأكبر منها بشكل صريح. وبعد عدة شهور، ساعدت مشورة المحبة التي قدمتها «إيڤلين» أن ترى «كلوديا» أنها كانت تعيش تجربتها في البيت مع والدها في كل علاقة حب كانت تجمعها بشخص آخر. فقد كانت تحتفظ «كلوديا» بمسافة بينها وبين والدها حتى تتجنب الألم جراء رفضه لها. وكانت تفعل الشيء نفسه مع الرجال الذين دخلوا حياتها، حتى وإن كانت تشتاق للشعور بالأمان في علاقة الزواج.

تستمر النساء من أمثال «كلوديا» في عدم ثقتهن حتى في حياتهن الزوجية. فقد يعانين من عدم الثقة في قدرة أزواجهن على إشباع احتياجاتهن العميقة أثناء الأوقات الحميمة. وعندما تزداد عزلتهن بصورة أكبر وتزداد عدم ثقتهن، يؤدي هذا إلى مزيد من التوتر، الأمر الذي يؤدي في معظم الأحيان إلى الانفصال أو الطلاق.

في أحيان أخرى، تؤدي عدم الثقة في الرجال إلى العدوانية تجاه الرجال بشكل عام. وتكمن جذور المشكلة غالبًا في الشعور بالمرارة نحو أب بعيد عن ابنته، وغالبًا ما تنتقل هذه المرارة إلى رجال آخرين في حياتها.

(٢) قد يلتمس النساء المحرومات من الأب حبًا واهتمامًا خاطئين من الرجال الآخرين. إذا لم تُشبع حاجة البنت إلى الحب والاهتمام من والدها عندما تكون صغيرة، قد تعوض ذلك بمحاولة التمتع بالحب والاهتمام من خلال رجال آخرين، وعادة ما يحدث ذلك بطرق غير لائقة. اعترفت بعض النساء العاهرات أنهن لم يتم إغواؤهن بالعملية الجنسية نفسها، وإنما بالأحرى سلموا أجسادهن من أجل التمتع بالحب الذي يلتمسونه. إن الفتيات اللاتي اختبرن علاقات إيجابية ودافئة مع والديهم في البيت غالبًا ما يكن مستعدات بشكل أفضل ليرفضن الإغراءات

الجنسية.

كم من النور أتى من خلال والدك أو والدتك ليسطع على هُويتك الحقيقية؟ إذا كنت مثل الكثير من الناس، سيختلف إدراكك لهُويتك عن نظرة الله لك بسبب أن والدك أو والدتك لم تمدك بمقدار كافٍ من النور. وأقول ذلك ليس لكي أحط من قدر والديك، ولكن حتى أساعدك لكي تفهم أن أي شعور قد افتقدته عن هُويتك بسبب والدك أو والدتك يمكن استرداده. وبغض النظر عن كم كانت حياتك في البيت سيئة، لديك الفرصة الآن لكي ترى نفسك كما يراك الله. لأنك لا تحتاج إلى شيء أكثر من إدراك نظرة الله لك.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم من هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله. ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله هو أبوك. نقرأ في مزمور ١٠٣: ١٣ «كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ».

- ماذا يعني لك أن الله هو أب حقيقي لأولاده؟

- ماذا يعني لك أن الله- الآب- هو أبوك؟

(٢) الله رؤوف. نقرأ في الآية السابقة: «كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ».

- ماذا يعني لك أن الله رؤوف؟

- ماذا يعني لك أن الله الرؤوف يدعوك ابنه ويضمك بين ذراعيه؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنت لك قيمة". نقرأ في إنجيل لوقا: «تَأَمَّلُوا الْغِرْبَانَ: أَنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ، وَلَيْسَ لَهَا مَخْدَعٌ وَلاَ مَخْزَنٌ، وَاللهُ يُقِيتُهَا. كَمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلُ مِنَ الطُّيُورِ!» (لو ١٢: ٢٤).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "إن الله يهتم بالطيور ويعطيها قيمة حتى أنه يرعاها، ويعتني باحتياجاتها، ولأني أفضل من الطيور عند الله، يمكنني أن أثق في عنايته بي، وقدرته على تسديد احتياجاتي أيضًا".

- ماذا يعني لك أن الله يعطيك قيمة ويعتز بك؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك حين يؤكد لك أنه يريد أن يرعاك؟

(٢) يقول الله: "أنت ابني". نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى غلاطية: «إِذًا لَسْتَ بَعْدُ عَبْدًا بَلِ ابْنًا، وَإِنْ كُنْتَ ابْنًا فَوَارِثٌ لِلهِ بِالْمَسِيحِ» (غلا ٤: ٧).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "أنا ابن لله، حتى وأن تركني والدي الأرضي، فأنا أنتمي لله".

- ماذا يعني لك أن الله جعلك ابنه وخاصته؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك حينما أراد أن يضمك لعائلته واختارك لتكون ابنًا له؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك في نظرتك لنفسك.

الفصل السابع

التأثيرات الخارجية

عاش جميعنا في عالم كان في بعض الأوقات غير مبالٍ وقاسٍ من نحونا، لكن الله يحبنا محبة كاملة وغير مشروطة. أمّا الناس فأحيانًا يجعلوننا نشعر بأننا غير محبوبين. والحقيقة أننا نتمتع بقيمة كبيرة عند الله لدرجة أنه أرسل ابنه ليموت عوضًا عنا. إن كلمات الآخرين وأفعالهم كثيرًا ما تجعلنا نرى أنفسنا بلا قيمة، ونتيجة لذلك ترتبك صورتنا الداخلية.

عندما كبرت، لم يتشكل إدراكي لهُويتي من خلال والدي فحسب، بل من خلال العديد من المؤثرات المهمة الأخرى مثل: المدرسة والمجتمع والخبرات الروحية. تؤثر هذه العناصر الثلاثة على تشكيل صورتك الذاتية الداخلية، وفي بعض الحالات، مثلما اكتشفت أنا، يكون التأثير سلبيًا أكثر منه إيجابيًا.

تأثير المدرسة

منذ ولادتي وأنا أستخدم يدي اليسرى، ولكن عندما كنت في الصف الثاني الابتدائي، حاولت مدرستي أن تجعلني استخدم يدي اليمنى. فكانت تجلسني على منضدة موضوع عليها مكعبات، وتوجه إليَّ التعليمات: "كوّن بيتًا من هذه المكعبات!" ثم تقف فوق رأسي بمجرد أن أبدأ المهمة. فإذا مددت يدي اليسرى، كانت تضربني بالمسطرة عليها، وتقول: "لا تفعل ذلك. استخدم يدك اليمنى!" وهكذا كنت مرعوبًا ومضطربًا. لم أفعل إلا ما هو طبيعي، لكني كنت أُعاقَب بشدة على ذلك. هل يمكنك أن تتخيل كيف شكّل ذلك صورتي عن نفسي؟ لقد

بدأت أشعر بالنقص وبالرفض. فقد أدت هذه التجربة المؤلمة إلى مشكلة في النطق. فعندما أكون مرعوبًا أو قلقًا أو متعبًا، ويحدث ذلك غالبًا في المدرسة، ابدأ في التلعثم، مما يسبب لي إحراجًا شديدًا. وفي الصف الخامس الابتدائي، طلب المدرس مني أن أحفظ "خطاب جيتيسبيرج" وأتلوه عن ظهر قلب. كنت متوترًا جدًا عندما وقفت أمام المدرس، وبدأت أتلعثم. لكن المدرس أمرني أمام الفصل كله قائلاً: "قوله! قوله! توقف عن التلعثم وقوله". فخرجت باكيًا من الفصل؛ لأني شعرت بالإهانة أمام أصدقائي.

كانت المشكلة الثانية تتمثل في أن والديَّ لم يتعلَّما القواعد النحوية مطلقًا؛ لأنهما لم يكملا تعليمهما وتوقفا عند الصف الثاني من التعليم الابتدائي. ونتيجة لذلك لم أتعلّم النحو جيدًا في البيت. وعندما كان مدرسو اللغة الإنجليزية يؤكدون على ضرورة الاستخدام الصحيح للنحو، لم أبرع في ذلك أبدًا. بشكل أو بآخر كنت أنجح في اختبار النحو. لكن عندما دخلت الجامعة كنت أعاني من النحو الضعيف الذي تعلمته في البيت، وأصبحت مرة أخرى هدفًا للسخرية. لذلك كنت أخجل من الحديث في المحاضرة. وذات مرة في السنة الأولى في الجامعة سألتني الدكتورة "أين بوب؟" فأجابتها بلغة ركيكة فيما معناه "إنه مريض". فصححت لي الجملة أمام الجميع. ونظرت إليها متحيرًا، ومتساءلاً: "ما الخطأ الذي اقترفته؟ لم أدرك وجود خطأ في تركيبة الجملة!" وبالتالي، مثل هذه الخبرات عززت إدراكي بأنني إنسان أقل ممن هم حولي.

كان «بايرن» يعاني من التجربة نفسها في المدرسة، لكن أحد مدرسيه ساعده لمواجهة هذه المشكلة في حياته. مع أن «بايرن» نشأ في أسرة غير سعيدة. فقد هجرت الأم البيت عندما كان صغيرًا. وكان والده في الجيش بعيدًا عن البيت. وهكذا قضى بايرن معظم طفولته مع أجداده، مما جعله يشعر بأنه غير محبوب وغير مرغوب فيه لأن والديه قد تركاه.

قضى «بايرن» السنوات الأولى في المدرسة في بؤس شديد. فلم يكن يتصرف بشكل سيئ إلا لكي يلفت الانتباه. وكانت السمة المميزة له أنه طفل مثير للمتاعب، وكان يعيش وفقًا لهذه السمة. وفي أحد الأعوام عندما انتقل إلى السنة

الدراسية التالية، قامت إحدى المعلمات الحكيمات بتحيته عند باب حجرة الدراسة. ونظرت في عينيه مباشرة، وقالت له: "قد سمعت كل شيء عنك، لكنني لا أصدِّق أي كلمة مما سمعت". يقول «بايرن» إن هذا اليوم يمثل نقطة تحوُّل في حياته. وذلك لأن شخصًا رأى شيئًا له قيمة وواعدًا في حياته، شخصًا قد آمن بإمكانياته. فإذا كان لك معلمون أو مدربون أو أقارب أو أشخاص ناضجون ومهمون في حياتك مثل معلمة «بايرن»، فقد باركك الله بهم، ولاشك أن نظرتك لنفسك قد استفادت بوجودهم في حياتك.

يعمل التأثير السلبي للمدرسين وزملاء الدراسة ضد التأثير الإيجابي الذي قد يتمتع به الطفل في البيت. فإذا أخذنا في الاعتبار الفتاة ذات الشعر الأحمر التي كان يُقال لها في البيت: "كم أنت جذابة!"، لكن في اليوم الأول لها في المدرسة سخر زميلها منها مشيرًا إلى أن رأسها مثل الجزرة بينما سخر آخر من النمش الذي في وجهها، فإن الفتاة تُصطدم من الطريقة التي حوّل بها أصدقاؤها ما كانت تعتقد أنه سمات جذابة إلى موضع للسخرية. أو تأمل الفتى الذي تأكد من والديه المحبين أنه يتمتع بالكفاءة، وإذ به يتعرض في المدرسة للسخرية بسبب أنه ثقيل الحركة وبطيء؛ لأن تكوينه الجسماني لم يكن ناضجًا بقدر أقرانه.

غالبًا ما يتسم الأطفال بالقسوة على بعضهم البعض، ولهم طريقتهم الخاصة في تضخيم الخطأ الصغير وتحويله إلى قضية كبيرة. ويمكن للأسماء وللتعبيرات الساخرة التي يطلقونها أن تشوه الصورة الداخلية التي عمل الوالدان على الاهتمام بها. وبلا شك، لابد وأنك تعرضت في طفولتك إلى النكات والتعليقات اللاذعة من الذين يسمون أصدقاؤك! وبالتأكيد أضافت كل إهانة أو تعليق قاسٍ خدشًا بشعًا في صورتك الداخلية، مما جعلك تتشكك في قيمتك كشخص له كيانٌ مستقل. وبالتالي أنت بحاجة إلى تغيير مفهومك عن نفسك حتى ترى نفسك كما يراك الله.

إنني بمثابة دليل حي على أن الله يستطيع أن يغيِّر الصورة الداخلية التي تشوهت بسبب إساءة المدرسين والأصدقاء وإهمالهم. فبعد أن آمنت بالمسيح،

انتقلت إلى كلية «ويتون»، وهي كلية مسيحية. وكلما كنت أنمو في الإيمان، زاد صراعي مع التحدي في أن أسلم حياتي بالكامل للرب يسوع. وكنت أقاوم هذا التحدي؛ لأني كنت أفكر أن الله ربما يريدني أن التحق بخدمة مسيحية، وهو ما كان يعني لي شيئًا وحيدًا وهو "الوعظ". في ذلك الوقت كانت مشكلتا النحو الضعيف والتلعثم لا تزالان واضحتان جدًا. ونتيجة لذلك، كان يبدو لي أن تسليم كل شيء في يد الله يعني تسليمه القليل جدًا ليستخدمه. وأخيرًا قلت: "يا الله، لا أعتقد أنني أمتلك أي مواهب في الوعظ أو أي مواهب أخرى يمكنك أن تستخدمها في الخدمة. فأنا أعاني من التلعثم عندما أكون خائفًا، وأتحدث بلغة إنجليزية ضعيفة جدًا. لدي كل هذه العيوب، لذلك فأنت بكل تأكيد لا تحتاجني في الخدمة. لكن إذا كنت تستطيع أن تخلق شيئًا مفيدًا من خلال هذه العيوب، فإنني سأخدمك بقية حياتي".

وبين يدي الله الذي لا يحده شيء، أصبحت ضعفاتي نقاط قوة. وكان لي الامتياز أن أعظ عن الرب يسوع أمام الملايين من البشر في أكثر من نصف دول العالم. فعندما بدأت أرى نفسي كما يراني الله بدلاً من التعلق بالصورة التي مررها لي الوالدان والمدرسون والأصدقاء، أصبحت قادرًا على أن أتخطى قصوري وعيوبي.

بعد كل هذه السنوات، لا زالت أصارع قليلاً مع تصحيح القواعد اللغوية عندما أكتب أو أعظ. وفي كل مرة أعظ أو أبدأ في كتابة كتاب جديد، أكون واعيًا بكل من نقاط ضعفي ونعمة الله. ولم أعد أرهب المعوقات التي خيمت بشكل كبير في بداية حياتي مع المسيح. فقد تغيَّر شعوري بهُويتي ونظرتي لنفسي. ولم أعد شخصًا مرفوضًا يعاني من التلعثم الميئوس منه، بل ابنًا محبوبًا لله، لأنني افتديت بدم المسيح، وقد أعدني روحه القدوس للخدمة. واليوم أستطيع أن أقول بكل أمانة: "أشكرك يا الله على والديّ اللذين باركتني بهما. كذلك أشكرك من أجل مرحلة الطفولة التي مررت بها". وحتى الصعوبات التي واجهتها في أثناء مراحل نموي المختلفة قد ساعدتني في تشكيل ما أنا عليه الآن. وأستطيع أن أعلن مع كلمات الرسول بولس المشجعة في رسالة بولس الرسول إلى فيلبي «وَاثِقًا بِهذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (في ١: ٦).

تأثير المجتمع والثقافة السائدة

تصور المشهد الآتي: تصل «دارلين» إلى البيت في الساعة السادسة إلا ربع راجعة من العمل. تدخل بيتها وتنادي: "مرحبًا يا أولاد، ها أنا قد وصلت إلى البيت". وتسمع إجابة بتمتمة من غرفة «كاسي» الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، وهو منهمك في اللعب على الكمبيوتر. كذلك تدرك «دارلين» أن «إيدي» ابنتها التي تبلغ من العمر أحد عشر عامًا موجودة بالبيت من خلال صوت ألعاب الڤيديو المفضلة لديها. ثم تقوم «دارلين» بتغيير ملابسها إلى بنطلون چينز وتي شيرت، وتقوم بتشغيل اللاب توب الخاص بها حتى تنتهي من بعض الأعمال في غرفة المعيشة بينما تستمع للموسيقى.

"لقد تغير شعوري بهُويتي ونظرتي لنفسي ولم أعد شخصاً مرفوضاً، بل ابناً محبوباً لله، لانني افتديت بدم المسيح."

أمّا «چويل» زوج «دارلين» فيصل من العمل بعدها بنصف ساعة. وكان عليه أن يُحضّر وجبة العشاء معه، فاختار أن يشتري وجبات جاهزة من مطعم صيني. وقام بوضع علب الطعام التي كان يتصاعد منها البخار على منضدة المطبخ، وسحب أربعة أطباق وأربع شوكات. وعندما عاد بعد تغيير ملابسه، كانت ثلاث وجبات قد انتهت، والعلب نصفها فارغ، فأخذ «چويل» وجبته وانضم إلى «دارلين» في غرفة المعيشة. ثم أوقف الموسيقى، وقلّب في قنوات التليفزيون بحثًا عن قناة للأخبار، ثم رفع الصوت ليغطي على صوت ألعاب الكمبيوتر والڤيديو المرتفع والقادم من غرفتي الطفلين، حيث انتهيا من تناول طعامها وتركا الأطباق فارغة. أمّا «دارلين» فتنقر على الكمبيوتر أثناء تناولها بعض الطعام، وتلقي بعض النظرات على نشرة الأخبار، وتتجاذب أطراف الحديث مع «چويل» زوجها.

خرج «كاسي» من غرفته، وكان طويلاً بما يكفي ليضع الأطباق في المغسلة، كما ألقى بقايا الطعام، وكانت هذه هي مهمته لهذا الأسبوع. ثم عاد إلى غرفته لينتهي من واجباته قبل أن يعود إلى ألعاب الكمبيوتر. أمّا «إيدي» فذهبت إلى الكمبيوتر الخاص بها بحثًا عن بعض المعلومات عن المغنية «بيتسي روز» من

الإنترنت. ولكنها سرعان ما حوّلت اهتمامها إلى غرف الدردشة حيث يتكلم معها كل ليلة أصدقاؤها الذين لم تقابلهم في الحقيقة بصورة شخصية.

وبمجرد أن تنتهي «دارلين» من شغلها على الكمبيوتر، يدخل «چويل» على الإنترنت ليطلع على بريده الإلكتروني وأخبار أسهمه في البورصة. تمر «دارلين» على غرفتي الطفلين في زيارة سريعة، ثم تستقر بعد ذلك لتشاهد البرامج التليفزيونية المفضلة لها. ويسلي «چويل» نفسه بأن يلعب مبارة جولف على الكمبيوتر. وفيما بين الساعة العاشرة والحادية عشر مساءً تُغلق جميع أجهزة الكمبيوتر والڤيديو في البيت وتستعد الأسرة للنوم. وما حدث اليوم يحدث غدًا؛ بخلاف أن «دارلين» سوف يأتي دورها في إحضار وجبات العشاء للأسرة وهي في طريقها إلى البيت.

قد يبدو هذا السيناريو مختلفًا عن البيت الذي تربيت فيه، لكنه يتكرر في العديد من البيوت في بلدنا اليوم. منذ جيل أو جيلين، كانت الثقافة تمثل دائرة تأثير خارج نطاق الأسرة وربما الكنيسة أيضًا. فالكثير من الأطفال كبروا محصنين بطريقة ما من الفجور والمواقع الإباحية والعنف واللا دينية؛ لأنهم كانوا مضطرين للذهاب إلى مكان ما خارج البيت ليتعرضوا إلى هذه الأمور. لكن اليوم انتقل العالم إلى غرف معيشتنا وغرف نومنا في صورة القنوات الفضائية العادية والمشفرة والإنترنت. كذلك يمكنك أنت وأولادك أن ترى وتسمع كل شيء يحدث حولك بما في ذلك الإباحية والسحر، هذين العالمين المظلمين، وهما متاحان إمّا بتقليب القنوات أو ببعض النقرات بفأرة الكمبيوتر.

وحتى في بيوت المؤمنين التي يخضع فيها التليفزيون والإنترنت إلى رقابة الوالدين يتأثر الأطفال تأثيرًا قويًا بالثقافة السائدة حولهم. وحتى المسرحيات والمسلسلات والأفلام والبرامج التعليمية والمواقع الإليكترونية التي تُصنف كمواد إعلامية مناسبة للصغار تقدِّم نظرة مناهضة للدين في بيوتنا. وتربطنا غرف الدردشة والبريد الإلكتروني وتربط أولادنا بأشخاص لهم قيم ربما تكون متناقضة عن قيمنا. فالأفكار التي كنا في وقت سابق يمكن أن نجعلها بعيدة عنّا أصبحت الآن تتعايش مع الأسرة الأمريكية المتوسطة. وربما تكون أنت قد عاصرت هذا التحول المريب في المجتمع.

مهما كانت الدرجة التي تعرضت لها أثناء مراحل حياتك المختلفة، فلابد أن الثقافة غير المسيحية قد أثرت على مفهومك لهُويتك ونظرتك لنفسك بالإضافة إلى والديك والكبار المؤثرين في حياتك، فالثقافة أيضًا لابد وأن ساهمت في توصيل رسائل ما عن هُويتك. لكن الطريقة التي يراك بها المجتمع بثقافته تختلف عن الطريقة التي يراك بها الله كاختلاف الليل عن النهار. لأن الثقافة غير المسيحية ليس بمقدورها سوى توصيل قيم غير مسيحية. في ثقافتنا، يحظى الناس بالحب والتقدير وفقًا لشروط بدلاً من المحبة والتقدير غير المشروطين. كذلك يتودد العالم إلى الأشخاص الذين يتمتعون بالجمال والتعليم العالي واللياقة البدنية والناجحين والذين يتمتعون بطلاقة اللسان. بينما يتجاهل أو يقلل من شأن هؤلاء الذين لا يتمتعون بجسد رياضي أو وظيفة مرموقة أو حساب ضخم بالبنك.

على سبيل المثال، دعنا نقول إن «سيلست» البالغة من العمر ثماني وعشرين سنة كبرت تحت بعض القيود القليلة فيما يتعلق بمشاهدة التليفزيون. وكانت تشاهد على مدار الساعة البرامج الكرتونية وهي طفلة، وكانت تشاهد المسرحيات ومسلسلات «السيتكوم» وهي مراهقة، والمسلسلات التليفزيونية الطويلة، وأفلام الكبار وهي شابة. وبالإضافة إلى ما كانت تشاهده «سيلست» من برامج، كانت تتعرض إلى ساعات لا حصر لها من الإعلانات التجارية. وقد بدأت في حضور الكنيسة وأعلنت إيمانها بالمسيح، لكن لم يكن لديها الوقت الذي تستثمره في التأمل والعبادة بسبب استحواذ التليفزيون عليها.

ماذا كانت وسائل الإعلام توصل لها عن هُويتها؟ مع السنوات الأولى من مراهقة «سيلست»، سرعان ما أدركت أنها لن تجد صديقًا جادًا في علاقته بها أبدًا، ناهيك عن زوج محب ومخلص. ولأنها كانت تعاني من الوزن الزائد دائمًا، أدركت أنها لن تستطيع أن تدخل في منافسة مع عارضات الأزياء الذين دائمًا ما يحصلون على نصيب الأسد في الأفلام والمسلسلات والإعلانات. فالبنات زائدة الوزن يمثلن موضعًا للضحك والسخرية، ولا علاقة لهن بالرومانسية. لذلك لم يكن من المدهش أن ترى «سيلست» نفسها مثلما تراها وسائل الإعلام؛ غير جذابة وغير محبوبة. لهذا السبب، كانت لا تستطيع أن تصدّق أن الله يمكن

أن يحبها، وقد أدى ذلك إلى ضعف إيمانها المسيحي ونموها الروحي. وقادها احتياجها الشديد إلى الحب إلى الانخراط في علاقة جنسية مع رجل لا يناسبها، ولم تكن لتفكر في الزواج منه أبدًا.

ومثل أشعة الشمس فوق البنفسجية التي يتعرض لها الجلد، تترك الثقافة السائدة انطباعاتها على نظرتك لنفسك وهُويتك. وربما تكون قد "احترقت" من التعرض الزائد لهذه الأشعة مثلما حدث مع «سيلست». ربما تكون قد تربيت في بيت بعيد عن الإيمان المسيحي حيث لا رقابة على الأفكار اللا دينية والممارسات المنحرفة مما ترك لديك نظرة مشوهة عن قيمتك في نظر الله. أو لنقل أنك تربيت في بيئة مسيحية وتأثرت قليلاً بالثقافة السائدة مما ترك انعكاسات طفيفة على صورتك الداخلية. وبالتالي إذا كانت نظرتك لنفسك تعكس رؤية العالم لك، فأنت بحاجة شديدة إلى التغيير.

تأثير الخبرات الروحية

ربما يبدو من التناقض أن نقول إن خبراتك الروحية الماضية قد ساهمت في فهم غير دقيق لهُويتك. في نهاية المطاف، أين المكان الأفضل لاكتشاف رؤية الله لنا سوى مكان تُعلَّم فيه كلمة الله ويجتمع فيه أولاد الله؟ لكن مع الأسف ليس كل القادة والمعلمين الدينيين يقدمون رؤية الله لنا وقيمتنا في عينيه. بدأ «توم» يواظب على أنشطة اجتماعات الشباب مع أصدقائه في الكنيسة عندما كان في المرحلة الإعدادية. وكانت هذه الكنيسة تتبنى نظرة متحررة نحو الكتاب المقدس وألوهية المسيح، ونتيجة لذلك تأثر انطباع توم الأول عن المسيحية بهذه النظرة. تعلَّم «توم» أنه نتاج عملية التطور، وأن الله بمثابة «قوة» مجردة أكثر من كونه شخصًا، وأن الله لا يحبه ولا يقدِّره إلا بقدر ما يحب هو نفسه ويقدرها. وكان يعتبر «توم» كل ما عرفه مستمدًا من الإنجيل. ولم يدرك «توم» أن خبراته الروحية الأولى لم يكن لها علاقة بالمسيحية على الإطلاق إلا عندما تقابل مع مجموعة من المؤمنين الغيورين. لم يسبق له أن رأى نفسه بوضوح كما يراه الله. وكان تقدير «توم» لهُويته ونظرته إلى نفسه يحتاجان إلى تغيير جذري.

تلقت «چانيت» تعليمها في مدرسة مسيحية كان الكتاب المقدس هو مركز التعليم فيها، وكانت فخورة بذلك جدًا، وقد حفظت الوصايا العشر عن ظهر قلب في السنة الأولى. وقد غرس المعلِّم في ذهن الأطفال أنهم يجب أن يطيعوا وصايا الله وإلا سيعاقبهم الله. وكانت المناهج الدراسية تعتمد على الحرفية في تطبيق الوصايا، والبر المبني على الأداء. كبرت «چانيت» برؤية مشوهة عن الله وعن نفسها. وكانت ترى أنها مادامت التزمت بالواجبات المسيحية وأدتها بحذافيرها، فإن الله سيحبها وسيعتني بها. لكن إن تباطأ أداؤها سيتعقبها الله بعقاب السماء. فالله يحبها عندما تطيعه، وتتمتع بالقيمة عنده عندما يكون أداؤها على ما يرام. وقد قيل لها أن هذه الرسالة واضحة في الكتاب المقدس! مَنْ يستطيع إذًا أن يشكك في صحتها؟ في النهاية لم تستطع «چانيت» الالتزام بالوصايا طول الوقت. وبالتالي عندما وصلت سن المراهقة تمردت على كنيستها وأسرتها المسيحية وعلى الله نفسه، لأنها افترضت أن الله لن يهتم بعبد خاطئ مثلها.

يكشف الكتاب المقدس بوضوح كيف يرانا الله، وكيف يحبنا بصفتنا مخلوقين على صورته. ولنا قيمة عنده لدرجة أنه قدَّم ابنه ذبيحة ليفدينا. ومع ذلك، فمن المحزن أن بعض الكنائس والقادة المؤمنين يسيئون تقديم نظرة الله لنا من خلال المغالاة أو التهُوين من جوانب معينة في شخصيته. وفي حالة «چانيت» فإن التركيز الشديد على طاعة الإيمان والبر طمس من رحمة الله وغفرانه ومحبته غير المشروطة، مما جعل «چانيت» ترى نفسها خاطئة بين يدي الله الغاضب، فإذ بها تحاول يائسة لكنها تفشل باستمرار في أن تصل لما يريدها الله أن تكون عليه.

لا أقصد هنا أن تشك في تعليم كنيستك أو راعيها أو قائد مجموعة درس الكتاب المقدس. فمعظم الكنائس والقادة الإنجليين يسعون مصليين أن يعلموا الشعب «لأَنِّي لَمْ أُؤَخِّرْ أَنْ أُخْبِرَكُمْ بِكُلِّ مَشُورَةِ اللهِ» (أع ٢٠: ٢٧). لكن لا توجد كنيسة أو قائد بدون ضعف. ربما تشوه إدراكك لهُويتك الحقيقية بشكل ما نتيجة لبعض التعاليم التي قدمها بعض مَمَنْ كانوا يخدمونك بصفتهم المعلمين أو المرشدين الروحيين. وربما خلفت تجربتك الروحية صورة تحتاج إلى التغيير.

خلال تاريخ حياتك، كان الأشخاص والظروف تبعث لك رسائل عن هُويتك. وقد تكون نظرتك الآن لنفسك على بُعد أميال عديدة من رؤية الله لك أو على بعد خطوات قليلة فقط، ويعتمد ذلك على مصدر هذه الرسائل وصحتها من وجهة نظر الكتاب المقدس. وحتى تستطيع أن تغيِّر صورتك الداخلية إلى الصورة التي يراك الله بها، يجب أن تنظر من خلال عيني الله.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله. ورجاءً، اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله هو إله الحق. نقرأ في مزمور ٣١: ٥ «فَدَيْتَنِي يَا رَبُّ إِلَهَ الْحَقِّ».

- ماذا يعني لك أن الله هو إله الحق؟

- ماذا يعني لك أن الله هو الإله الحق- الذي لا يمكن أن يكذب عليك- وأنه يقول إنك محبوب وذو قيمة وكُفْء؟

(٢) الله حكيم. نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية «اللهِ الْحَكِيمِ وَحْدَهُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ» (رو ١٦: ٢٧).

- ماذا يعني لك أن الله حكيم؟

- ماذا يعني لك أن الله الحكيم وحده يحبك كما أنت، ويراك ذو قيمة كما أنت، ويجعلك كفء لأنك ابنه؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنا لا أدينك". نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية «إِذاً لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (رو ١: ٨).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "أنا ليسوع المسيح، ونتيجة لذلك ليس عليَّ أي دينونة".

- ماذا يعني لك أن الله جعلك خاصته، ولأنك من خاصته فقد حررك من الدينونة تمامًا؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يعدك بأنه لن يدينك؟

(٢) يقول الله: "أنت حَبَّيبى". نقرأ في إنجيل يوحنا «لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي» (يو ١٥: ١٥).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "أنا حبيب الله، وهو يخبرني بكل شيء يسمعه من أبيه".

- ماذا يعني لك أنك حبيب الله- ليس خليقته فحسب، بل حبيبه أيضًا؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك عندما يريد أن يقترب إليك في محبة؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك في نظرتك لنفسك.

الجزء الثالث
الأسس التي تُبنى عليها هُويتك الحقيقية

الفصل الثامن

أساس الهُوية الحقيقية

كانت «سوسن»- التي تفرغت بالكامل للخدمة في هيئة مسيحية- ترى أنه يستحيل تقريبًا أن تستمر في خدمتها . فقد كانت تشعر بالعجز بسبب شعورها العميق بعدم جدارتها كلما كانت تفكِّر في تولي أدوار القيادة التي يتطلبها موقعها. وهكذا شعرت بأنها في غير مكانها في هذه الهيئة المسيحية، وأنها غير منسجمة مع زملائها في العمل الذين يتمتعون بأخلاقيات رفيعة. وكانت مقتنعة أنهم سوف يجبرونها على تولي منصب أقل أو حتى تعزل من وظيفتها من الهيئة إن اكتشف أحد ماضيها.

وبعد عدة جلسات مع مرشد روحي، استطاعت «سوسن» أخيرًا أن تتحدث عن سلوكياتها البغيضة التي تورطت فيها قبل أن تصبح مؤمنة. ثم أفشت أسرارها كافة بداية من جروحها ومخاوفها وآلامها الرهيبة التي كانت تحتفظ بها داخلها بعد عدة علاقات محرمة وعملية إجهاض وعلاقة جنسية شاذة. وتغيَّر سلوك «سوسن» تغييراً مثيراً بعد أن آمنت، غير أن صورتها الداخلية لم تتغير أبدًا. ومع أن الله افتداها وغفر لها، فإنها لا تزال ترى نفسها فاسدة أخلاقيًا، وبالتالي أعاق عدم إدراكها لهُويتها نموها الروحي وخدمتها اعاقة بالغة.

تنطبق حالة «سوسن»، على الكثيرين ممن أقابلهم، وقد سلموا حياتهم للمسيح، لكن يبدو أنهم لا يستطيعون أن يحققوا أي تقدُّم في إيمانهم وحياتهم الروحية. ولأنهم يشعرون بالهزيمة وضعف العزيمة، فهم على ما يبدو قد جربوا

كل شيء. وحاولوا أن يصلوا بعمق، ولفترة أطول، ويشتركون في المزيد من الأنشطة الكنسية، ويتعهدون بالتزامات أكبر، ويحاولون فعل الأفضل دائمًا، لكنهم يستمرون في الدوران حول أنفسهم، ولا يعرفون لماذا.

أعتقد أن الكثيرين مثل «سوسن» يعيشون في إحباط؛ لأنهم يتعاملون مع مشكلاتهم بصورة سطحية بدلاً من التعامل مع جذور هذه المشكلات. إن الأمر يشبه إعادة بناء بيت قديم قد تصدّعت أساساته. بوسعك أن تجعل البيت صالحًا للحياة بإعادة طلائه من جديد، وبوضع ورق الحائط، وفرش سجاد جديد، وشراء أثاث أنيق، لكن ستبقى الأرضيات والأسقف مشققة، ونتيجة لذلك ستسقط الحوائط إذا ما أغفلت فكرة إعادة تأسيس البيت.

بالطريقة نفسها، فإن دراسة الكتاب المقدس والصلاة أمران ضروريان للنضج المسيحي، كما أن الاشتراك في الخدمة المسيحية ومشاركة إيمانك على القدر نفسه من الأهمية. لكن إذا فشلت في رؤية نفسك كما يراك الله، فإن أساسك المهزوز سيجعل الكثير من محاولاتك للنمو غير مؤثرة. فهُويتك لا تتحدد بناءً على ما تفعله، لذلك لا يمكنك أن تكمل طريقك نحو مزيد من الفهم لهُويتك الحقيقية؛ لأن ما تفعله ينبثق بالأساس من هُويتك. إذا كنت تريد أن تكون خدمتك كتلميذ للمسيح هادفة ونافعة، عليك أن تكتسب فهمًا أكبر وصورة أوضح لهُويتك الحقيقية.

ثلاثة أركان لأساس الهُوية الحقيقية

ما الذي يشكل أساس هُويتك الحقيقية؟ تحدثنا في الفصل الثالث عن ثلاثة أركان أساسية هم: أنت محبوب وذو قيمة وكُفْء. وفي الفصول الباقية، أريد أن أساعدك حتى تتأكد لديك هذه الأركان الأساسية بحيث تغيِّرك تغييرًا حقيقيًا. لن تختبر ذلك إلا عندما ترى نفسك كما يراك الله، ومن ثم ستكون قادرًا على الشعور بالشبع، وبالسلام الذي خلقك الله لتتمتع به.

الركن الأول: أنت محبوب. ربما تكون كبرت وأنت تشعر بالتجاهل وأنك غير مرغوب فيه، أو حتى محتقر ومكروه. لكن الأشخاص الذين حملوا لك هذه

الصورة كانوا مخطئين. فالله خلقك على صورته، ويحبك بصفتك ابنه. إن الله لا يرتكب أخطاءً. إذا كان الله يحبك- وهو يحبك بالفعل- فأنت محبوب محبة أبدية. لذلك فمن الضروري أن ترى نفسك محبوبًا؛ لأن الله يراك بهذه الصورة.

الركن الثاني: أنت ذو قيمة. أي شخص يقول لك إنك غير مفيد أو غير مهم فهو مضلل. لقد أسلم الله ابنه الحبيب للموت ليصالحك لنفسه. إذا كان الله قدَّم هذه الفدية الثمينة، فأنت بالفعل تتمتع بقيمة غير محدودة. لذلك فمن الضروري أن ترى نفسك ذا قيمة؛ لأن الله يراك بهذه الصورة.

"إن تغير شعورك بهُويتك أمر يتطلب القبول والعمل على إظهار حقيقتك الفعلية."

الركن الثالث: أنت كُفْء. ربما كنت دائمًا آخر شخص يُنجز مهامه أو يتم اختياره في فريق كرة القدم. ونتيجة لذلك أصبحت ترى نفسك غير كُفْء، أو لا يمكن الاعتماد عليك أو الثقة فيك. ربما لست الأكثر موهبة، لكن الله أعطاك موهبة، وكلفك بمهمة عظمى هي أن تكون نورًا للعالم. فإذا كان الله مستعدًا أن يستأمنك على مهمة ذات أبعاد أبدية، فأنت بكل تأكيد كُفْء لها تمامًا. لذلك فمن الضروري أن ترى نفسك كفء؛ لأن الله يراك بهذه الصورة.

وكلما رأيت نفسك بصورة أكثر وضوحًا على أنك محبوب وذو قيمة وكُفْء، ستكون مستعدًا بشكل أفضل وقادرًا على مواجهة الحياة وصعوباتها كافة. كما أنني لا أشير عليك بأن تتخيل أن هذه السمات الثلاثة موجودة فيك حتى تصبح حقيقة، لأنك أنت بالفعل محبوب وذو قيمة وكُفْء، ولأن هذه هي الصورة التي خلقك الله عليها.

إن تغيير شعورك بُهويتك أمر يتطلب القبول والعمل على إظهار حقيقتك الفعلية. عندما تترسخ هذه الأركان في وعيك، ستكون مجهزًا بصورة أفضل لتواجه المشكلات والصدمات والمآسي التي تعد جزءًا طبيعيًا من هذه الحياة الإنسانية.

أنت محبوب: شعور بالانتماء

تُركت «ليندا» أمام باب أحد الغرباء وهي طفلة صغيرة، وتربت على أيدي

أبوين بالتبني. وعندما وصلت إلى سن المراهقة، كانت تعتبر نفسها لا تستحق الحب. فإلقاء أمها التي أنجبتها لها وهي طفلة في الشارع، جعل ليندا تشعر بأنها غير مرغوب فيها وغير محبوبة. وبالتالي فإن غياب الانتماء أضعف من إحساسها بهُويتها.

نحن جميعًا نحتاج إلى الشعور بالانتماء لشخص معين. ونشعر بالانتماء عندما يشبع الآخرون عن طيب خاطر احتياجنا للحب والقبول والاحترام والإعجاب. كما نشعر بالانتماء عندما نعرف أن شخصًا ما يحبنا محبة غير مشروطة، ولا يحبنا إلا لأنفسنا. ويتفق العديد من الأخصائيين النفسيين على أن العامل الوحيد الأكثر أهمية في تكوين شخصية سوية يتمثل في معرفة أن الآخرين يحبوننا.

يمتلئ العالم بالكثيرين مثل «ليندا» الذين يعانون معاناة كبيرة بسبب غياب الحب غير المشروط، فقد اختبر الجميع الشعور بعدم الانتماء إلى درجة معينة. فالحب الذي نشعر به من الآخرين هو حب غير كامل؛ لأن الذين يحبوننا غير كاملين. وعلى أقل تقدير، اختبرنا جميعًا الحب والقبول المشروطين بمعنى "أنا أحبك بسبب..." أو "سأحبك إذا...". إن مثل هذه الرسالة تجعل الأداء أساسًا للحصول على الحب. ويبقى التهديد المستمر بأننا إذا لم نؤدِ طبقًا لمعايير معينة، فلن نتمتع بالحب. لذلك فإن الحب المشروط يترك جوعنا الداخلي للانتماء بدون إشباع.

كيف يمكن لتصورنا الخاطئ بأننا غير محبوبين أن يتغيَّر إلى الصورة التي رسمها الله لنا؟ يمكن تحقيق ذلك بصورة أساسية من خلال عكس العملية التي خلفت هذا التصور الخاطئ. على سبيل المثال، زاد ضعف الشعور بالانتماء من احتياج «ليندا» إلى الحب. وبالتالي كانت بحاجة إلى تنمية علاقات سوية داخل نطاق الأسرة والأصدقاء من خلال الكلمات والأفعال واللمسات. وكذلك كان عليها أن تتعايش مع الآخرين الذين يقبلونها كما هي، ويحترمون شخصيتها، ويعجبون بها. يؤكد مثل هذا المناخ حقيقة أنها محبوبة وتستحق الحب والقبول والاحترام والإعجاب. وسوف نتحدث باستفاضة عن تغيير الشعور بعدم الانتماء في الفصل العاشر تحت عنوان: "شعور جديد بالمحبة".

أنت ذو قيمة: شعور بالجدارة

وصل «چيم» إلى قمة النجاح في مهنته، وكتب العديد من الكتب، وألقى محاضرات عن الخبرة التي اكتسبها في مجاله في دول كثيرة حول العالم. كما يقود «چيم» سيارة رياضية باهظة الثمن، ويمتلك منزلاً كبيرًا في إحدى ضواحي المدينة، وهو سخي في العطاء لكنيسته والأعمال الخيرية الأخرى. ويرى رفقاؤه أنه شخص ناجح وواثق بنفسه للغاية.

لكن عندما تتعرف على «چيم» جيدًا، تدرك أنه يشعر بالخوف وعدم الأمان. وهذا الشعور بعدم الأمان هو ما قاده إلى مواقع النجاح. لكن ربما يقوده أيضًا إلى اليأس؛ لأن زوجته قد هددته بطلب الطلاق إذا لم يعالج ميوله نحو إدمان العمل.

يعاني «چيم» من هُوية مغلوطة، فهو يعتبر نفسه عديم القيمة بدون إنجازاته في العمل. فعندما كان طفلاً، كانت حياته في البيت لا تسير وفقًا لمنهج معين، وكانت حياة أليمة في معظم الأحيان. وكان والده مدمنًا للخمر، ويقوم بضربه دون أي سبب واضح. وكان أحيانًا عندما تذهب والدته إلى المدينة يأخذه أبوه إلى الخمارة، ويحبسه في شاحنة صغيرة. وكان والده لا يعود عادة إلا مع الفجر. وذات مرة باع دراجة «چيم»، واشترى خمرًا بثمنها. لم يكن يستطيع «چيم» مطلقًا أن يتنبأ بتصرفات والده. وعندما بلغ سن المراهقة، قرر «چيم» أن يعزل نفسه عن هذا الجو المفعم بعدم الأمان، وأن يصبح ناجحًا وغنيًا على قدر ما يستطيع.

يتخذ معظم الأطفال والديهم قدوة ويعتبرونهم معصومين من الخطأ وكاملين. لذلك يلقي الأطفال باللوم على أنفسهم عندما لا يشبع الوالدين حاجتهم إلى الحب والأمان والاهتمام، إذ يفكرون كالتالي: "أبي وأمي لا يمكن أن يفعلا شيئًا خطأ، لذلك لو كنت أستحق محبتهما، لكانا يحباننني. ولأنهما لا يحباننني فأنا لا أستحق محبتهما أو عنايتهما".

ونتيجة لذلك، يحاول الأطفال عادة أن يعوضوا هذا الشعور بعدم الجدارة

من خلال اكتساب الحب والعناية التي يلتمسونها من خلال إنجازاتهم خارج البيت، مثلما فعل «چيم».

ويحيط بنا في كل مكان اليوم الكثيرون مثل «چيم»، فهؤلاء يرون أنفسهم بلا قيمة كأشخاص؛ لأنهم تلقوا رسالة من الآخر تفيد بأنهم بلا فائدة. وتتضح هذه الصورة عندما لا يتم إشباع احتياجاتهم الأساسية من الشعور بالأمان والاهتمام والتعزية. ولذلك فإن الأطفال الذين يكبرون وهم يشعرون بعدم الأمان نتيجة إهانة والديهم لهم أو إهمالهم يستنتجون على الفور أنهم لا يستحقون هذا النوع من الاهتمام. وكذلك يشعر الأطفال الذين فشل والديهم في إعطائهم اهتمامًا مفعمًا بالحب أنهم غير مهمين. كما يشعر الأطفال الذين عانوا من جروح وإحباطات بدون مواساة الكبار لهم بأنهم بلا قيمة. ومثلهم في ذلك مثل «چيم»، حيث يصل هؤلاء الأطفال إلى سن المراهقة بصورة داخلية تحمل عبارة: "أنا عديم النفع والفائدة".

ومن أجل إعادة بناء هذا الركن الأساسي للهُوية، يجب أن نعتني بالاحتياجات التي لم تُشبع خلال سنوات التنشئة. يحتاج الناس- مثل «چيم»- إلى المؤمنين الذين يشبعون احتياجاتهم من الأمان والاهتمام والتعزية بطريقة سليمة تظهر الحب والاهتمام. وسوف نستطلع هذه الخطة بالتفصيل في الفصل الحادي عشر تحت عنوان "شعور جديد بالقيمة".

أنت كُفْء: شعور بالثقة

خلقنا الله بقدرات وكفاءات معينة. فكل إنسان يستطيع أن يقول: "أنا قادر على تقديم إسهامات جديرة بالاحترام للآخرين. أستطيع أن أفعل شيئًا". ربما تتساءل: لكن ماذا عن المقعد الذي فقد أطرافه الأربعة، أو الشخص الذي يعاني من خلل في المخ، أو الشخص الذي لم يخرج من غيبوبته؟ ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء؟ والإجابة عن ذلك هي أن الذين يعانون من العجز الجسدي يمكن أن يستخدموا عقولهم. كما أن الذين يعجزون عقليًا، ربما لا يزالوا قادرين على أداء مهام نافعة. وحتى الأشخاص الذين يعانون من العجز الجسدي والعقلي بوسعهم

أن يقدموا خدمة بتشجيع الآخرين على الاهتمام والعناية، وهذه قدرة فريدة تميزهم. وهذا الركن الأساسي للهُوية يصل إلى ذروته في حياة المؤمن الذي أعطاه الله موهبة الخدمة على المستوى الروحي.

ينمو الأطفال في البيئة النموذجية وهم يتمتعون بشعور سوى عن كفاءتهم. كما يحفزهم تشجيع والديهم المحبين ومساندتهم وتقديرهم لهم حتى يقوموا بتجربة أشياء جديدة، ويتغلبوا على الصعوبات. وعندما يسمع الأطفال قصة "الألة الصغيرة التي تستطيع عمل الكثير"، يكون لسان حالهم: «أعتقد أني أستطيع، أعتقد أنه يمكنني فعل ذلك». ويتعلّم الأطفال بناءً على أساس صلب من التشجيع والتعضيد أن يستمروا في نجاحهم في بعض الجوانب، وأن يجتهدوا في تحسين بعض الجوانب الأخرى.

يلعب الوالدان دورًا هامًا في اكتساب أبنائهم الشعور بالكفاءة. لنتأمل الأولاد الصغار الذين يتعلمون المشي، فهم يقومون بخطواتهم الأولى المتلعثمة بمساعدة والديهم ثم يقعون. وعندما يسمعون كلمات الإعجاب والتشجيع من والديهم يحاولون مرة ثانية، ومن ثم يمشون عدة خطوات ناجحة قبل أن يقعوا مرة أخرى. ويبتسم والديهم ويصفقون لهم قائلين: "محاولة جيدة بوسعكم أن تفعلوا ذلك"، وبعد وقت قصير يستطيع الأطفال أن يمشوا في كل مكان.

ولكن ما رأيك إن لم يشجِّع الأبوان طفلهما على المشي؟ فعندما يحاول الطفل أن يقف على رجليه غير الثابتتين، يحبطه أبواه بكلمات مثل "لن تتعلَّم المشي أبدًا. لا فائدة من المحاولة". من ذا الذي يمكن أن يكون بهذه القساوة حتى يعوق محاولة طفل لتعلُّم المشي؟ إنه أمر لا يُصدقه عقل. ومع ذلك، يكبر الكثير من الأطفال ولديهم هذه الخبرات السلبية.

لم يكن «سوني» الذي يبلغ من العمر ثماني سنوات موهوبًا في رياضة ما، لكنه كان يحب كرة البيسبول. وكان يمارس قذف الكرة ساعة تلو الأخرى ضاربًا إياها في باب الجراج. وكان يقذف كرة التنس عاليًا في الهواء حتى يكتسب مهارة الإمساك بالكرة. وعندما أضاع «سوني» كرة التنس، استخدم بدلاً منها ليمونة.

وكان «سوني» يتوسل إلى والده أن يلعب معه ويصد له الكرة، لكن والده كان لا يوافق إلا من حين لآخر. وأحيانًا أخرى كان يوافق على مضض.

وعندما بلغ «سوني» سن التاسعة، توسل إلى والده أن يأخذه إلى اختبارات دوري البيسبول للناشئين في الحديقة العامة، ووافق والده أخيراً. وكان «سوني» متحمسًا لاحتمالية أن يتم تسجيله في دوري المسابقات، خاصة أنه أصبح شرسًا في رمياته التي كان يتدرب عليها. وقبل أن تنتهي دورة الاختبار، قال له والده: "تعال يا «سوني»، دعنا نذهب إلى البيت، فأنت لست بارعًا في كرة البيسبول".

وهكذا تحطمت ثقة «سوني» في قدراته المحدودة. وقد استغرق الأمر سنوات حتى يعالج عدم شعوره بالكفاءة عندما يريد أن يعمل أي شيء بإتقان. ولا يزال عدم الثقة بنفسه يزعجه حتى بعد أن أصبح شابًا ناضجًا.

عندما لا يشجّع الآباء والأمهات محاولات أطفالهم ويساندونهم، فإن الأطفال يكبرون بشعور متضاءل بكفاءتهم. كذلك عندما لا يقدِّرون مجهودات أطفالهم، يتساءل الأطفال عما إذا كانوا ارتكبوا خطأ ما. وبالتالي، لن يتطلع الأطفال إلى المحاولة مرة ثانية.

كانت «أماندا» ذات العشرين عامًا فتاة جذابة، لكنها كانت تعاني من عدم الثقة بنفسها. ويرجع الكثير من عدم ثقتها بنفسها إلى الروح التنافسية بينها وبين أختها ماري في مرحلة الطفولة. فكانت ماري تفعل دائمًا كل شيء بإتقان، في حين لم تستطع «أماندا» أن ترضي والديها أبدًا. وكانت المحصلة التي توصلت إليها «أماندا» هي أنها حمقاء وغير كُفْء، وأن والديها لا يحبونها مثلما يحبون أختها «ماري». ولا تزال «أماندا» ترى نفسها بهذه الصورة حتى بعد أن أصبحت شابة ناضجة. فعندما ترتكب خطأ ما تتوقع الرفض من الآخرين، ولذلك فهي تقاوم الرغبة في محاولة القيام بأي شيء جديد.

فقد سُرق من «سوني» و«أماندا» وكثيرين مثلهم حقهم المشروع في الشعور بالكفاءة، ولا يزالوا يعانون حتى اليوم من هذا الأمر. ولكي يتغيَّر هذا الجانب الأساسي من هُويتهم ونظرتهم لأنفسهم، يحتاجون أن يعيشوا في مناخ يشجّع

مجهوداتهم ويقدِّم لهم المساندة والتشجيع. وسوف نتحدث أكثر عن هذه الاحتياجات وكيف يمكن إشباعها في الفصل الثاني عشر تحت عنوان "شعور جديد بالكفاءة".

خلق الله كل شخص منا ليكون محبوبًا وذا قيمة وكُفء. وإذا لم تتأكد هذه الأمور الأساسية الخاصة بالهُوية الحقيقية في سنوات الطفولة، وإذا لم تُشبع الاحتياجات الأساسية المرتبطة بهذه الأمور من خلال الأشخاص المقربين، سيكبر الأطفال بصورة مشوهة عن هُويتهم وعن أنفسهم. لذلك يتجه الناس في ثقافتنا إلى تعويض شعورهم الضعيف بالانتماء أو الجدارة بمحاولة تحقيق المزيد من الإنجازات في مجال عملهم. وربما يصبحون مدمنين للعمل في محاولة مستميتة لاكتساب الحب والإعجاب اللذين افتقدوا إليها في بداية حياتهم.

تحتاج إلى التغيير في حياتك بالقدر نفسه الذي حرمت به من التجسيد الواضح لهُويتك الحقيقية. ستساعدك الفصول التالية من الكتاب على المضي قدمًا في هذه العملية.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم من هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله. ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله صالح. نقرأ في مزمور ٨٦: ٥ «لأَنَّكَ أَنْتَ يَا رَبُّ صَالِحٌ وَغَفُورٌ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ لِكُلِّ الدَّاعِينَ إِلَيْكَ».

- ماذا يعني لك أن الله صالح؟

- ماذا يعني لك أن الله الصالح -الذي لا يقدر أن يخدع أحدًا- يراك محبوبًا؟

(٢) الله عادل ومُسْتَقيم. نقرأ في مزمور ١١٩: ١٣٧ «بَار أَنْتَ يَارَبُّ وَأَحْكَامُكَ مُسْتَقِيمَةٌ».

- ماذا يعني لك أن الله مستقيم وبار؟

- ماذا يعني لك أن الله العادل يراك محبوبًا وذا قيمة وكفء؟

يتضمن جزء آخر من فمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أَنْتُ عزيز". نقرأ في إشعياء ٤٣: ٤ «إِذْ صِرْتَ عَزِيزاً فِي عَيْنَيَّ مُكَرَّماً وَأَنَا قَدْ أَحْبَبْتُكَ».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: «أنا عزيز في عينيّ الله؛ فهو يحبني وأنا مُكّرم في عينه».

- ماذا يعني لك أنك عزيز في عيني الله؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يريد أن يكرمك؟

(٢) يقول الله: «مغفورة لك خطاياك». نقرأ في أفسس ١: ٧ «الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية "الله حنان جدًا حتى أنه غفر خطاياي وسامحني تمامًا. أنا الآن مبرر بدم الرب يسوع".

- ماذا يعني لك أن الله غفر خطاياك وسامحك؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك، فهو يحبك جدًا حتى أنه اشترى غفرانك بدم ابنه الوحيد؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك في نظرتك لنفسك وهُويتك.

الفصل التاسع

عملية التغيير

عندما قبلت المسيح كمخلص شخصي لحياتي، لم تتغيَّر نظرتي لنفسي تغييراً تلقائيًا. ولم أتمتع على الفور بحياة النصرة على آثار الجروح العميقة في حياتي السابقة. وقد سبب ذلك خيبة أمل لي.

ومع ذلك، عندما آمنت بالمسيح قبلت الروح القدس الذي ساعدني بالفعل على شفاء جروحي القديمة، وساعدني كذلك على استعادة هُويتي الحقيقية. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، بدأت عملية النمو في اتجاه رؤية نفسي من خلال رؤية الله لي، وتعلمت أن أسلك وفقًا لذلك. حتى أن التغييرات الإيجابية التي أراها في نفسي اليوم تبدو أمرًا يصعب تصديقه للغاية. ولا زالت عملية التغيير مستمرة بعد كل هذه السنوات، وستستمر حتى أموت.

حدث الشيء نفسه بالنسبة لك. فعندما آمنت بالمسيح، أصبحت إنسانًا جديدًا في داخلك. وعندئذ بدأت عملية إدراكك لهُويتك الحقيقية. يخبرنا الرسول بولس: «إِذاً إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيداً» (٢كو ٥: ١٧). إذا كنت مثلي، فربما تمنيت أن تتغيَّر بعض الأمور الخارجية عن ماضيك. على سبيل المثال، لم تتلاشَ ذكريات طفولتي مع أبي المدمن للخمر حتى عندما آمنت بالمسيح. وربما تعاني أنت أيضًا من بعض التجارب الماضية التي تتمنى أن تتلاشى من حياتك؛ لأنها تؤثر تأثيراً سلبيًا على نظرتك لنفسك وحياتك اليوم.

ولكن الخليقة الجديدة التي يتحدث عنها الرسول بولس هي أمر روحي في طبيعته. إنها تصف التغييرات الداخلية التي تبدأ في التأثير فينا عندما نبدأ في عملية النمو الروحي في الأسابيع والشهور التي تلي دخولنا في دائرة الإيمان. فأنا شخصيًا لم أتغيَّر ولا حدث تغيير في والديّ أو مدرسيّ أو زملائي أو الثقافة المحيطة التي شكلت حياتي، لكن فهمي لهذه التأثيرات تغيَّر تدريجيًا. من المحتمل أن تكون تجربتك مثل تجربتي. إذا كان لك أب يهينك، فلن تستطيع أن تستعيد طفولتك لتعيشها مع أب يحبك. فالماضي قد انتهى، وأصبح الآن ماضيًا. لن تستطيع أن تفلت منه أو حتى تغيِّره.

نزع الكفن

عندما يبدأ الروح القدس عملية التغيير، فإن الله يرسل مؤمنين آخرين ليساعدونا في هذه العملية. ويوضح رد فعل السيد المسيح في قصة موت لعازر جانبًا من عملية التغيير.

عندما اقترب الرب يسوع من قبر صديقه الميت لعازر، صرخ بصوت عظيم: «لعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!» (يو ١١: ٤٣). وعلى أمر السيد، خرج الرجل الذي كان ميتًا منذ أربعة أيام حيًا. وبدأ لعازر حياة جديدة.

كان لعازر ملفوفًا في كفن من الكتان مغموسًا في أطياب وحنوط تعمل على حفظ الجثة من التلف. وعندما ناداه السيد المسيح، تغلغت حياة جديدة خلال هذا الكفن في جسد لعازر، وخرج من القبر مربوطًا مثل المومياء.

لكن بعد أن تحرر من القبر، لم يعد يحتاج لهذه الأكفان، فهي بكل تأكيد كانت عائقًا لحركته في العالم الخارجي. وهكذا قال الرب يسوع لأسرة لعازر وأصدقائه: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ» (يو ١١: ٤٤). من الواضح أنه بمساعدة أصدقاء لعازر وأسرته، انفك وأنطلق حرًا لينعم بالحياة الجديدة.

لاحظ أن الأكفان لم تنفك في اللحظة التي دعاه فيها المسيح، وإنما حدثت عملية فك الأربطة بعد أن عادت إليه الحياة. ترسم هذه القصة صورة لعملية

التغيير التي تحدث في حياتنا. فعندما نصير مؤمنين، يعطينا السيد المسيح حياة جديدة كما لو أنه يدعونا قائلاً: "اخرجوا! اخرجوا من خبراتكم القديمة الميتة. اخرجوا، وتمتعوا بحياة جديدة قد أعددتها لكم. لكي تتمتعوا بالحياة!" إن المسيح هو الذي يعطي الحياة الجديدة، إنه صاحب القوة التي تبدأ عملية التغيير وتحفزها.

لكننا نخرج مثل لعازر من قبر ماضينا ونحن مربوطون بالأكفان. قد نكون مقيدين بتأثيرات أسرتنا ومدرستنا وأقراننا السلبية، وقد نكون مقيدين بصورة ذاتية مغلوطة عن أنفسنا. فدعوة المسيح لحياة جديدة تتخلل الأكفان- الأشياء التي تربطنا- لنبدأ حياة جديدة، لكننا لا نزال نعرج بسبب الأربطة. لا زالنا نحتاج أن نتخلص من نظرتنا الخاطئة عن أنفسنا، ونتحرر من التأثيرات السلبية التي حدثت لنا في مراحل حياتنا المختلفة.

كان الرب يسوع يستطيع أن يحرر لعازر من أكفانه في استعراض لقوته، لكنه لم يفعل ذلك، واختار أن يكون للناس دور في حياة لعازر. فقد قال لأصدقائه ولأسرته: «حلُّوه! فأنتم جزء من عملية تحريره من الأكفان! ساعدوه في عملية التغيير!» كذلك يفعل المسيح الشيء نفسه معنا. ويستمر في عملية تغييرنا بالسماح لمؤمنين آخرين يحبوننا بما يكفي ليساعدونا في رؤية أنفسنا كما يرانا الله. وسوف نناقش أهمية وجود المؤمنين الآخرين في عملية التغيير في الفصل الثالث عشر تحت عنوان "نحو مناخ يساعد على التغيير".

اكتشف حقيقتك

ليس من المهم أن نتذكر أن عملية التغيير تبدأ بعمل الروح القدس ومساعدة المؤمنين الآخرين فحسب، بل من الضروري أيضًا أن نفهم أمرًا جوهريًا آخر هو أنك لن تصير إنسانًا جديدًا بتغيير سلوكك، لكن عندما تكتشف هُويتك الموجودة بالفعل في المسيح، وتسلك وفقًا لها.

فكِّر في هذه العبارة للحظات: "لا تصير إنسانًا جديدًا بتغيير سلوكك". إننا كثيرًا ما نحفز المؤمنين الجدد ليبدأوا القيام بأمور معينة في عملية النمو الروحي.

ويضع المرشدون الروحيون بسلامة نية تحديًا أمام المؤمنين الجدد حتى يدرسوا الكتاب المقدس، ويحفظوا بعض الآيات، ويحضروا الكنيسة بانتظام على قدر الإمكان، ويقدموا شهادة للآخرين، ويستبدلوا عاداتهم القديمة الخاطئة بحياة التقوى. وأحيانًا بسبب اشتياقنا لرؤية مؤمنين جدد متأصلين في الإيمان، نجعلهم يشعرون أن نشاطهم الروحي سيغيِّر حالتهم الروحية.

"لن تصير إنساناً جديداً بتغيير سلوكك, لكن عندما تكتشف هُويتك الموجودة بالفعل في المسيح."

أرجو ألا تسيئوا فهمي، فأنا بكل قلبي مع دراسة الكتاب المقدس، وحضور الكنيسة ومشاركة الإيمان مع الآخرين. لكن قضاء وقت طويل في الاشتراك في هذه الأنشطة لا يغيِّر هُويتنا في شيء. فكِّر في العبارة التالية: "لن تصير إنسانًا جديدًا إلا عندما تكتشف هُويتك في المسيح وتسلك وفقًا لها". فدراسة الكتاب المقدس، وحضور الكنيسة، ومشاركة الإيمان مع الآخرين لا تجعل الله ينظر إلينا كمحبوبين وذي قيمة وأكفاء. فالله يرانا بالفعل بهذه الصورة لأنها حقيقتنا بالفعل. فنحن لا نحصل على هُويتنا كأولاد الله المحبوبين بذراعنا وقوتنا الخاصة، لكننا بالفعل أولاد الله المحبوبون. وعندما ندرك ذلك يمكننا أن نسلك وفقًا لذلك، ونقوم بالأشياء التي تعبِّر عنا.

آمن صديقي «ديڤيد فيرجسون» بالمسيح في أوائل العشرينات من عمره. وقام قادة محبون للرب ومخلصون بتشجيعه على الاشتراك في دراسة الكتاب المقدس ليساعدوه على النمو في حياة الإيمان. وأثقلوا عليه بالمواد الدراسية التي تحدته ليدرس بدقة وبعناية أجزاء من الكتاب المقدس حتى يكتشف الوعود الإلهية فيطلبها، والخطايا فيتجنبها، والوصايا فيطيعها. لقد كان مشروعًا دراسيًا متعمقًا. أقبل «ديڤيد» عليه بكل إخلاص، وكان يقضي ساعات وساعات كل أسبوع باحثًا في الكتاب المقدس. لكن لم تمضِ إلا عدة أسابيع قليلة حتى أصبح «ديڤيد» يعاني من الإرهاق الشديد. فقد كان منهمكًا جدًا في البحث عن آيات تساعده على «النمو» حتى أنه انحرف تمامًا عن هدف هذه التدريبات الروحية. ومن ثم وضع كتب الدراسة جانبًا، ووجه اهتمامه إلى معرفة إله الكتاب المقدس

معرفة شخصية، ذلك الإله الذي خلصه بطريقة معجزية. وقد أرجع سعيه هذا إلى الكتاب المقدس مرة أخرى، لكن كان دافعه مختلفًا تمامًا. فبدلاً من البحث في صفحات الكتاب «ليصبح» شخصًا له هُويته، تعمق في الكتاب باحثًا عن قلب الله الذي خلقه إنسانًا له قيمته. واليوم يعد «ديڤيد» واحدًا من أكثر الرجال الذين أعرفهم تعمقًا في دراسة كلمة الله. والأكثر أهمية من ذلك أنه أصبح أكثر تلامسًا مع الله الذي أوحى بالكتاب المقدس ربما أكثر من قادة آخرين. لقد تعلَّم مبكرًا أن النمو المسيحي هو في الأساس معرفة الله حتى نرى أنفسنا من خلال عينه.

وإذا كنا نريد أن ندرك هُويتنا الحقيقية، علينا جميعًا أن نشترك في هذه العملية. فتغيير نظرتنا غير الدقيقة عن أنفسنا إلى نظرة أكثر دقة ونقاء لهُويتنا في المسيح تأتي من خلال رؤيتنا لأنفسنا كأشخاص وليس من خلال أشياء نعملها. بوسعنا أن نرى أنفسنا بالطريقة التي يرانا بها الله من خلال علاقة حميمة ومستمرة معه. نحن في الأساس نقرأ ونحفظ ونتأمل في الكتاب المقدس حتى نتلامس مع قلب الله. وكلما عرفنا قلب الله، رأينا أنفسنا بصورة أكثر وضوحًا كأشخاص محبوبين وذي قيمة وأكفاء في عينيه.

التلامس مع قلب الله

إن أكثر ما يُقال صدقًا عن هُويتنا نجده في الكتاب المقدس. فمن خلاله يفتح الله قلبه ويتحدث إلينا وعنا. فإذا لم يتوافق ما تفكر فيه أو تشعر به عن نفسك مع وصف الكتاب المقدس لك، فأنت تعيش في حالة من الهُوية المغلوطة. وبالتالي فإن عملية تغيير صورتك الداخلية ترتبط ارتباطًا معقدًا للغاية بزيادة استيعابك لحقائق الكتاب المقدس عن نفسك.

آمن «سكوت» الذي يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا بالمسيح أثناء دراسته الجامعية، لكنه عاش تحت سحابة قاتمة من الشعور بالذنب منذ ذلك الحين. والسبب هو أن «سكوت» كان قد تورط في علاقة شاذة مع رجل أكبر منه عندما كان مراهقًا، ولم يعرف بها أحد. لكن بعد أن آمن «سكوت» بالمسيح، تغيَّر أسلوب حياته؛ لأنه عرف أن الشذوذ الجنسي يعتبر خطية وفقًا للكتاب المقدس. وعلى

الرغم من ذلك، لم يستطع الهروب من الشعور بالذنب بسبب خطيته السابقة. ومن ثم كان يشعر بأنه مؤمن من الدرجة الثانية، وأن الله قد لا يعتمد عليه أبدًا في خدمة مهمة بسبب الخطية التي ارتكبها عندما كان مراهقًا. ونتيجة لذلك كان يشعر بالهزيمة معظم الوقت.

يقول الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية: «إِذاً لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (رو ٨: ١). والسؤال الآن مَنْ الذي لديه صورة دقيقة لهُوية «سكوت» الحقيقية؟ هل «سكوت» نفسه الذي يرى نفسه مدانًا، وعديم القيمة، أم الله الذي غفر خطيته ولم يعد يدينه؟ بالطبع هو الله! نحن نرى ما في قلب الله نحو خطية «سكوت» في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ١. فقد غفر الله لسكوت، ولم يعد يتذكر خطاياه. وهكذا لم تبدأ عملية التغيير في نظرة «سكوت» لهُويته المغلوطة إلا عندما بدأ الحق الكتابي في رومية ٨: ١ في تغيير رؤية «سكوت» لنفسه.

سنجد صعوبة كبيرة في فهم رؤية الله لنا بعيدًا عن كلمة الله. يشبه الأمر إنسانًا أهدى صديقه الذي يحبه هدية غير مألوفة في عيد ميلاده. حيث اشترى لصديقه صورتين «بازل» لتجميع أجزائهما، ثم قام باستبدال الصورتين اللذين على غطاء الصندوقين كدعابة. لكن الصديق الذي حصل على الهدية عانى من الإحباط تمامًا عندما حاول تجميع أجزاء الصورة الأولى. ولأنه قام باستخدام الصورة التي على غطاء الصندوق كدليل، لم يستطع أن يكوِّن أي صورة لها معنى للقطع التي بالداخل. وكذلك وجد اللغز الثاني صعبًا حتى كشف له صديقه هذه الدعابة.

إننا نشعر بخيبة أمل مماثلة في فهم هُويتنا عندما ننظر إلى الصورة الخاطئة. إذا استخدمت مشاعرك وآراءك وتجاربك الشخصية كمعايير لتحديد مَنْ أنت، فإنك ستصارع في تجميع صورة صحيحة عن هُويتك الحقيقية. لذلك فإن كلمة الله هي الصورة التي نعتمد عليها في تجميع أجزاء هُويتنا. وكلما كنت في توافق مع صورة الله، كان من الأسهل تجميع أجزاء حياتك لتتوافق معًا فتشبه تلك الصورة التي أرادك الله لتكون عليها. لذلك علينا أن نستخدم هذه الصورة- أي الكتاب المقدس- إذا كنا نأمل اختبار التغيير المنشود.

رؤية مَنْ هو الله

يعد أحد العوامل الحيوية لرؤية أنفسنا كما يرانا الله هو أن نعرف شخص الله بالحقيقة. إن صفات الله في الكتاب المقدس تكشف عما في قلبه نحونا. وكلما عرفنا الله، زاد فهمنا لسبب رؤيته لنا بصفتنا أبناء محبوبين وذي قيمة وأكفاء. تأمل القائمة الآتية للصفات المنسوبة لله في الكتاب المقدس. فكل سمة من سمات شخصه الواردة في هذه القائمة تساعدنا على فهم أكثر وضوحًا لسبب رؤيته لنا بهذه الرؤية. وسوف تدرك بعضًا من هذه السمات من خلال الأسئلة التي نقدمها في نهاية كل فصل في محاولة لمساعدتك على اكتشاف قلب الله الحقيقي الذي يحبك.

- الله هو ملك الكون (مز ٢٤: ٨؛ ١كو ٢٩: ١١؛ ٢كو ٢٠: ٦). فكل ظروفك هي بالأساس في يديه، وهو يمتلك حياتك ويتولى زمامها.

- الله بار (مز ١١٩: ١٣٧)، ولا يمكن أن يسمح إلا بكل ما هو صالح، لكي يحدث في حياتك، ولا يمكنه أن يخطئ في حقك.

- الله عادل (تث ٣٢: ٤)، وسيكون دائمًا عادلاً معك.

- الله محبة (١يو ٤: ٨)، ويريدك أن تستمتع بحياتك إلى أقصى درجة.

- الله أبدي (تث ٣٣: ٢٧)، وخطته لحياتك أبدية أيضًا.

- الله عالم بكل شيء (٢كو ١٦: ٩؛ مز ١٣٩: ١- ٦)، فهو يعلم كل شيء عن ماضيك وحاضرك، ويعرف كيف يخرج الأفضل حتى من أسوأ التجارب التي مررت بها.

- الله موجود في كل مكان (مز ١٣٩: ٧- ١٠)، ولا يوجد مكان يمكن أن تذهب إليه دون أن يعتني بك.

- الله كلي القدرة (أي ٤٢: ٢)، ويستطيع أن يفعل أي شيء ضروري ليتمم قصده في حياتك.

- الله حق (مز ٣١: ٥)، ولا يمكن أن يكذب عليك.

- الله لا يتغيَّر (ملاخي ٣: ٦)، فهو ليس متقلبًا أو متغيرًا؛ لذلك يمكنك أن تعتمد عليه.

- الله قدوس (رؤ ١٥: ٤)، وكل شيء يفعله في حياتك سيكون في توافق مع طبيعته المقدسة.

رؤية نفسك كما يراك الله

يكشف الكتاب المقدس لنا أيضًا ما يقوله الله عن هُويتنا. ويكشف عما في قلبه نحونا. والأمور المتعلقة بهُويتك والموضوعة في قائمة في الصفحات المتبقية من هذا الفصل تمثل حقائق ثابتة من اللحظة التي آمنت فيها بالمسيح بصفته ربًا ومخلصًا: «لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ .... وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحاً وَاحِداً» (١كو ١٢: ١٣). ففي اللحظة التي ننال فيها الخلاص، نعتمد جميعًا باسم المسيح الذي يمنحنا أساسًا تقوم عليه هُويتنا الجديدة.

يحتوي الأصحاحان الأولان من رسالة أفسس على جرعة مركزة تتعلق بهُويتك الحقيقية بصفتك خليقة جديدة في المسيح. كما تصف النصوص التالية مكانتنا في المسيح. لاحظ من فضلك أن هذه الحقائق مستمدة من كلمة الله، وهي حقائق فعلية عنك؛ لأنك صرت في المسيح. وهي جزء من هُويتك بعيدًا عن أدائك بصفتك شخص مؤمن، وقد قمت بسردهم على لسانك حتى تستطيع أن تقرأ هذه القائمة بنفسك، ولتساعدك في رؤية نفسك بوضوح كما يراك الله.

- الله باركني بكل بركة روحية في السماويات في المسيح (أف ١: ٣).

- الله اختارني قبل تأسيس العالم لأكون قديسًا وبلا لوم قدامه (أف ١: ٤).

- الله سبق وعينني بصفتي ابنه بيسوع المسيح (أف ١: ٥).

- الله أعطاني الفداء بدمه (أف ١: ٧).

- الله غفر خطيتي بنعمته (أف ١: ٧).

- أنا خُتمت في المسيح بروح الموعد القدوس (أف ١: ١٣).

تنطبق علينا أمورًا عظيمة، بسبب مكانتنا في المسيح، وهي الحقيقة التي يريد الرسول بولس أن يسكنها في أعماقنا. لذلك فهو يصلي قائلاً: «مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته» (أف ١: ١٨، ١٩). إن الله يهتم اهتمامًا عميقًا بأن يجعلنا نرى أنفسنا كما يرانا هو.

ويستمر الرسول بولس في وصف قيامة المسيح وجلوسه عن يمين الله الآب في السماويات. (اقرأ أفسس ١: ٢٠- ٢٣). ويضيف أن المسيح أقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويات عن يمين الآب. (انظر أفسس ٢: ٦). ثم يستمر في الأصحاح الثاني في سرد أوصاف أكثر عن الإنسان المسيحي من وجهة نظر الله. ومرة أخرى قد سردت هذه الحقائق باستخدام ضمير المتكلم "أنا":

- أنا حي في المسيح (أف ٢: ٥).

- أنا قمت مع المسيح (أف ٢: ٦).

- أنا أجلس مع المسيح في السماويات (أف ٢: ٦).

- المسيح خلصني بنعمته (أف ٢: ٨).

- أنا عمل الله (أف ٢: ١٠).

- بالمسيح لي قدوم في روح واحد إلى الآب (أف ٢: ١٨).

بالإضافة إلى هذه الجرعة المركزة الموجودة في الأصحاحين الأول والثاني من رسالة أفسس، فإن كلمة الله تذخر بأوصاف كثيرة للصورة التي يرانا بها الله. وفيما يلي قائمة أخرى بالحقائق التي تعكس هُويتنا الحقيقية. من فضلك اقرأ هذه الحقائق عدة مرات بصوت مسموع. وتأمل هذه الحقائق خلال الأسبوع القادم حتى يستطيع الله أن يستخدمها ليضيء بنوره على صورتك الذاتية الحقيقية:

- أنا لي سلام مع الله (رو ٥: ١).
- أنا ابن لله (يو ١: ١٢).
- روح الله يسكن فيَّ (١كو ٣: ١٦).
- يمكنني أن أطلب حكمة من الله وأحصل عليها (يع ١: ٥).
- الله يعطيني رحمة ونعمة وعونًا في حينه (عب ٤: ١٦).
- المسيح صالحني مع الله (رو ٥: ١١).
- الله لا يدينني (رو ٨: ١).
- المسيح بررني بالإيمان مع الله (رو ٥: ١).
- المسيح أعطاني بره (رو ٥: ١٩؛ ٢كو ٥: ٢١).
- أنا سفير المسيح (٢كو ٥: ٢٠).
- المسيح غفر خطاياي بالكامل (كو ١: ١٤).
- الله يحبني محبة أبدية (إر ٣١: ٣).
- أنا رائحة المسيح الذكية عند الله (٢كو ٢: ١٥).
- أنا هيكل الله وروح الله ساكن فيَّ (١كو ٣: ١٦).
- المسيح جعلني بلا لوم أمام الله (كو ١: ٢٢).
- أنا ملح الأرض (مت ٥: ١٣).
- أنا نور العالم (مت ٥: ١٤).
- أنا غصن في كرمة المسيح (يو ١٥: ١، ٥).
- أنا حبيب المسيح (يو ١٥: ١٥).
- المسيح اختارني لكي أثمر (يو ١٥: ١٦).

- أنا وارث مع المسيح وشريكه في الميراث (رو ٨: ١٧).

- أنا ملتصق بالرب وروح واحد معه (١كو ٦: ١٧).

- أنا عضو في جسد المسيح (١كو ١٢: ٢٧).

- أنا قديس (أف ١: ١).

- أنا حياتي مستترة مع المسيح في الله (كو ٣: ٣).

- الله اختارني بصفتي قديس ومحبوب (كو ٣: ١٢).

- أنا ابن نور (١تس ٥: ٥).

- أنا شريك الدعوة المقدسة (عب ٣: ١).

- أنا مقدس (عب ٢: ١١).

- أنا حجر من حجارة الله الحية المبنية في شخص يسوع المسيح كبناء روحي (١بط ٢: ٥).

- أنا عضو في جنس مختار وكهنوت ملوكي وأمة مقدسة وشعب اقتناء لله (١بط ٢: ٩، ١٠).

- أنا متأصل بثبات ومبني في المسيح (كو ٢: ٧).

- أنا مولود من الله، لذلك الشرير لا يستطيع أن يمسني (١يو ٥: ١٨).

- أنا لي فكر المسيح (١كو ٢: ١٦).

- أنا لي أن أقترب لله بكل جراءة وحرية وثقة (أف ٣: ١٢).

- الآب أنقذني من سلطان الظلمة، ونقلني إلى ملكوت المسيح (كو ١: ١٣).

- أنا ممتلئ في المسيح (كو ٢: ١٠).

- الله أعطاني روح القوة والمحبة والنصح (٢تي ١: ٧).

- الله وهبني مواعيد عظمى وثمينة (٢بط ١: ٤).

- الله يسدد كل احتياجاتي (في ٤: ١٩).

والآن هل ابتدأت أن ترى بصورة أكثر وضوحًا ما كان يعينه الرسول بولس بقوله أنك خليقة جديدة في المسيح؟ أحد مفاتيح تغيير نظرتك لنفسك يتمثل في الاعتراف بأن أمرًا صالحًا جدًا قد حدث في حياتك عندما آمنت بالمسيح. يقول الرسول بولس «وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ» (كو ٣: ١٠).

فهُويتك ليست في الأساس ما يقوله والداك أو معلموك أو أصدقاؤك عنك، حتى إذا كان الكثيرون منهم مؤمنين. وأنت لست في الأساس نتاج خبرات روحية سابقة، حتى إذا كان الكثير منها إيجابيًا. وأنت بكل تأكيد ليس ما تقوله عنك ثقافة الإلحاد المحيطة بك. أنت لست إلا ما يقوله الله عنك، ليس أكثر أو أقل. وكلما راجعت الصورة الفعلية التي رسمها الله لك في الكتاب المقدس واستلهمتها، ستنمو أكثر وفقًا لهذه الصورة عينها.

"لن تصير إنساناً جديداً بتغيير سلوكك, لكن عندما تكتشف هُويتك الموجودة بالفعل في المسيح."

في الفصول الثلاثة التالية، سنتعرض بشكل خاص إلى كيف أن معرفتنا الاختبارية لله الآب ويسوع المسيح الابن والروح القدس تساهم في تغيير صورتك عن نفسك.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله. ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله هو أمانك. نقرأ في تثنية ٣٣: ١٢ «حَبِيبُ الرَّبِّ يَسْكُنُ لدَيْهِ آمِناً. يَسْتُرُهُ طُول النَّهَارِ وَبَيْنَ مَنْكِبَيْهِ يَسْكُنُ».

- ماذا يعني لك أن الله يحبك ويرتب لك مكانًا آمنًا لترتاح فيه؟

- ماذا يعني لك أن الله يسمح لك بأن ترتاح بين منكبيه؟

(٢) الله لا يتغير. نقرأ في مزمور ١٠٢: ٢٧ «وَأَنْتَ هُوَ وَسِنُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ».

- ماذا يعني لك أن الله لا يتغير؟

- ماذا يعني لك أن الله الذي كان يراك محبوبًا عندما خلقك، يراك اليوم أيضًا محبوبًا وذا قيمة وكُفؤًا؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أَنْتُ َبِلاَ لَوْم". نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي: «لِيُحْضِرَكُمْ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ وَلاَ شَكْوَى امَامَهُ» (كو ١: ٢٢).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: «أنا بلا لوم لأن ربي يسوع مات بدلاً عني، ويمكنني أن أقف أمام الله الذي يغطيني ببر ابنه».

- ماذا يعني لك أن الله يراك ذا قيمة ثمينة، حتى أنه سمح لابنه الذي بلا خطية أن يموت لكي تستطيع أن ترى نفسك بلا لوم أو عيب؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك حينما طهرك من كل خطية؟

(٢) يقول الله: "المسيح انقذك من سلطان الظلمة ونقلك إلى ملكوت الله".

نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى كولوسي: «الَّذِي انْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا الَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ» (كو ١: ١٣).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله أحبني حتى أنه أنقذني من سلطان الظلمة ونقلني إلى ملكوت ابن محبته".

- ماذا يعني لك أن الله أنقذك من سلطان الظلمة؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك عندما نقلك إلى ملكوت ابنه الغالي؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وفي نظرتك لنفسك.

الجزء الرابع
غيِّر نظرتك لتتوافق مع نظرة الله لك

الفصل العاشر

شعور جديد بالمحبة

تمثل علاقتك الشخصية بالله بداية الطريق نحو فهم هُويتك الحقيقية. ففي علاقتك بالله الآب ينمو شعورك بالانتماء، وتدرك أن الله يحبك محبة غير مشروطة. بينما ينمو شعورك بالقيمة في علاقتك بالرب يسوع المسيح الابن وتدرك أن الله يقدِّرك ويعتز بك. وأخيرًا ينمو شعورك بالكفاءة في علاقتك بالروح القدس، وتدرك أنك نافع لله. وتمثل هذه الأركان الثلاثة الأساس الذي تُبنى عليه هُويتك بصفتك ابن محبوب وذي قيمة وكُفْء. وسوف نتناول كل منهم بتفصيل أكثر في الفصول الثلاثة القادمة.

الحب الذي يلمس القلب

إن أكثر احتياجاتنا الإنسانية أهمية تتمثل في أن نكون محبوبين، وأن نشعر بالانتماء لشخص ما. قد تدرك بعقلك أنك محبوب، فعلى أية حال يعلن الكتاب المقدس محبة الله لنا. ومن المحتمل أن يتحدث شخص قريب منك جدًا- قد يكون والدك أو أحد أصدقائك أو شريك حياتك أو أحد أبنائك أو صديق عزيز عليك- إليك بهاتين الكلمتين الساحرتين "أنا أحبك". لكن سماعك أنك محبوب ليس أمرًا كافيًا. هل تعرف ما هي المشاعر التي تنتابك عندما تشعر أنك محبوب؟ لن تختبر الشعور بالانتماء إلا عندما يتضمن فهمك للحب كلاً من منطق العقل ومشاعر القلب.

تأمل قائمة الحقائق الكتابية التي ذكرناها في الفصل السابق. وبينما تقرأ

هذه الحقائق عن هُويتك نتيجة عمل الله فيك، ماذا تشعر في قلبك؟ على سبيل المثال، سوف تعلم أن الله يحبك؛ لأن إنجيل يوحنا يعلن أنه عندما قبلت المسيح، أصبحت ابنًا لله (انظر يو ١: ١٢). ربما تكون قادرًا على أن تفسر النص الأصلي باللغة اليونانية، وتستطيع أن تشرح كل كلمة بكل ما تحتويه من معانٍ وإيحاءات. فمعرفة ما بداخل هذه الآية وكل ما يتعلق بها قد يساعدك، لكن هذا النوع من المعرفة لا يعني أبدًا أنك اختبرت محبة الله. لكن بالأحرى كيف يمكن لهذه الآية أن تجعلك تشعر برغبتك في معرفة أن الله الذي خلق الكون يرغب في تكوين علاقة شخصية وحميمة معك. ما هي المشاعر التي تشعر بها عندما تدرك أن الله الأزلي والسرمدي يرغب في أن يدعوك ابنه أو ابنته، ويطلب منك أن تدعوه «يَا أَبَا الآبُ!» (رو ٨: ١٥).

لا يحتاج الله أن تضيف شيئًا إلى حياته أو تشبع احتياجًا لديه بأي حال من الأحوال. واتخاذك لخطوة الإيمان لا تجبر الله أن يفعل ما لا يريد أن يفعله، فهو يحبك لأنه اختار ذلك. وهو يضمك لحضنه بصفتك ابنه المحبوب الغالي؛ لأنه ببساطة يريدك أن تكون ابنه. فكيف تؤثر هذه الحقيقة في نفسك وفي مشاعرك؟

سأقول لك ما تمثله لي أنا شخصيًا. أشعر بالتواضع جدًا، والتميُّز، وأن الله يعتني بي. وأجيب الله في دهشة وأقول له: "هل اخترتني أنا؟" ولا تزال تريدني أن أكون ابنك بالرغم من كل خطايا الماضي والحاضر والمستقبل، ونقاط الضعف التي أعاني منها، وعدم إيماني، وغياب محبتي لك في بعض الأوقات؟ كم من الرائع أن أتمتع بذلك حقًا! ولكن لأنك هو الله، فمن المؤكد أن هذا أمر حقيقي! كلما شعرت بمحبة الله بالسماح لها بأن تتخلل قلبي، يزداد عمق شعوري بالانتماء، وأرى نفسي بصورة مختلفة؛ لأن الله أشبع هذا الاحتياج الأساسي في حياتي.

قارن بين هذا التأثير العاطفي وبين المشاعر الأخرى لما يُسمى بالحب في حياتك. قد تكون تربيت في بيت سمعت فيه مَنْ يقول لك: نحن نحبك، أو ربما كان الحب ضمنيًا؛ لأن شخصية الأب أو الأم كانت توفر لك الطعام والمأوى. لكن هل تخطى الحب حاجز الكلمات والأفعال الروتينية ليحمل لك إحساسًا بأنك محبوب، ومرغوب فيه، وتتمتع بالانتماء؟ هل لمس قلبك بعمق الحب الذي من

المفترض أن تكون قد تمتعت به في البيت؟

حضرت مؤخرًا أنا وزوجتي «دوتي» مؤتمرًا استضافه «ديڤيد وتريزا فيرجسون». وكانت «كارلا» وزوجها من بين الحاضرين في المؤتمر. وقد وصفت علاقتها بوالدتها ووالدها خلال مناقشة عن موضوع التربية الأسرية في إحدى المجموعات الصغيرة بإنها كانت علاقة عادية. رغم ذلك، عندما قام «ديڤيد» و«تريزا» بطرح عدد من الأسئلة عليها بأسلوب لطيف، رسمت «تريزا» بردود أفعالها صورة مختلفة عن علاقتها بوالديها.

قالت «كارلا» إن والدتها كانت نادرًا ما تصغي إليها وهي طفلة. وكانت تعود من المدرسة بأخبار مثيرة، لكن والدتها عادة ما كانت مشغولة جدًا بإعداد وجبة العشاء إلى الأسرة أكثر من الانتباه لمثل هذه الثرثرة الطفولية. وعندما كانت «كارلا» تركب السيارة مع والدتها وتحاول أن تبدأ حوارًا معها، لم تكن الأم تعطي أي اهتمام للأنشطة التي تقوم بها «كارلا» سواء بعدم الاستماع لها، أو بأن يسود على الحوار حديث الأم عن جدول أعمالها. واختتمت «كارلا» حديثها بأنه حتى يومنا هذا، تسيطر احتياجات والدتها على معظم حديثهما معًا، فقد كانت علاقة من جانب واحد في معظمها، وذلك خلال سنوات حياة «كارلا».

وقد لاحظ «ديڤيد» بذكاء أنه يمكن أن يطلق على علاقة «كارلا» بوالدتها بأنها علاقة متباعدة وليست عادية. وقد تصر والدة «كارلا» على أنها تحب ابنتها محبة شديدة، لكن بسبب أنانية الأم وعدم اهتمامها بابنتها خاصة في طفولتها، افتقدت «كارلا» لقدر كبير من الانتماء إلى البيت، وهو ما حمل لها بطريقة غير ملحوظة رسالة تفيد بأنها غير محبوبة على الإطلاق.

ومع استمرار الحديث كشفت «كارلا» باكية أن والدها الذي كان يعمل عملاً شاقًا حتى يوفر لهم ما يحتاجونه قد داعبها بطريقة غير لائقة وهي طفلة. عندئذ صححت لها «تريزا» برقة بأن علاقتها بوالدها كانت مهينة وليست عادية أيضًا. فمن المفترض أن يعطي الأب حتى يشبع احتياجات ابنته، لكن على العكس كان يأخذ منها حتى يشبع هو احتياجاته. وكان هذا سبب آخر يفسِّر لماذا تركتها

العلاقة التي كانت تبدو جيدة مع والديها في احتياج شديد إلى الحب والانتماء للعائلة.

ربما تكون قد وصلت لمرحلة المراهقة ولديك نفس الألم الداخلي، حيث أشبع والديك أو الذين قاموا بتربيتك كافة احتياجاتك المادية، ولكنهم فشلوا في أن يبذلوا أنفسهم للدرجة التي يلمس حبهم قلبك فتشعر أنك محبوب ومرغوب فيه بشكل كبير. ونتيجة لذلك، تصارع الآن لتقبل حقيقة أنك محبوب ومنتمي لهم. وبالتالي فإن تغيير نظرتك لنفسك يحتاج إلى تدعيم هذا الجانب الأساسي من هُويتك.

مَنْ يعرفك أكثر يحبك أكثر

إن أكثر الجوانب أهمية في فكر الله ومشاعره نحوك هي محبته وقبوله غير المشروطين لك. كتب الرسول يوحنا- الذي كان يدعو نفسه بالتلميذ الذي «كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ» (يو ١٣: ٢٣): «فِي هذَا هِيَ الْمَحَبَّةُ: لَيْسَ أَنَّنَا نَحْنُ أَحْبَبْنَا اللهَ، بَلْ أَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا، وَأَرْسَلَ ابْنَهُ كَفَّارَةً لِخَطَايَانَا» (١يو ٤: ١٠). ليس فيك شيء يجعل الله يحبك. لكنه يحبك فعلاً!

ومن هنا يبدأ التغيير. أننا كثيرًا ما لا نرى حقيقة أن الله يحبنا. فقبل أن تؤمن بالمسيح، كان الله يحبك مثلما يحبك الآن (انظر رو ٥: ٨؛ ٨: ٣٨، ٣٩). وقد وضّح الرب يسوع مقدار هذا الحب عندما قال: «كَمَا أَحَبَّنِي الآبُ كَذلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا. اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي» (يو ١٥: ٩). ستصاب بالذهول عندما تتأمل في فكرة أن المسيح يحبنا مثلما يحبه الله الآب. كما يصعب عليك أن تستوعب هذا الحب بعقلك، ناهيك عن اختباره عاطفيًا.

"ليس هناك شئ فيك جعل الله يحبك. إنه فقط يحبك!"

يجد الكثيرون اليوم صعوبة في أن يتلقوا محبة غير مشروطة من الله والآخرين بسبب أن المحبة التي تمتعوا بها أثناء نشأتهم كانت محبة من النوع المشروط. حيث كانت كلمة "أحبك" مرتبطة بكلمات مثل: "إذا" أو "بسبب".

وهذه كانت التجربة التي مر بها «ريك». كان «ريك» شخصًا مؤمنًا ويقوم بزيارة أخيه في الإيمان «بارت». وخلال الزيارة، وضع «بارت» يده على كتف «ريك»، وقال له: "لا أتذكر إذا كنت قلت لك من قبل أنني حقًا أحبك يا «ريك»". وقد كان تعبيرًا بسيطًا من صميم القلب، ويُظهر محبة «بارت» غير المشروطة لصديقه.

لكن بدلاً من أن يقبل «ريك» هذه العبارة الدافئة، احتد «ريك»، وقال له: "ماذا تريد مني؟" فأجابه «بارت» متحيرًا: "لا أريد منك أي شيء، ماذا بك؟"

لم يرد عليه «ريك»، وانصرف بعد هذه المشادة إلى بيته. ثم عاد بعد وقت لمنزل «بارت» يطلب منه أن يسامحه على رده القاسي، وشرح له إنه لم يتعود أن يتلقى محبة من شخص دون أن يطلب منه شيئًا مقابل ذلك. وقال له: "حتى والديّ كانا يقولان لي أنهما يظهران الحب لي عندما يريدان مني أن أحصل على درجات أفضل أو أغيِّر سلوكي بشكل ما".

"إن قبول الله لنا لا يعتمد على أعمالنا الصالحة أو أي شئ فعلناه لاجله, لكنه يقبلنا كما نحن."

يتجاوب البعض مع الله بالطريقة نفسها التي تجاوب بها «ريك» مع «بارت». "ماذا تريد مني؟" وهذه الإجابة تعني بالأساس أن أي شخص نادرًا ما يختبر المحبة غير المشروطة خلال سنوات نشأته. أمّا محبة الله فلا تقدَّم لنا "بشروط". بالتأكيد يرغب الله أن نتعامل معه في حب وطاعة له، لكنه يحبنا سواء حققنا هذه الرغبة أو لم نحققها. ويشعر البعض الآخر بالحاجة إلى مساومة الله حتى يقبلون محبته غير المشروطة مبررين ذلك بقولهم: "أحتاج أن أصحح مسار حياتي قبل أن تقبلني كما أنا". لكن الله يجيب «أنا أقبلك بالفعل كما أنت. وقد برهنت على ذلك عندما أرسلت ابني ليموت عنك في الوقت الذي كنت منغمسًا فيه في الخطية (انظر رو ٥: ٨).

ولا يوجد أي أساس كتابي يؤيد فكرة أننا نحتاج إلى أن نصل إلى مستوى معين قبل أن يقبلنا الله. كتب الرسول بولس يقول: «لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ،

وَذلكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ الله. لَيْسَ مِنْ أَعْمَال كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ» (أف ٢: ٨، ٩). فإن قبول الله لنا لا يعتمد على أعمالنا الصالحة أو مواقفنا أو أي شيء قد فعلناه لأجله، لكنه يقبلنا كما نحن. وهو يحبنا بدون أي شروط ليس بسبب أعمالنا نحن، ولكن بسبب عمله لأجلنا. يصبح عمله على الصليب عملاً يخص كل منا عندما نؤمن به ونقبله كمخلص وسيد على حياتنا. يقول الكتاب المقدس: «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ الله، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ» (يو ١: ١٢).

يتوقع الله الأفضل دائمًا منّا؛ لأنه يتوقع دائمًا نجاحنا. وحتى عندما نفشل، فذلك لا يعرض قبول المسيح لنا للخطر. كذلك لا يوبخنا بغلظة، ولا يقول أبدًا: "قد قلت لك من قبل"، بل يسمح لنتائج أخطائنا أن تعلِّمنا، ويؤدبنا بمحبة عندما نفعل خطية، لكنه يقبلنا ويعمل فينا وينمينا مع أنه يعلم يقينًا أننا سنسقط في الخطية مرارًا وتكرارًا.

أنت محبوب ومقبول حتى عندما سرت في الاتجاه الخاطئ

شرحت قصة شهيرة من سجلات تاريخ مباريات البيسبول «الروز بول» في الجامعات بأمريكا، ماذا يعني للشخص أن يجد مَنْ يؤمن به ويقبله بدون شروط. في عام ١٩٢٩، صنع «روي ريجليز» وهو لاعب بيسبول في جامعة كاليفورنيا تاريخ «الروز بول». في النصف الثاني من المباراة، التقط «روي» الكرة سريعًا من فريق «چورچيا تك» المرتبك، وتوجه إلى الزاوية الخطأ من الملعب. لذا هاجمه زميله في الفريق قبل أن يصل خط المرمى. وكان خطأ ريجليز سيتسبب في فوز فريق «چورچيا تك» بست نقاط.

وكان على فريق «ريجليز» أن يطفش الكرة من زاوية ملعبهم قبل أن تصل إلى الأرض. وقد تمكن فريق «چورچيا تك» من إغلاق منطقة التسديد وهو ما أدى إلى فوزه بنقطتين، وبهذا الفارق فازوا بالمباراة.

خلال فترة الاستراحة، دخل لاعبو جامعة كاليفورنيا إلى غرفة خلع الملابس في صف واحد مكتئبين، وانهار «ريجليز» في أحد أركان الغرفة ودفن وجهه بين

يديه، أخذ يبكي بشكل هستيري. ولم يتحدث مدرب الفريق الكابتن «بريس» بأي ملاحظات أو تعليقات، فما عساه أن يقول؟! وعندما استعد الفريق للخروج إلى الشوط الثاني، كان تعليقه الوحيد: "يا رجال، سنبدأ بالفريق نفسه الذي لعب الشوط الأول".

تحرك جميع اللاعبين نحو الباب ماعدا «روي ريجليز». وتحرك الكابتن «بريس» ناحية المكان حيث يجلس «ريجليز»، وقال له بهدوء: "«روي» ألم تسمعني؟! ثم أعاد عليه التعليمات التي كان قد أعطاها للفريق".

فأجابه «روي» بحزن: "كابتن! لا أستطيع أن أقوم بذلك، فقد دمرتك، ودمرت الجامعة، ودمرت نفسي. لا أستطيع أن أواجه الجمهور مرة أخرى".

وضع كابتن «بريس» يده على كتف لاعبه، وقال له: "«روي»، انهض! وعد إلى الملعب، فلم يمضِ من المباراة سوى الشوط الأول". وبعد أن بث المدرب الثقة فيه، عاد «روي ريجليز» إلى الملعب مرة أخرى. وبعد المباراة، علّق لاعبو فريق «چورچيا تك» أن «ريجليز» لعب بشكل أقوى في الشوط الثاني بشكل لم يروه في أي لاعب آخر من قبل.

إننا نرى في كابتن «بريس» لمحة من قبول الله لنا. فجميعنا نرتكب أخطاء، ونسير أحيانًا في الاتجاه الخاطئ فنتعثر ونسقط، ونبتعد عن الله في خزي، لكنه يأتي إلينا ويقول: "انهض! واستمر في السير! لم يمضِ سوى نصف المباراة". وهذه هي المحبة غير المشروطة. إننا عندما نقبل محبة الله، ونتمتع بها، عندئذ سنرى بمزيد من الوضوح أننا محبوبون محبة غير مشروطة.

فكِّر للحظات عما حدث لك عندما آمنت بالمسيح كمخلص، وعندما قبلك الله كابن له. فقد ولدت ثانية (انظر يو ٣: ٣- ٥؛ ١بط ١: ٢٣)، وقد أصبحت وارثًا لله (انظر أف ١: ١٣، ١٤؛ رو ٨: ١٧)، وقد تبناك الله في عائلته (انظر أف ١: ٥)، وقد سكب الله حبه في قلبك (انظر رو ٥: ٥)، وقد أصبحت واحدًا في المسيح بطريقة لن تفصلك عنه أبدًا (انظر يو ١٧: ٢٣؛ غل ٢: ٢٠؛ عب ١٣: ٥)، ولن يفصلك شيء عن محبة الله (انظر رو ٨: ٣٨، ٣٩)، وستقضي الأبدية مع الله

في مكان أعده لك (انظر يو ١٤: ١٤). وقد رحب بك الله في عائلته الجديدة، وقد أصبحت عضوًا لك منزلة ومكانة في الأبدية (انظر ١كو ١٢: ١٣، ٢٧).

وفي ضوء كل ما فعله الله ليبرهن محبته غير المشروطة، ما الذي يمنعك من أن ترى نفسك محبوبًا؟ فإذا كان الله بنفسه يحبك، فيجب أن تكون محبوبًا؟ ولا بد أن تبقى حقيقة أن الله يحبك محبة غير مشروطة كما هي، بالرغم من أخطائك وفشلك، حتى يحفزك ذلك على قبول نفسك باستمرار.

وإذا لم تستطع أن تقبل نفسك كما أنت- بعيوبك وبمميزاتك، ونقاط ضعفك ونقاط قوتك، وقصورك وقدراتك- فإنك ستجد صعوبة في السماح لأي شخص أن يقبلك كما أنت. وستبني دائمًا حاجزًا لتمنع الآخرين من معرفة شخصيتك الحقيقية، وستجد صعوبة في أن تحيا حياة زائفة أكثر من أن تعيش حياتك بشفافية. حتى عندما يعني هذا أن يراك الآخرون في أسوأ حالاتك. إن أكبر الاحتياجات التي تحتاجها الكنيسة اليوم هي أن يعيش المؤمنون بوصية الكتاب المقدس. «لِذلِكَ اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا قَبِلَنَا، لِمَجْدِ اللهِ» (رو ١٥: ٧)، ولا يمكننا أن نحقق هذا الوصية إلا عندما نرى أنفسنا كما يرانا الله كمحبوبين محبة كاملة.

الحياة بداخل عائلة الله

إذا كان بوسع أحد أن يتمتع بالشعور بالانتماء، فإن هذا الشخص هو أحد أبناء الله. فأنت تنتمي لله وعائلته. كتب الرسول يوحنا يقول: «انْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ! مِنْ أَجْلِ هذَا لاَ يَعْرِفُنَا الْعَالَمُ، لأَنَّهُ لاَ يَعْرِفُهُ» (١يو ٣: ١). وبمجرد أن كتب الرسول يوحنا هذه الكلمات «أولاد الله»، لابد وأنه توقف برهة ليسمح لهذه الحقيقة أن تتغلغل في أعماقه، لأنه ختم الفكرة بتعجب. ولو كان الرسول يوحنا حيًا إلى اليوم، فربما قالها بهذه الطريقة: «يا له من أمر مدهش! فنحن حقًا أولاد الله، أنه أمر لا يُصدَّق!"

ربما يعترض بعض المؤمنين قائلين: "إننا لسنا سوى أبناء بالتبني"، وبالتالي فإن حقيقة أن الله تبنانا تولد لديهم إحساسًا بأنهم ورثة من الدرجة الثانية.

لقد تأثرت كثيرًا برأي أحد الآباء وهو «ديك داي»، صديقي العزيز، عن معنى التبني. فبعد أن أنجب «ديك» وزوجته «تشارلوت» خمسة أطفال، ذهبا إلى كوريا، وهناك تبنا طفلاً يُسمى «چيمي». ويقول «ديك»: "هذا الطفل الصغير، چيمي، هو ابني. وله نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها أبنائي الخمسة الآخرين، وبوسعه أن يستمتع بميراثنا ووقتنا ومحبتنا". لذلك زادت عبارة «ديك» من تقديري للمكانة التي ننعم بها في عائلة الله. فالله قد تبنانا، لكنه أعلن لنا «فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ الله وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ» (رو ٨: ١٧). وهذا يعني أننا نتشارك بالتساوي في ميراث المسيح، والله يرانا كما يرى صديقي «ديك» ابنه بالتبني- «چيمي».

هل سطعت لك هذه الحقيقة بقوة؟ هل تفوهت بشيء متعجبًا: "أنا حقًا ابن لله! وأنتمي لعائلته بالفعل؟" هذه الحقيقة الكتابية هي مفتاح تغيير مفهومك عن هُويتك ونظرتك لنفسك.

لم تعد جزيرة منعزلة

من الواضح أن الله الآب يعرف أننا سنصارع في وقت ما ليس فقط مع إدراك حقيقة أننا محبوبون عنده وعند الآخرين، بل مع الشعور بالانتماء أيضًا. لذلك أعد في خطته وسيلة لتقديم الدعم والمساندة عن طريق تأسيس الكنيسة بصفتها مكان يقدِّم الحب والقبول باستمرار ويتيح فرصة للمؤمنين أن يختبروا هذا فيها. وقد أعطانا الله الكنيسة بصفتها تعبير ملموس للحقيقة الأزلية بأننا منتمون إليه. إن حياة الشركة والتفاعل مع المؤمنين أمر أساسي في عملية تغيير مفهومك عن هُويتك ونظرتك لنفسك.

أعلن الرب يسوع أثناء استعداده للموت والعودة إلى السماء: «صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ، وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا» (يو ١٤: ١١). يُذكَر في هذه الآية اتحاد بين أقنومين هما: الله الآب والله الابن. ثم تحدث يسوع بعد آيات قليلة في الإصحاح نفسه عن إرسال الله لأقنوم ثالث هو الروح القدس. وقال السيد المسيح: «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ (ربما كان يشير إلى يوم الخمسين وتأسيس الكنيسة)

تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ» (يو ١٤: ٢٠).

ماذا كان يقصد الرب يسوع عندما قال: «أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ»؟ عندما آمنت بالمسيح كمخلص وسيد لحياتك، أصبحتَ فِي المسيح، وسكن المسيح في حياتك، وحيث إن الرب يسوع والله الآب في اتحاد، فأنت أيضًا في الآب وهو فيك. هل لا تزال تتحدث عن الشعور بالانتماء!

"أسس الله الكنيسة بصفتها مكان يقدم الحب والقبول باستمرار يتيح فرصة للمؤمنين."

لكن الأكثر من ذلك، إذا كان الله الآب فيك، وإذا كنا أنا وأنت في الآب، فبالتالي نكون أنا وأنت في علاقة خاصة وحميمة جدًا. وربما أستطيع أن أقول إنه بسبب العلاقة الحميمة المتبادلة مع الله، أصبحت أنا فيك وأنت فيَّ. وبصفتك أحد المؤمنين لم تعد بعد جزيرة منعزلة، ولكنك أصبحت شبه جزيرة، وأنا أيضًا كذلك. ونحن مشتركون في جسد المسيح تمامًا، وهكذا نحن في شركة حية مع بعضنا البعض. ويمثل كلانا اثنين من الأعضاء الحية المذكورة في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: «لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ،... وجميعنا سقينا روحًا واحدًا... لكِنَّ اللهَ مَزَجَ الْجَسَدَ، مُعْطِيًا النَّاقِصَ كَرَامَةً أَفْضَلَ، لِكَيْ لاَ يَكُونَ انْشِقَاقٌ فِي الْجَسَدِ، بَلْ تَهْتَمُّ الأَعْضَاءُ اهْتِمَامًا وَاحِدًا بَعْضُهَا لِبَعْضٍ. فَإِنْ كَانَ عُضْوٌ وَاحِدٌ يَتَأَلَّمُ، فَجَمِيعُ الأَعْضَاءِ تَتَأَلَّمُ مَعَهُ. وَإِنْ كَانَ عُضْوٌ وَاحِدٌ يُكَرَّمُ، فَجَمِيعُ الأَعْضَاءِ تَفْرَحُ مَعَهُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجَسَدُ الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَادًا» (١كو ١٢: ١٣، ٢٤- ٢٧).

لاحظ ما اختتم به الرسول بولس كلامه عن علاقتنا الحية، حيث لا يوجد انشقاق بيننا، وكيف يجب أن يكون لنا اهتمام مشترك من أجل بعضنا البعض. وهذا يعني أنه طالما أن الله يراك محبوبًا يجب عليَّ أن أبذل كل ما في وسعي لكي أؤكد لك أنك محبوب. وهذا هو مفهوم الكنيسة، وهذا يعني أنه من المهم أن يكون لك مكان في حياة الشركة المستمرة مع جماعة المؤمنين. إننا لا نستطيع أن نظهر اهتمامًا متساويًا بعضنا نحو البعض إذا لم نسير جميعنا على النهج نفسه.

بطريقة ما يلعب كل مؤمن الدور المزدوج الذي قام به كابتن «بريس» مع «روي ريجليز» في الكنيسة. فعندما تتلعثم أو تفشل، يذكرك شخص ما في كنيستك أو مجموعة دراسة الكتاب المقدس أنك محبوب ومقبول بغض النظر عن أخطائك. وعندما يسير شخص ما في مجموعتك في الاتجاه الخاطئ، ويشعر بالخزي، تقترب أنت منه مثل كابتن «بريس» وتقدِّم له كلمات التشجيع. وهذا الاهتمام المتبادل هو تعبير عملي عن وصية الرسول بولس: «لِذلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَابْنُوا أَحَدُكُمُ الآخَرَ، كَمَا تَفْعَلُونَ أَيْضًا» (١تس ٥: ١١).

ما هي النتيجة النهائية لمثل هذا الاهتمام القلبي المتبادل؟ أولاً: لا يفهم الحب والقبول بمعناهما الكتابي فحسب، بل نختبرهما بالفعل، وهذه هي الطريقة التي من خلالها يمسك الحب بأعماق القلب. ثانيًا: يكتسب المؤمنون رؤية أوضح للصورة التي يراهم بها الله لأنهم أدوات للتعضيد وللتشجيع. فكِّر في الآتي: إذا استمر المؤمنون القريبون منك في تذكيرك بأنهم يحبونك وأن الله يحبك، فإنك على الأرجح ستتأكد أنك محبوب. ثالثًا: إن التأكيد المستمر على أنك تستحق الحب والقبول يساعد في معالجة الجروح التي حدثت لك في الماضي. وعندما تبدأ في أن تحب الناس كما يحبهم الله، يمكنك أن تعالج التجارب المؤلمة التي اجتزت فيها في الماضي نتيجة عدم محبة بعض الناس لك.

استخدم صديق لي رسالة مشفرة مع أبنائه بينما يكبرون عامًا بعد العام. حيث كان في كل مرة يوقع على كارت عيد ميلاد، أو يترك لهم رسالة، أو يرسل لهم بطاقة بريدية أثناء سفره، كان يضيف خمسة حروف هي: «ي، ي، و، أ، أ». وأحيانًا عندما يكون مع أبنائه وحوله أناس آخرون، يقول هذه الحروف التي تحمل الرسالة المعروفة لهم جيدًا كما لو أنها سرهم الخاص. وكانت هذه الحروف اختصارًا لجملة: "يسوع يحبك وأنا أيضًا". وفي كل مرة يرى أو يسمع الأبناء هذه الحروف، كانوا يتذكرون أن محبة والدهم لهم مرتبطة بمحبة الله.

وهذه هي الطريقة التي تبدأ بها تغيير نظرتك المشوهة لنفسك وهُويتك إلى الصورة الرائعة التي رسمها لك الله. ازرع نفسك بين مجموعة من المؤمنين المحبين، واترك محبة الله غير المشروطة تلمسك من خلالهم.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل في الحقائق الآتية عن الله، ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله محب. نقرأ في إنجيل مرقس: «فَاحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ» (مر ١٠: ١٦).

- ماذا يعني لك أن الله يريد أن يحتضنك ويباركك؟

- ماذا يعني لك أن الله المحب يراك محبوبًا؟

(٢) الرب هو حاميك. نقرأ في سفر التثنية: «الإِلهُ الْقَدِيمُ مَلْجَأٌ، وَالأَذْرُعُ الأَبَدِيَّةُ مِنْ تَحْتُ» (تث ٣٣: ٢٧).

- ماذا يعني لك أن الأذرع الأبدية من تحتك وتحيط بك؟

- ماذا يعني لك أن الله يحميك لأنه يحبك؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: «أنت الرجل المحبوب لي». نقرأ في دانيال ١٠: ١٩ «لاَ تَخَفْ أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَحْبُوبُ».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "إن الله يحبني محبة عميقة. ونتيجة لذلك ليس عليَّ أن أخاف أو أشعر بعدم الأمان. أستطيع الآن أن أرى نفسي محبوبًا لأن الله يحبني".

- ماذا يعني لك أن الله يحبك محبة عميقة وأبدية؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يحيطك بمحبته الثابتة والدائمة؟

(٢) يقول الله: "أنت تنتمي لي. أنت لي". نقرأ في إشعياء ٤٣: ١ «دَعَوْتُكَ

بِاسْمِكَ. أَنْتَ لِي».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "إن الله خالق هذا الكون دعاني باسمي. وأخبرني أنني أنتمي إليه".

- ماذا يعني لك أنك تنتمي لله؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يدعوك باسمك ويعطيك فرصة لتنتمي إليه؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وفي نظرتك لنفسك.

الفصل الحادي عشر

شعور جديد بالقيمة

منذ عدة قرون مضت، نُفي معلم بروتستانتي يُدعى «مورينا» إلى مدينة «لومبارديا» بإيطاليا. أصيب «مورينا» بمرض خطير بسبب الفقر الذي كان يعيش فيه، ونُقل لمستشفى للفقراء، وتحدث الأطباء باللغة اللاتينية بجانب سرير «مورينا» فيما بينهم معتقدين أن هذا المريض البائس غير متعلم. وقالوا: "على أية حال سيموت هذا المخلوق الذي بلا قيمة، لذلك دعونا نجري عليه تجارب".

وكان «مورينا» يعرف بالطبع اللغة اللاتينية مثل لغته الأم تقريبًا؛ فاستجمع «مورينا» قوته، وقام من على سريره قائلاً للأطباء المندهشين: كيف تجرأون أن تدعو شخصًا قد مات يسوع عوضًا عنه بأنه "بلا قيمة"؟

تحدد قيمة الشخص في مجتمعنا من خلال عدة طرق. على سبيل المثال، قد يعتبر فريق كرة السلة أن لاعبًا ما يستحق عشرات الملايين من الدولارات. وقد يكتشف جندي في المعركة أنه يستحق حياة إنسان آخر عندما يتلقى زميل له رصاصة بدلاً عنه لينقذ حياته. وقد ترى أرملة أنها تستحق وقت ومجهود مجموعة من المتطوعين قضوا أيامًا في تصليح منزلها المتهدم وطلائه.

لقد استوعب «مورينا» بوضوح أننا نستمد قيمتنا الأساسية من حقيقة أن الله الآب قد سمح ليسوع المسيح ابنه البار بأن يموت عن خطايانا. وقد لاحظ الرسول بطرس أن كنوز الدنيا لا تقارن بمثل هذه التضحية: «عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ،

بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ» (١بط ١: ١٨، ١٩).

وقد أعلن الرب يسوع عظمة أن يبذل أحد حياته لأجل الآخرين عندما قال: «لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ» (يو ١٥: ١٣). وقد تناول الرسول بولس هذه الفكرة بالتفصيل في وصفه للذبيحة الكفارية للمسيح: «فَإِنَّهُ بِالْجَهْدِ يَمُوتُ أَحَدٌ لأَجْلِ بَارّ. رُبَّمَا لأَجْلِ الصَّالِحِ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَيْضًا أَنْ يَمُوتَ. وَلكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا» (رو ٥: ٧، ٨).

نحن نستحق- في تقدير الله- موت ابنه عنّا. لم نكن نمتلك شيئًا يجذب الله إلينا أو يحثه على إرسال ابنه ليموت عنّا. لم نكن أبرارًا أو صالحين، بل كنا في خطايانا، وكنا في تناقض تام مع سمات الخروف الذبيح الكامل، لكن الله كان يرانا محبوبين، وقد ارتفعت قيمتنا ارتفاعًا فلكيًا عندما دفع الرب يسوع حياته لأجلنا. وليس من المهم مقدار قيمتك من وجهة نظر الآخرين حسب المفاهيم الأرضية، فقيمتك الأبدية لا تُقدر بثمن بسبب الفدية التي دفعها الله الآب بمحبته من أجلك.

حتى لو كنت الشخص الوحيد على الأرض

من السهل أحيانًا أن يشعر المؤمنون الذين يعيشون بمفردهم أنهم ضائعون في وسط الجماهير الغفيرة. وقد نقول: "من المؤكد أن الرب يسوع قد مات عن خطاياي، لكنه لم يمت لأجلي أنا وحدي، بل لأجل العالم أجمع، فأنا واحد من بين ملايين الملايين من الذين نالوا هبة الله بالغفران في خلاصه من خلال خطة تشمل البشرية كلها".

إن حقيقة أنك لست إلا مؤمنًا واحدًا من الذين افتداهم الله من الملايين لا تقلل على الإطلاق من قيمتك الشخصية عند الله. إذا كنت أنت وأسرتك البشر الوحيدين على الأرض، فهل تؤمن أن المسيح كان سيموت من أجلكم؟ بكل تأكيد، كان سيفعل الله ذلك. فقد تعهد الله بأن يفدي الجنس البشري الذي سقط عندما لم يكن على الأرض إلا اثنين فقط من البشر. فبعد ما أخطأ آدم وحواء، وعد

الله أنه سيسحق رأس الحية، مشيرًا إلى انتصار المسيح على الخطية في الصليب (انظر تك ٣: ١٥). لو كنت في جنة عدن بدلاً من آدم وحواء، كنت ستعصي أنت أيضًا الله، وبالتالي كان الوعد سيصير لك.

لذلك يجب أن تكتسب رؤية جديدة لقيمتك في نظر الله حتى تغيِّر نظرتك لنفسك لتتوافق مع رؤية الله لك. وحيث إنك تنتمي لله وعائلته، فأنت تستحق أن تتمتع «بِنِعْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ» (١بط ٤: ١٠)، إننا عادة ما نغفل هذه الصورة عندما نتكلم عن عمل المسيح في الجلجثة. فإذا سألت عن مضمون الجلجثة وهدفها، فإن أي أحد سيجيبك كالآتي: "الخطية والغفران". لكن علينا أن نتعمق أكثر من ذلك. لماذا تعامل الله مع خطايانا وقدم الغفران في الجلجثة؟ لأنه يحبنا، وكانت الطريقة الوحيدة التي ننتمي بها لأسرته هي أن يموت المسيح عن خطايانا. ولأنه يحبنا، فنحن نستحق موت ابنه عوضًا عنا. عندما تدرك قيمتك عند الله بشكل أكثر وضوحًا، سيؤثر ذلك في حياتك وتعاملك مع الآخرين.

مرة أخرى، ليس كافيًا أن تعرف قيمتك عند الله؛ فهذه الحقيقة لابد أيضًا أن تستحوذ على قلبك إلى الدرجة التي تشعر عندها بقيمتك الحقيقية. وأتمنى أن يفتح هذا الفصل عقلك وقلبك لتدرك قيمتك عند الله.

أنت تستحق اهتمام الله

عندما كنت طفلاً، مَنْ نزل على الأرض ولعب معك لعبة المكعبات أو العرائس أو العساكر؟ مَنْ من الكبار في حياتك تركوا أشغالهم أو مسئولياتهم مرات كثيرة، ودخلوا عالمك، عالم العرائس والألعاب والخيال؟ أتمنى أن يكون الكثيرون قد فعل ذلك معك؛ مثل والديك وأجدادك وعماتك وأعمامك وخالتك وإخوتك وأخواتك أو أولاد عمك أو عماتك الأكبر منك أو أصدقاء الأسرة. لأن حاجة الطفل للشعور بالاهتمام تُشبع عندما يترك الكبار المحبون عالم الكبار لفترة من الوقت ويدخلون عالمه الصغير.

ومن المحزن، أن كثيرين من الأطفال يكبرون دون أن تُشبع هذه الحاجة لديهم خاصة من قِبل والديهم. فعادة ما يكون الأب مشغولاً جدًا عن الاهتمام

بعالم طفله والدخول فيه. أو قد يقضي الأب أو الأم وقتًا مع طفلهما بدعوته إلى عالمهما عالم الكبار. على سبيل المثال، قد يعتبر أحد الآباء أنها ميزة أن يجلس بجواره ابنه البالغ من العمر ثلاث سنوات، الذي لا يهتم بالرياضة كثيرًا، بينما يشاهد هو مباراة بيسبول في التليفزيون. أمّا الأطفال الذين يكبرون دون أن يشعروا بالاهتمام، فيرون أنفسهم لا يستحقون أن يوفر لهم الكبار الوقت أو يدخلوا معهم في عالمهم.

قد تكون كبرت في بيت لم تتلقَ فيه إلا القليل من الاهتمام الحقيقي من الكبار الذين كان لابد أن يحبوك بتلك الطريقة. ونتيجة لذلك، قد تتشكك في قيمتك عند الله والآخرين. بمعنى آخر، قد تحمل صورتك الداخلية لافتة مكتوب عليها «تخفيضات هائلة». وقد ترى نفسك إنسانًا من الدرجة الثانية؛ لأن المؤثرين في حياتك فشلوا في إشباع احتياجك للاهتمام.

لكن اسمح لقلبك أن تستحوذ عليه حقيقة قيمتك عند الله الذي يشبع حاجتك للاهتمام بكل ما في الكلمة من معنى. فقد ترك الله عالمه في السماء، وظهر متجسدًا في شخص الرب يسوع المسيح، ودخل عالمك، أرض الخطية؛ ليعلن جدارتك بأن تكون موضع حبه. يقول الرسول بولس: «فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ» (في ٢: ٥- ٨).

فضلاً عن ذلك، فإن الله يقدِّرك ويعتز بك جدًا حتى أنه أراد أن يكون معك كل الأيام في شخص الروح القدس (انظر يو ١٤: ١٦؛ مت ٢٨: ٢٠). وهو يعرف كل تفاصيل حياتك قبل أن تولد (انظر مز ١٣٩: ١٣- ١٦). وهو حريص جدًا أن يتعامل مع المشكلات التي تزعجك يوميًا، ويدعوك قائلاً: «مُلْقِينَ كُلَّ هَمِّكُمْ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ هُوَ يَعْتَنِي بِكُمْ» (١بط ٥: ٧). وهو يتدخل بعمق في وجودك على هذه الأرض لحظة بلحظة لأنه معك هنا: ولا عجب في أن أحد أسماء الله هي «عِمَّانُوئِيلَ» أي «اَللهُ مَعَنَا» (مت ١: ٢٣).

ما هي المشاعر التي تتحرك بداخلك عندما تفكِّر في أن المسيح قد ترك مجد السماء لكي يسدد احتياجاتك العميقة؟ إلى أي مدى تشعر بالقيمة عندما تعرف أن الله يحمل في جسده الممجد إلى الأبد آثار عملية فداءك، آثار تذكرك دائمًا أنه أحبك جدًا لذلك دخل عالمك؟ إذا سمحت لهذه الحقيقة أن تغمر عقلك وقلبك، ستختبر تغييراً جوهريًا في نظرتك لنفسك.

مرة أخرى، يلعب جسد المسيح، الكنيسة، دورًا لا غنى عنه في عملية التغيير. هل اشتركت بعمق مع مجموعة صغيرة من المؤمنين الذين يعكسون نظرة الله لك وقيمتك عنده؟ هل تتمتع بمحبة عدد معقول من المؤمنين الذين اهتموا بالدخول في عالمك والاهتمام بعملك ونموك الروحي وصراعاتك وحتى هواياتك واهتماماتك؟ وبالمثل هل تحاول أن تظهر تقديرك لإخوتك المؤمنين وقيمتهم مثلما يفعل الله معك؟ هل تتمثل بالله وتحاول أن تترك أنت أيضًا عالمك عند الضرورة لتظهر أنك تحب إخوتك المؤمنين وتقدرهم وتعطى لهم قيمة؟ إن تنمية مناخ يدعم القيمة الإنسانية ويحافظ عليها في العلاقات البشرية يمنحنا صورة أوضح عن رؤية الله لنا.

أنت تستحق غفران الله

هل تجد صعوبة في أن تصدق أن الله يغفر لك خطاياك باستمرار وبشكل يومي؟ نتفق جميعًا مع التعليم المسيحي الذي يقول إننا نخطئ بالفكر وبالكلام وبالفعل كل يوم. ولكن هل نتفق أيضًا أنه «إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ» (١يو ١: ٩)، حتى وإن أخطأنا كل يوم؟ إذا كنت تجد صعوبة في أن تقبل غفران الله غير المحدود، فأنت تعاني من مشكلة في شعورك بقيمتك في نظر الله. وذلك لأنك وضعت حدًا اعتباطيًا لقيمتك في نظر الله. وبالتالي أنت غير قادر أن ترى نفسك تستحق غفران الله لك. وهذه النظرة تتولد على الأرجح من حقيقة أنك لم تجد مَنْ يغفر لك أخطاءك في طفولتك.

يقول كاتب رسالة العبرانيين: «وَأَمَّا هذَا فَبَعْدَمَا قَدَّمَ عَنِ الْخَطَايَا ذَبِيحَةً

وَاحِدَةً، جَلَسَ إِلَى الأَبَدِ عَنْ يَمِينِ الله» (عب ١٠: ١٢)، ونرى في رسالة بولس الرسول إلى كولوسي، نتائج هذه الذبيحة الوحيدة التي كانت بدلاً عن الجميع لغفران الخطية: «مُسَامحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا، إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ» (كو ٢: ١٣، ١٤). ارتكب الملك داود خطيتي الزنا والقتل، ومع ذلك استطاع أن يقول: «أَعْتَرِفُ لَكَ بِخَطِيَّتِي وَلاَ أَكْتُمُ إِثْمِي. قُلْتُ: «أَعْتَرِفُ لِلرَّبِّ بِذَنْبِي» وَأَنْتَ رَفَعْتَ أَثَامَ خَطِيَّتِي» (مز ٣٢: ٥). ويا لها من حرية عندما نرى أنفسنا كما يرانا الله مسامحًا إيانا على جميع خطايانا الماضية والحاضرة والمستقبلية.

ومع ذلك، يعتقد بعض المؤمنين أن خطاياهم أكثر وأعظم من أن تغفر. ومع أنهم يؤمنون أن الله يغفر الخطايا، لكنهم يفترضون بشكل خاطئ أنهم تجاوزوا مقدار الغفران المسموح به لهم من قبل الله.

عبرت فتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وسوف أطلق عليها اسم «ساندي»، عن حالتها المحزنة في خطاب تقول:

"أكتب إليك يا «چوش» لأني وحيدة ومضطربة. فقد مارست الجنس مع صديقي معتقدة أنه سيتزوجني. وعلمت منذ أربعة شهور أنني حامل. «چيف» صديقي تركني ولا يزال والديّ لا يعلمان شيئًا. آمنت بالمسيح منذ شهر، لكني أشعر بالذنب جدًا. كيف يحبني الله بعد ما فعلته؟ أشعر بأنني لا أستحق الحياة أكثر من ذلك. أنا أبكي كل يوم حتى أنام، وأحيانًا أتمنى الموت. لست منسجمة في علاقتي مع والديّ. فهم ملتزمون كمؤمنين طوال حياتهم، ولن يتفهموا ما أمر به حاليًا. أنا مضطربة جدًا. هل يمكن أن يحبني الله حقًا ويغفر لي؟ من فضلك اكتب لي ما تريد أن تنصحني به".

لم تدرك «ساندي» قيمتها الكبيرة عند الله. فعندما ترك الرب يسوع السماء، ومات من أجل خطاياها، دفع ثمن جميع خطاياها بما في ذلك العلاقة الجنسية غير اللائقة التي تركتها مكتئبة وبطفل في أحشائها. لكن «ساندي» لا تزال تعتقد أن خطيتها كبيرة جدًا مثل الشيك الذي رفض الصراف صرفه بسبب عدم وجود

رصيد كافٍ في الحساب يسمح بصرف الشيك.

وهي تحتاج أن ترى أنها لا تستطيع أن تستنفذ رصيدها من غفران الله. فلا يوجد أي حدود لغفران الله. فكل خطية نعترف بها، يغفرها لنا. وهذا ما قلته لساندي في ردي عليها.

تعد حياة الملك منسى وهو واحد من أشر ملوك يهوذا مثلاً واضحًا لمدى الغفران الذي يقدِّمه الله. أدار منسى الملك ظهره لله وعبد آلهه غريبة، وقاد شعب يهوذا إلى عبادة الأصنام (انظر ٢أخ ٣٣: ١- ٩). وإذا كانت «ساندي» تعتقد أنه يستحيل على الله أن يغفر لها، فعليها أن تصدِّق أولاً أن الله لم يكن يستطيع أن يغفر لمنسى لأنه كان شريرًا جدًا.

ومع ذلك عندما استولى الأشوريون على مدينة يهوذا وعلى ملكها منسى إذ يقول الكتاب: «وَلَمَّا تَضَايَقَ طَلَبَ وَجْهَ الرَّبِّ إلهه، وَتَوَاضَعَ جِدًّا أَمَامَ إله آبَائه، وَصَلَّى إِلَيْه فَاسْتَجَابَ لَهُ وَسَمِعَ تَضَرُّعَهُ، وَرَدَّهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ إِلَى مَمْلَكَتِه. فَعَلِمَ مَنَسَّى أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللهُ» (٢أخ ٣٣: ١٢، ١٣). فبالرغم من الماضي الشرير لمنسى، سامحه الله من أجل رحمته. وأنا أؤمن أن الملك منسى- بعد أن غفر له الله- عاد إلى وطنه وهو قادر أن يرى نفسه بصورة أوضح كما يراه الله مستحقًا لنعمة الغفران التي نالها.

يرى العديد من المؤمنين أمثال «ساندي» أنفسهم كغير مستحقين لغفران الله. لكن المهم كيف يراهم الله؟ كتب الملك داود الذي لم يعتبر نفسه بعيدًا عن الغفران قائلاً: «لَمْ يَصْنَعْ مَعَنَا حَسَبَ خَطَايَانَا، وَلَمْ يُجَازِنَا حَسَبَ آثامنَا. لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيه. كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا» (مز ١٠٣: ١٠- ١٢). فقد رأى الملك داود في ظل خطيته وندمه غفران الله غير المحدود، الأمر الذي غرس بداخله الشعور بالاستحقاق.

تحرر من الفخ!

يتمثل الجانب الآخر المثير فيما يتعلق بغفران الله في أننا نملك الحرية في أن نغفر لأنفسنا. يقبل الكثير من المؤمنين الذين أتحدث إليهم غفران الله، ولكنهم لا يستطيعون أن يغفروا لأنفسهم. وهم يقسون على أنفسهم أكثر مما يقسو الله عليهم! فإذا كان الله يعطينا قيمة حتى أنه دفع ثمن خطايانا وسامحنا، فمَنْ نحن حتى نقول إننا لا نستحق الغفران؟ إن تغيير نظرتنا لهُويتنا ولأنفسنا تعني التحرر من هذا الفخ وقبول غفران الله لنا.

منذ عدة سنوات بينما كنت أتناول الطعام في أحد المطاعم مع بعض الأصدقاء، قلت شيئًا لم يكن من اللائق أن أقوله أبدًا. وقد جرحت أخي في الإيمان جُرحًا عميقًا بقولي هذا. وفي طريقنا إلى المنزل، أدركت تأثير ما قلته بجنون وفي غير محله. وعلى الفور عدت إلى المطعم لأصحح ما فعلته، واعترفت لصديقي أن ما فعلته خطية وطلبت منه المغفرة. فنظر إليَّ في حزم وثبات، وقال: "لن أغفر لك، ما كان لشخص في مكانتك أن يقول ذلك".

وبعد أن صدمتني إجابته المفاجئة، قلت له: "أعرف أنه ما كان لي أن أقول ذلك أبدًا، لذلك أطلب مغفرتك". وفعلت كل ما أستطيع حتى أصحح الأمر، لكن أخي أصر على ألا يسامحني.

عدت إلى البيت محبطًا ومضطربًا، وبدأت أتصارع مع نفسي روحيًا وعاطفيًا بسبب هذا الموقف. وبدأت أوبخ نفسي وأشعر بالذنب الشديد. كيف قلت ذلك يا «چوش»؟ وهذا الشعور بالذنب جعلني أدين نفسي بشدة. كيف تعمل في مجال الخدمة المسيحية وتجرح أخًا لك بهذا الشكل؟ كيف يستخدمك الله في الخدمة وأنت تتحدث إلى الآخرين بهذه الطريقة؟ كنت في حالة مذرية تحت وطأة شعوري بالذنب.

ثم بدأ الروح القدس يعمل في تفكيري. وأعدت كل الموقف مرة أخرى في عقلي بما في ذلك ما فعلت. وفي ضوء كلمة الله وعلاقتي بالسيد المسيح، فكرت

كالتالي: "چوش أنت لا تعالج هذا الموقف بشكل صحيح. يمكن أن يكون رد فعلك أحد هَذين البديلين: البديل الأول، أن تستمر في الشعور بالآسف على نفسك وتتمرغ في شعورك بالذنب وتركز على زلتك وخطيتك. والبديل الثاني، أن تدرك أن الرب يسوع مات لأجلك ومن أجل جميع خطاياك بما فيهم هذا الموقف، وتعترف بخطيتك لله وتقبل غفرانه لك، وتبذل كل ما في وسعك حتى تصحح الأمر مع أخيك. وعندما تفعل كل ما تستطيع فعله، سامح نفسك، وأرفع رأسك، وافرد كتفيك، واستمر في مسيرة الإيمان".

وبعد الصراع لفترة قصيرة مع هذين البديلين اخترت أن أعترف بغفران الله وأسامح نفسي وأستمر في السير بالإيمان وعمل كل ما أستطيع فعله حتى أعالج علاقتي مع أخي المجروح الذي لا يستطيع أن يسامحني.

"إذا اخترت أن لا تسامح نفسك فلن يمكنك أن ترى نفسك كما يراك الله."

في هذه اللحظة أدركت بعمق أن مسامحة نفسي لا تعتمد على غفران أخي المتضرر بسببي، حتى إذا توقع الله مني أن أبذل ما في وسعي لأستعيد العلاقة، (انظر مت ٥: ٢٣، ٢٤). وهكذا بدأت من هذه النقطة وخلال عدة شهور كانت العلاقة تتغيَّر نحو الأفضل. وبعد عام من هذا الموقف، لاحظت أن صداقتنا رجعت كالسابق، ويبدو أن شعوره العميق بالجرح قد تلاشى، وكل الدلائل تقول إنه سامحني. وأعتقد أن علاقتنا أصبحت أفضل من ذي قبل.

يعد السعي نحو الغفران عنصرًا حيويًا لجميع مظاهر الصحة والنمو الشخصي. قال أحد مديري مستشفيات الأمراض النفسية في حلقة دراسية بالجامعة أن نصف المرضى الذين يعالجهم يمكن أن يعودوا إلى بيتهم إذا عرفوا أن خطاياهم قد غفرت. لأنك إذا اخترت أن لا تسامح نفسك فلن يمكنك أن ترى نفسك كما يراك الله. من الطبيعي أن تتضايق بسبب خطاياك، لكن لا تسمح بهذه المشاعر السلبية أن تحجب نور حقيقة غفران الله.

مرة أخرى أقول إن شركة الجسد الواحد مع مؤمنين آخرين محبين سيساعدك

أن ترى نفسك بصورة أكثر وضوحًا. فالغفران هو السمة المميزة للعلاقات بين المؤمنين. ويعلمنا الرسول بولس: «وَكُونُوا لُطَفَاءَ بَعْضُكُمْ نَحْوَ بَعْضٍ، شَفُوقِينَ مُتَسَامِحِينَ كَمَا سَامَحَكُمُ اللهُ أَيْضًا فِي الْمَسِيحِ» (أف ٤: ٣٢). إن اختبار عملية الغفران بين المؤمنين من إسبوع لآخر بعضهم نحو بعض وطلب المغفرة فيما بينهم سيُظهر غفران الله بشكل واضح.

نحن نلعب دورًا أساسيًا بصفتنا كهنة ملوكيين في جسد المسيح (انظر ١بط ٢: ٩) في مساعدة بعضنا البعض لكي نرى أنفسنا كما يرانا الله وقد غُفرت خطايانا. وينصحنا الرسول يعقوب قائلاً: «اعْتَرِفُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ بِالزَّلاَتِ، وَصَلُّوا بَعْضُكُمْ لأَجْلِ بَعْضٍ، لِكَيْ تُشْفَوْا. طَلِبَةُ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا» (يع ٥: ١٦). نحن لا نؤمن أن الإنسان يمكنه أن يغفر لإنسان آخر خطيته، فالله وحده هو الذي يغفر الخطايا. لكن عندما نعترف بخطايانا بعضنا لبعض ونصلي لأجل بعضنا البعض، نحن بذلك نؤكد على غفران الله لنا. ويجب أن تكون الكلمة الأخيرة عندما يجتمع المؤمنون معًا ليتحدثوا عن خطاياهم كالآتي: "أنت قد اعترفت بخطيتك، ونحن صلينا لأجلك، والله قد غفرها لك. اذهب بسلام. مغفورة لك خطاياك!" مثل هذه الخدمة المسيحية هي الطريق المباشر نحو رؤية كاملة لما يتعلق بقيمتنا عند الله.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقة

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله، ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله قدوس. نقرأ في مزمور٢٢: ٣ «وَأَنْتَ الْقُدُّوسُ الْجَالِسُ بَيْنَ تَسْبِيحَاتِ إِسْرَائِيلَ».

- ماذا يعني لك أن الله قدوس؟

- ماذا يعني لك أن الله القدوس يراك ذا قيمة؟

(٢) الرب صالح. نقرأ في مزمور ١١٩: ٦٨ «صَالِحٌ أَنْتَ وَمُحْسِنٌ. عَلِّمْنِي فَرَائِضَكَ».

- ماذا يعني لك أن الله صالح تمامًا ولا يفعل أي شيء خاطئ؟

- ماذا يعني لك أن الله الصالح يعلن أنك ذو قيمة عظيمة؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: «أنت ذو قيمة». نقرأ في ١كورنثوس ٦: ١٩، ٢٠ «أَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟ لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "أنا لي قيمة عند الله حتى أنه اشتراني بثمن غالٍ".

- ماذا يعني لك أن الله يحبك محبة عظيمة حتى أنه دفع فيك ثمنًا غاليًا- ليس لشيء قد عملته، لكن لأنه يراك ذا قيمة؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك لأنه سلَّم حياة ابنه الغالي ليظهر كم تتمتع بالقيمة في نظره؟

(٢) يقول الله: «أنت عضو في جسد المسيح». نقرأ في ١كورنثوس ١٢: ٢٧ «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجَسَدُ الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَادًا».

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: «أنا عضو فعّال وضروري ومهم في جسد المسيح- المسيح نفسه».

- ماذا يعني لك أنك مهم بالنسبة لله؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يقربك إليه ويجعلك عضوًا في جسده؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وفي نظرتك لنفسك وهُويتك.

الفصل الثاني عشر

شعور جديد بالكفاءة

كان «رون» أكبر الرعاة في إحدى الكنائس التي تنمو بشكل كبير، إذ يصل عدد أعضائها حتى الآن ألف وخمسمائة عضو. وهو يقود فريق من العمل متخم بالمهام، ويشرف على مجلس إدارة كبير، كما يعظ ثلاث خدمات روحية في صباح يوم الأحد.

ولكن «رون» هو أب مخلص لعائلته أيضًا. ففي بداية حياته الأسرية، قرر «رون» وزوجته أن يعطوا أولوية وقتهم لمساعدة أبنائهم على التفوق في مجال واحد على الأقل بما يناسب اهتماماتهم الشخصية. فقد أرادا أن يعدا أبناءهما للنجاح في الحياة بتزويدهم بالإحساس بالكفاءة والثقة في أنفسهم.

كان «رون» و«چوري» زوجته يهويان رياضة التنس، لذلك لم تكن مفأجاة أن يُظهر ثلاثة من أبنائهم الأربعة اهتمامًا مبكرًا بهذه الرياضة، وقد أظهروا أيضًا مهارة فيها. وهو ما جعل الأسرة تلتحق بنادي رياضي حتى يُتاح للأبناء أن يتعلموا دروس التنس ويشتركوا في المسابقات التي تقام كل عام. وهكذا احتل «تيد» و«ديڤيد» و«چويل» الأبناء الثلاثة أعلى المراكز على مستوى الدولة كل حسب مرحلته العمرية. وقد حضر «رون» و«چوري» العديد من المباريات والمسابقات على قدر استطاعتهما، وكانا أحيانًا يسافران إلى مدينة أخرى حتى يشجعا أبناءهما في إحدى مسابقات التنس للناشئين.

لكن لم يكن ابنهما الثالث «لوك» مهتمًا بالتنس مثل إخوته، وكان يحب

الفروسية، وكان «رون» و«چوري» أكثر المشجعين له. ففي عيد ميلاده الحادي عشر، اشترا له حصانًا كهدية في عيد ميلاده. ولم يصدِّق «لوك» من شدة فرحته بالهدية. وادخر «لوك» من مصروفه واشترى حصانًا آخر. والآن يمتلك «لوك»، وهو في سن السادسة عشر، خمسة أحصنة بعد أن عمل على تربيتهم والاعتناء بهم. وأخذ «رون» و«چوري» على عاتقهما أن ينميا شعور «لوك» بالكفاءة، فباعا منزلهما وانتقلت الأسرة بكاملها إلى مكان ريفي حتى يستطيع «لوك» أن يحتفظ بخيوله التي يحبها.

استمر الأطفال الأربعة في استمتاعهم بالألعاب التي اختاروها وتميزوا فيها؛ لأن والديهم ساندوهم بكل حب وتضحية. وكبر الأبناء ووصلوا مرحلة المراهقة وهم يتمتعون بنظرة إيجابية عن أنفسهم، ويتمتعون بالحب والقيمة والكفاءة. كذلك ينتوي «رون» و«چوري» أن يتبعا الخطوات نفسها مع أربعة أبناء آخرين قاما بتبنيهم لينضموا إلى عائلتهما.

هل كان في والديك شيئًا من هذين الزوجين؟ هل شجعاك في طفولتك، وشجعا اهتماماتك للدرجة التي ترى نفسك اليوم تتمتع بالمهارة وبالكفاءة في عدد من مجالات حياتك؟ أم كبرت وأنت تشعر كما لو أن كل أصابع الأبهام تشير بالاتهام إلى كل ما تحاول أن تفعله؛ لأن المؤثرين في حياتك أظهروا عدم ثقة في قدراتك؟ قد تزداد هذه التأثيرات السلبية التي رأيتها في طفولتك في مرحلة المراهقة؛ لأن الكثيرين من حولك قد فشلوا في رؤية كفاءتك، أو ربما تسببت بعض الإخفاقات التي واجهتها في حياتك- مثل فقدان وظيفة، أو فشل في علاقة صداقة، أو زواج، أو ابن متمرد، في شعورك بالفشل.

إن الركن الأساسي الثالث الذي تُبنى عليه الهُوية الحقيقية يتمثل في أن نرى أنفسنا أكفاء في المسيح. وهذه هي نظرة الله لنا. لم يكن الرسول بولس مندفعًا أو متفاخرًا عندما قال: «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (في ٤: ١٣). فقد رأى نفسه يمتلك الموهبة والاستعداد اللازمين لخدمة الله، وهذه هي الصورة التي ينبغي أن نرى أنفسنا عليها. وهذا لا يعني أنك لابد أن تصبح صورة طبق الأصل من الرسول بولس، كما أنه لا يعني أيضًا أنك ستنجح في كل ما ستفعله في

حياتك، لكن الله يريدك أن ترى المواهب الروحية والقدرات الجسدية والعقلية التي أعطاها لك وقد أعدك لكي تستخدم هذه القدرات بنجاح. الأهم من ذلك هو ثقة الله في إمكانياتك حتى أنه دعاك لتكمل إرساليته العظمى. إن نظراتك لهُويتك ولنفسك ستتغير عندما تتشبث بحقيقة أن الله يراك نافعًا وكفء.

تحقيق المستحيلات بقوة الروح القدس

إن علاقتك بالله الروح القدس هي مفتاح تغيير نظرتك المتدنية لكفاءتك وجدارتك. يقول الكتاب المقدس عن علاقتنا بالروح القدس:

- نحن مولودون ثانية من الروح القدس (يو ٣: ٣- ٥).
- الروح القدس يسكن فينا ويمكث معنا إلى الأبد (يو ١٤: ١٦، ١٧).
- الروح القدس يعلِّمنا ما نحتاج أن نعرفه (يو ١٤: ٢٦).
- الروح القدس يشهد لنا أننا أولاد الله (رو ٨: ١٦).
- الروح القدس يقودنا ويرشدنا (رو ٨: ١٤).
- الروح القدس يمدنا بالمواهب الروحية حتى نستطيع أن نعيش حياة هادفة في خدمة الله (١كو ١٢: ٤، ١١).
- الروح القدس يعين ضعفاتنا ويشفع فينا (رو ٨: ٢٦، ٢٧).
- الروح القدس يثمر فينا بثمار بر الله: محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف (غل ٥: ٢٢، ٢٣).

إن فهم الإمكانيات المتاحة لك نتيجة سكني الروح القدس وحضوره في حياتك يعد أهم الطرق المباشرة لإدراك كفاءتك وجدارتك في ضوء عمل الروح القدس. لقد حدث شيء رائع ومعجزي لتلاميذ المسيح في يوم الخمسين، فبعد عشرة أيام من صعود المسيح، امتلأوا بالروح القدس، وانطلقوا بقوة الروح القدس ليغيّروا مجرى التاريخ. كذلك يرغب الروح القدس نفسه الذي اعطى التلاميذ قوة ليعيشوا حياة مقدسة ويصيروا شهودًا مؤثرين منذ ألفي سنة أن يعمل فينا أيضًا.

إن حقيقة أن الرب يسوع المسيح يعيش فينا بقوة الروح القدس ويعبِّر عن حبه للعالم من خلالنا هي إحدى أهم الحقائق التي تعلمنا إياها كلمة الله.

أمّا الاعتماد على أنفسنا لكي نعيش حسب التعاليم الكتابية لحياة الإيمان فهو أمر مستحيل، ومحاولة فعل هذا الأمر- بما يصاحب ذلك من إخفاقات- من شأنه أن يحجب عنا إدراك مدى كفاءتنا وجدارتنا بصفتنا أولاد الله. في الواقع، قد يعاني المؤمنون الذين يحاولون بمجهوداتهم أن يعيشوا متشبهين بالمسيح بقدر ما يستطيعون من شعور أفقر بكفاءتهم وجدارتهم أكثر من غير المؤمنين الذين يعيشون وفقًا للمثل الإنسانية العليا. إن الوصول إلى المعايير الكتابية بأنفسنا أمر بعيد المنال. أمّا الشخص الوحيد الذي استطاع أن ينجح في تحقيق ذلك هو شخص الرب يسوع المسيح. وبالتالي فإن الحياة المسيحية لا يمكن أن تعاش بدون قوة الروح القدس. فبدون الروح القدس سيكون لدينا كل الأسباب التي تجعلنا نشعر أننا لا نصلح لخدمته.

لقد أشار الرب يسوع لدور الروح القدس الحيوي حتى نشعر بالكفاءة عندما قال لتلاميذه: «لكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُونَ لِي شُهُودًا فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ» (أع ١: ٨). وبالتالي بدون الروح القدس يستحيل أن نصبح مؤمنين فقط، ويستحيل أن نظهر ثمار الروح القدس أو نأتي بالآخرين للمسيح. كان الرب يسوع يشير إلى الروح القدس وإلى نفسه عندما قال صراحة: «لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» (يو ١٥: ٥). وبالتالى فمن اللحظة التي نقبل فيها المسيح ويسكن فينا الروح القدس، يتوفر لنا كل ما نحتاجه لنكون أكفاء ومؤثرين في عمل المسيح. السبيل إلى ذلك يتمثل في السماح للروح القدس أن يملأنا يوميًا حتى نستطيع أن نستثمر كل ما قد وضعه تحت تصرفنا. ويقدم الرسول بولس ذلك من خلال وصيته لنا: «امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ» (أف ٥: ١٨). وإذا قمنا بترجمة هذه الآية حرفيًا، سنقرأها "استمر في السماح لنفسك أن تمتلئ من الروح القدس". فبالنسبة للمؤمنين، يتطلب الشعور بالكفاءة، الامتلاء بالروح القدس كل يوم.

ولا يقصد بالامتلاء من الروح القدس يوميًا أنك تحتاج لمزيد من قوة الروح

القدس التي تأتي إليك من الخارج، بل يُقصد بذلك السماح للروح القدس الموجود بالفعل بداخلك أن يحتل مساحة أكبر من حياتك. لذلك من الأفضل أن أقول: "يتخللني" الروح القدس أو يمكنني ويملأني بقوته. كذلك يعني الامتلاء اليومي بالروح القدس أننا نمتلئ بالقوة كل يوم لنعيش للمسيح ونكون له شهودًا.

نحن نمتلئ بالروح القدس بالإيمان بالله القوي الذي يحبنا، ولأنه يأمرنا أن نمتلئ من الروح القدس، فأنه سوف يملأنا عندما ننفتح عليه. كما يمكنك الاعتماد على ذلك. فهذه العملية تشبه قيامك بسحب أموال من البنك، فعندما يكون لك رصيد كبير، لن تقترب من صراف البنك مذعورًا وخائفًا أن يُرفض طلب صرف الشيك، كما لا تحتاج أن تتوسل إليه حتى يعطيك المال الذي تحتاجه. بل على العكس، تدخل البنك "بكل ثقة"، وتقدم الشيك للصراف، وتستلم أموالك. بالمثل يُعد الامتلاء من الروح القدس يوميًا أمرًا بسيطًا يتعلق بالاقتراب من شيء أنت تمتلكه بالفعل.

خطة الله لتمكينك

يجب عليك أن تدرك أنه يتحتم عليك القيام بإجراءات معينة لإتمام عملية سحب الأموال إذا ما أردت سحب جزء منها لك من البنك.

على سبيل المثال، لا يمكن أن تقف خارج البنك وتصيح "أريد أموالي" وتتوقع أن يقوم أحد بخدمتك! لكن يجب أن تملأ طلب سحب وتقدمه في شباك الصراف. يحدث الشيء نفسه من خلال بعض الخطوات اللازمة للتجهيز إلى عملية اختبار الامتلاء من الروح القدس كل يوم.

(١) يجب أن تكون جائعًا ومتعطشًا لله، وتشتاق أن تمتلئ من روحه القدوس. قال الرب يسوع: «طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ» (مت ٥: ٦). يكون الإنسان جائعًا لله عندما يدرك أنه معدوم الحيلة بدون الله. وإذا لم تكن جائعًا لله، فهذا يعني أنك ممتلئ بقدرتك الذاتية بدلاً من الامتلاء بقوة الروح القدس. وإذا كنت ممتلئًا بالفعل، فلن يكون لديك رغبة في الحصول على قوة الروح القدس.

(٢) سلّم دفة حياتك إلى المسيح. يقول الرسول بولس: «فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ» (رو ١٢: ١). ولكي يمدنا الله بالقوة يجب علينا أن نكف عن محاولاتنا الشخصية لإدارة حياتنا.

(٣) اعترف بكل خطية يكشفها لك الروح القدس، واقبل التطهير والغفران الذي وعد بها الله. يذكرنا الوعد الرائع في رسالة يوحنا الأولى: «إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ» (١يو ١: ٩). إن الامتلاء اليومي من الروح القدس يتطلب الاعتراف اليومي بخطاياك والتطهر منها. فالامتلاء من الروح القدس لا يمثل أمرًا اختياريًا بالنسبة للمؤمن، لكنه وصية وأمر. فالله يأمرنا بأن نمتلئ بالروح القدس (أف ٥: ١٨). لكن الله لا يصدر أمرًا أبدًا دون أن يزودنا بالوسيلة التي تمكننا من إطاعة هذا الأمر. وها هو الوعد: «وَهذِهِ هِيَ الثِّقَةُ الَّتِي لَنَا عِنْدَهُ: أَنَّهُ إِنْ طَلَبْنَا شَيْئًا حَسَبَ مَشِيئَتِهِ يَسْمَعُ لَنَا. وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ مَهْمَا طَلَبْنَا يَسْمَعُ لَنَا، نَعْلَمُ أَنَّ لَنَا الطِّلِبَاتِ الَّتِي طَلَبْنَاهَا مِنْهُ» (١يو ٥: ١٤، ١٥). إذًا كل ما علينا أن نفعله هو أن نطلب من الله لكي يملأنا، وحيث إننا نعلم أنه يسمعنا، بوسعنا أن نثق أنه سيملأنا.

عندما نطلب أن نمتلئ من الروح القدس، نحن لا نطلب الروح القدس أن يأتي إلى حياتنا، لأنه موجود بالفعل في حياتنا. فالروح القدس لا يسكن في المؤمنين إلا مرة واحدة عندما يدخل المسيح حياتنا من خلال عمل روحه القدس. لكننا نمتلئ بالروح القدس مرارًا وتكرارًا. نحن نطلب من الروح القدس الساكن فينا أن يملأ كل جزء من أجزاء حياتنا، وكل ركن وجانب خفي، وأن يغمر حياتنا كلها. وبينما نفعل ذلك، يتاح لنا الاستفادة من قوته. ويتلاشى الشعور باليأس وتفاهة مجهوداتنا عندما نعيش بقوة الروح القدس. إن الروح القدس يمنحنا القدرة على أن نعيش حياة مقدسة، وأن نخدم الله بصورة فعّالة من خلال استخدام كل القدرات التي أعطانا إياها.

هل ترغب في أن تعيش حياة ممتلئة من الروح القدس وقوته؟ إذا كنت ترغب في ذلك، فأنت لا تحتاج سوى أن تطلب من الله. اعترف له بأنك كنت

تقود حياتك، الأمر الذي يعد خطية في حق الله. لأن الوحيد الذي له الحق في أن يدير حياتك هو الله نفسه. اشكره على غفرانه لخطاياك من خلال موت المسيح على الصليب لأجلك. وادعو المسيح أن يقود حياتك، وروحه القدوس أن يملأك حتى تستطيع أن تمجّد المسيح في كل ما تمتد إليه يدك. ثم اشكر الله على استجابته لطلبتك. وتأكد أنك لن تكون متعجرفًا إذا شكرت الله قبل أن تختبر بالفعل استجابة طلبتك. لكن ذلك عمل من أعمال الإيمان الذي يثق بأن الله يحفظ وعده بأن يعطينا أي شيء نطلبه ما دام حسب مشيئته. وحيث إنه يأمرنا بأن نمتلئ بالروح القدس، فنحن نعرف أنه يريد أن نطلب منه وننال ما نطلبه، لذلك فمن المناسب تمامًا أن نشكره على ما سيفعله.

قال الرسول متهللاً بمشاعر القوة والكفاءة والجدارة التي تمتع بها من خلال قوة الامتلاء بالروح القدس: «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» (في ٤: ١٣). لم يكن التأكيد هنا على ما يستطيع بولس أن يقوم به، لكن على ما يستطيع المسيح- مصدر القوة- أن يقوم به من خلاله. حاول الرسول بولس أن يقوم بأعمال عظيمة لله لأنه كان يتوقع أعمالاً عظيمة سيفعلها الله في حياته. وهكذا يمكننا نحن أيضًا أن نفعل ذلك أيضًا «لَيْسَ أَنَّنَا كُفَاةٌ مِنْ أَنْفُسِنَا أَنْ نَفْتَكِرَ شَيْئًا كَأَنَّهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، بَلْ كِفَايَتُنَا مِنَ اللهِ» (٢كو ٣: ٥).

يستطيع الله أن يحوّل عدم كفاءتنا إلى كفاءة

كان «كارل» مدير حسابات في مجال الاستثمار، وكان ناجحًا جدًا في المؤسسة المالية التي كان يعمل بها. وعندما تعرف عليه أعضاء مجلس الكنيسة التي كان يواظب عليها، أشاروا إلى بعضهم البعض وقالوا "إن هذا الرجل سيكون إضافة كبيرة إلى لجنة ميزانية الكنيسة. فهو يتمتع بتعليم وخبرة عملية واسعة في مجال الحسابات المالية. ويعرف كيف يدير الأموال إدارة ناجحة. إنه شخص موهوب"، وسرعان ما دُعي «كارل» بعد ذلك ليخدم في اللجنة. وقد قبل هذه الخدمة وهو مشتاق أن يساهم بأي شيء لخدمة كنيسته.

وكانت الشهور القليلة الأولى التي قضاها «كارل» في اللجنة سيئة للغاية.

فقد اتضح أن نقطة القوة التي أضافها للمهمة تمثل نقطة ضعف صارخة. ولأنه اعتمد على خبرته المالية، فقد قيّم جميع مصروفات الكنيسة على طريقة المكسب والخسارة، وقال إنه إذا لم يُدِّر أي من برامج الكنيسة أية أرباح، فإنه يجب أن يُلغى على الفور. وقد اعتبر أن الخدمات التي لا تُدِّر عائدًا ملموسًا وقويًا- مثل الإرساليات التي لا تفيد الكنيسة بشكل مباشر- على أنها خسارة. واتضح سريعًا لقادة الكنيسة أن «كارل» يفتقد إلى نعمة الإيمان اللازمة لاستثمار عشور الكنيسة والتبرعات التي تصلها. وبعد مناقشة مع راعي الكنيسة المحب والحكيم، استقال «كارل» من منصبه في اللجنة.

"إن الله ليس محدوداً بمحدوديتك."

كان يمكن لكارل أن ينظر لهذه التجربة ويستنتج أنه شخص بلا قيمة، وأنه لم يستطع أن يستغل خبرته العملية في خدمة الله. لكن راعي الكنيسة شجع «كارل» أن يفكِّر في أنه حتى إذا لم ينجح بمهاراته المالية في لجنة الميزانية، فإن الله سيُظهر له كيف يمكن أن يخدمه.

ولم ييأس «كارل»، وعندما استمر في النمو في الإيمان، وسلَّم قيادة حياته للروح القدس، شعر بأنه قد يحب العمل التطوعي في خدمة الشباب من النشء. ولم يكن قد تعامل في السابق مع هذه المرحلة العمرية، ولم يحصل على أي تدريب في خدمة الشباب. لكن قلبه كان مهمومًا بخدمة مجموعة الشباب الذين جاءوا من بيوت غير مسيحية. وقد اندهش عندما علم أن زوجته «بريندا» مهتمة أيضًا بالشيء نفسه.

وبعد أن صلى «كارل» و زوجته «بريندا» كثيرًا، تقابلا مع راعي الشباب. وقالا له: "نحن لا نعرف أي شيء عن العمل وسط الشباب. لكن نحن نحب هؤلاء الشباب ونرغب في تعلُّم الخدمة. إذا كان من الممكن أن ننضم إليكم فنحن جاهزون". وقد دعاهما راعي الكنيسة أن يشتركا كمتطوعين في فريق الخدمة.

وبدأ الزوجان خدمة الشباب مثلما يبدأ الطائر رحلة الطيران. وفتحا بيتهما

للطلاب الشباب الناشىء لدراسة الكتاب المقدس. فقد تجمع الشباب حول «كارل» وزوجته «بريندا»؛ لأنهم شعروا بمحبتهما وقبولهما الحقيقيين لهم. وكان «كارل» و«بريندا» يضحكان مع الشباب ويمرحان معهم، ويبكيان مع الذين تعرضوا للإيذاء. وقد استمرت مجموعة الشباب في النمو بسبب استعداد «كارل» و«بريندا» وتسليمهما دفة حياتهما للروح القدس لكي يرشدهما ويمكِّنهما في خدمة ليس لهما فيها أية مهارات أو نجاحات سابقة.

عندما تنظر إلى الذين يستخدمهم الله، ستجد أنه عادة- حتى وإن كان لديهم عيوب واضحة- فعندما يُخضعون حياتهم لقيادة الروح القدس، فإن الله يجهزهم للخدمة. ولا تكون هذه العيوب دائمًا في مجال الخبرة العلمية كما ظهر في قصة «كارل».

إن رؤية نفسك كما يراك الله لا تعني أنك بدون قصور أو ضعفات. فحتى الذين يملك الروح القدس على حياتهم غير كاملين ويحتاجون إلى النمو والنضوج. ولكن رؤية نفسك كما يراك الله تعني أن ترى نفسك كفء بالرغم من قصورك أو ضعفاتك. فالله ليس محدودًا بمحدوديتك، وقضيته ليست ضعيفة بضعفك. والأكثر من ذلك، إن الله لا يتأثر بإمكانياتك كما لو أن عمله سيتوقف بدونك. فبغض النظر عن مَنْ أنت أو مستواك الروحي، فإن الله سيستخدمك إذا سمحت لروحه القدوس أن يملأك كل يوم. وعندما تسير في الحياة ممتلئًا بالروح القدس، ستكون "وَاثِقًا بِهذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (في ١: ٦).

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله، ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظاتك أو دفتر يومياتك.

(١) الله في كل مكان. نقرأ في مزمور ١٣٩: ٧- ١٠ «أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟ إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَأَنْتَ هُنَاكَ، وَإِنْ فَرَشْتُ فِي الْهَاوِيَةِ فَهَا أَنْتَ. إِنْ أَخَذْتُ جَنَاحَيِ الصُّبْحِ، وَسَكَنْتُ فِي أَقَاصِي الْبَحْرِ، فَهُنَاكَ أَيْضًا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ».

- ماذا يعني لك أن الله موجود في كل مكان تذهب إليه ليقودك وليشددك؟

- هل تشعر بمحبة الله لك في تعهده بأن يكون معك في أي مكان؟

(٢) الله كلي القدرة. نقرأ في سفر أيوب ٤٢: ٢ «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ أَمْرٌ».

- ماذا يعني لك أن الله يستطيع كل شيء؟

- ماذا يعني لك أن الله كلي القدرة قد أعطاك كل شيء تحتاجه لتكون جديرًا بأن تنضم إلى عائلته؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله «لقد اخترتك لتكون مثمرًا». نقرأ في إنجيل يوحنا: «لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ، وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ، لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي». (يو ١٥: ١٦)

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله اختارني لأكون مثمرًا".

- ماذا يعني لك أن الله اختارك وأعدك لكي تتمتع بالكفاءة والجدارة؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يستأمنك على عمله؟

(٢) يقول الله: "أنت غير ناقص في شيء". نقرأ في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: «حَتَّى إِنَّكُمْ لَسْتُمْ نَاقِصِينَ فِي مَوْهِبَةٍ مَا، وَأَنْتُمْ مُتَوَقِّعُونَ اسْتِعْلاَنَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (١كو ١: ٧).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله يزودني بكل ما أحتاجه لكي أخدمه".

- ماذا يعني لك أن الله يقدِّرك ويعتز بك حتى أنه يُعدك لخدمته؟

- هل ترى قلب الله نحوك وهو يعطيك كل شيء تحتاجه لكي تصبح كفء؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وفي نظرتك لنفسك.

الجزء الخامس
اكتساب هُوية جديدة

الفصل الثالث عشر

نحو بيئة تساعد على التغيير

تمسك الكثيرون من المؤمنين الذين أعرفهم بفكرة الامتلاء بالله بقدر ما يستطيعون، لكن بعد سنوات كانت لهم نظرة يائسة عن هُويتهم في المسيح. قد تكون واحدًا من هؤلاء، وربما استخدمك الله بطرق رائعة في الماضي. وربما يحترمك الكثيرون بصفتك مثالاً للإيمان والنضوج الروحي. لكنك لا تزال ترى نفسك نموذجًا سيئًا من البشر. وربما تجد صعوبة في تصديق أن الله أو أي شخص آخر يراك شخصًا محبوبًا وذا قيمة وكفء.

ناقشنا من الكتاب المقدس كيف يراك الله، ولماذا لك كل الحق في أن ترى نفسك بصفتك ابن لله محبوب وذي قيمة وكُفء، لكن كيف يحدث ذلك؟ ما هي البيئة أو المناخ الذي يشجّع الإنسان لكي يرى نفسه بصورة مختلفة؟

يمكنك أن تكتسب نظرة جديدة لهُويتك بالطريقة نفسها التي اكتسبت بها نظرتك الحالية. ربما تكون قد كبرت وأنت ترى نفسك غير محبوب وبلا قيمة وغير كُفْء بسبب البيئة التي عشت فيها، وأن الأشخاص المؤثرين في حياتك بصفة خاصة حملوا لك هذه الرسالة. ولكي تتغيَّر نظرتك لهُويتك، عليك أن تضع نفسك في بيئة تقدِّم لك حقيقة نفسك. ويجب أن تسمح لنفسك أن تتأثر إيجابيًا بالذين يرون أنفسهم ويرونك من خلال عيني الله. وعندما تتعرض لمناخ يؤكد لك حقيقة

"لكي تتغير نظرتك لهُويتك, عليك أن تضع نفسك في بيئة تقدم لك حقيقة نفسك."

نفسك، فإن صورتك الداخلية المشوهة سوف تتغيَّر.

تطرقنا إلى قصة إقامة الرب يسوع للعازر من الموت في الفصل التاسع. وقلنا إنه عندما خرج لعازر من القبر، كان لا يزال مربوطًا بالأكفان. وقد أعطى الرب يسوع التعليمات لأصدقاء لعازر وأسرته لكي يحلوه من الأربطة التي تقيده، وبالتالي اختار الرب يسوع الآخرين ليحقق أهدافه من أجل إقامة لعازر. بالطريقة نفسها يقوم الله باختيار مؤمنين آخرين ليستخدمهم في مساعدتك حتى تتحرر من قيود نظرتك المشوهة لهُويتك ولنفسك. فالله يستخدم المؤمنين الآخرين ليكونوا أدوات لتغيير حياتك.

بيئة متشبعة بالحق

ما شكل هذه البيئة النموذجية التي تساعد على التغيير؟

(١) تتضمن بيئة التغيير أشخاصًا يمثلون قدوة لهُويتك في المسيح. فأنت تحتاج أن تكرّس وقتًا لتقضيه مع أحبائك الذين يرون بوضوح أنك محبوب وذو قيمة ونافع لله والآخرين. وهؤلاء ليسوا بالضرورة أكثر الناس مشغولية في خدمة الله. فعادة ما يكون المؤمنون الذين يدمنون الخدمة المسيحية مشغولين بشكل مبالغ فيه؛ لأنهم يحاولون أن يكسبوا رضى الله بدلاً من أن يسيروا بثقة مع الله. وتعكس تلك النماذج التي تمثل قدوة صالحة للهُوية الحقيقية، علاقة حميمة مع الله، وتمتع عميق في خدمته. وسواء كانت هذه النماذج تتمتع بمهارات اجتماعية أو لا، فإنهم يشعرون بالراحة في تعاملاتهم مع من حولهم؛ لأنهم واثقون في هُويتهم. كما يشترك الكثيرون منهم في تلمذة مؤمنين آخرين ونصحهم سواء بطريقة رسمية أو غير رسمية.

(٢) تعد بيئة التغيير مناخًا تتعلم فيه بوضوح هُويتك الحقيقية من الكتاب المقدس. قد يكون أبواك أو معلموك أو الكبار الذين أثروا في حياتك قد غرسوا في ذهنك أنك بلا قيمة، عندما كنت طفلاً. لكن هذه المعلومات عن نفسك غير دقيقة. وتحتاج أن تتعلم الحقائق الكتابية التي تكشف لك كيف يراك الله. كما تحتاج أن تقضي وقتًا مع قادة دراسة الكتاب المقدس والمؤمنين الناضجين الآخرين

الذين يعلنون من خلال دروسهم وأحاديثهم عن تقديرك وقبولك في نظر الله حسب تعاليم الكتاب المقدس.

(٣) توفر بيئة التغيير مناخًا لمجموعة من العلاقات التي تتسم بالحميمية والحب. وحيث إن المؤمنين يمثلون الحق، ستلاحظ أنهم ينظرون إلى بعضهم البعض كأشخاص يستحقون الحب والتقدير. وبينما ينادي المؤمنون بالحق، ستتعلم من الكتاب المقدس أن الله يراك محبوبًا وذا قيمة وكُفء. لكن عندما ترتبط بأشخاص يعرفون هُويتهم الحقيقية، فإنك ستختبر هذا الحق بشكل شخصي. لأنه في سياق علاقات المؤمنين التي تُظهر الاهتمام، يعبِّر المؤمنون عن حبهم لبعضهم البعض، ويقدرون بعضهم البعض، ويخدمون بعضهم البعض بطرق عملية.

على سبيل المثال لنتأمل هذا السيناريو، قبل أن تنتهي من عملك اليومي، يقوم مديرك باستدعائك ويعلن أنه لغى ترقيتك وزيادة راتبك كما كنت متوقعًا؛ لأنه أعطي الأولوية إلى موظفًا جديدًا يتمتع بتدريب أعلى. وبينما تقود سيارتك راجعًا إلى البيت، تشعر بالإحباط الشديد. وتهاجمك المشاعر القديمة بالقصور والفشل وتحثك على التغيب عن اجتماع دراسة الكتاب المقدس هذا المساء. لكن بشكل ما تعرف أنك لابد أن تذهب حتى لو ستنذوي في مكان ما، وتستغرق في مشاعر الإشفاق والرثاء على الذات.

وعندما تخبر أصدقاءك المقربين في مجموعة دراسة الكتاب المقدس عن سوء حظك، تجدهم يحيطون بك ويواسونك ويهتمون بك. وأنت تعلم أن محبتهم صادقة؛ لأنهم ساندوك وشجعوك من قبل. وأنت نفسك قد فعلت الشيء نفسه مع الكثيرين منهم في أوقاتهم الصعبة التي مروا بها. وقد ذكّروك أنك لست نافعًا وجديرًا بالشركة فحسب، بل للمجموعة أيضًا.

ويشرح أحد أعضاء المجموعة خلال دراسة الكتاب المقدس من النص موضع المناقشة النقاط التي تذكِّركم بأن الله يراكم أعضاءً نافعين في جسده الذي هو الكنيسة. ويذكِّر المجموعة كيف أنك قضيت إجازة نهاية الإسبوع منذ فترة في

مساعدة أسرته في الانتقال إلى شقة جديدة. ويؤكد على موهبتك الروحية في الخدمة. ثم تترك المجموعة وأنت متأكد أنهم يحبونك ويقدرونك ويحتاجونك في وسطهم. وهذه العلاقات الإيجابية تساعدك أن ترى بوضوح أنك شخص ذو قيمة ونافع لله وللآخرين. ومن ثم تترك المكان بصورة أفضل عن نفسك.

"إنه أمر حيوي أن تدخل في علاقات تتسم بالاستمرارية والحب والدعم المتبادل بين المؤمنين."

هذا هو نوع البيئة الذي يمكن إن تغيِّر صورتك الداخلية المشوهة التي تحملها منذ طفولتك. إنه أمر حيوي أن تدخل في علاقات تتسم بالاستمرارية والحب والدعم المتبادل بين المؤمنين. وبوسعك أن تجد هذا النوع من العلاقات في أحد فصول مدارس الأحد، أو مجموعات دراسة الكتاب المقدس. ويجب أن تكون المجموعة صغيرة بشكل كافٍ حتى يمكنك أن تتعرف على أعضائها عن قرب. فالجلوس في كنيسة على مقعدٍ طويل له ظهر لمدة ساعة في صباح يوم الأحد فقط لن يسمح لك بأن تبني الكثير من العلاقات. لكن ازرع نفسك في مجموعات صغيرة متماسكة ومتحابة تدعم حقيقة هُويتك حسبما يراها الله.

برنامج الله الخاص بعملية التغيير

نرى البرنامج الذي أعده الله ليساعدنا على تغيير نظرتنا لهُويتنا في وصف الكنيسة الأولى: «وَكَانُوا يُواظِبُونَ عَلَى تَعْلِيمِ الرُّسُلِ، وَالشَّرِكَةِ، وَكَسْرِ الْخُبْزِ، وَالصَّلَوَاتِ. وَصَارَ خَوْفٌ فِي كُلِّ نَفْسٍ. وَكَانَتْ عَجَائِبُ وَآيَاتٌ كَثِيرَةٌ تُجْرَى عَلَى أَيْدِي الرُّسُلِ. وَجَمِيعُ الَّذِينَ آمَنُوا كَانُوا مَعًا، وَكَانَ عِنْدَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مُشْتَرَكًا. وَالأَمْلاَكُ وَالْمُقْتَنَيَاتُ كَانُوا يَبِيعُونَهَا وَيَقْسِمُونَهَا بَيْنَ الْجَمِيعِ، كَمَا يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ احْتِيَاجٌ. وَكَانُوا كُلَّ يَوْمٍ يُواظِبُونَ فِي الْهَيْكَلِ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذْ هُمْ يَكْسِرُونَ الْخُبْزَ فِي الْبُيُوتِ، كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ الطَّعَامَ بِابْتِهَاجٍ وَبَسَاطَةِ قَلْبٍ، مُسَبِّحِينَ اللهَ، وَلَهُمْ نِعْمَةٌ لَدَى جَمِيعِ الشَّعْبِ. وَكَانَ الرَّبُّ كُلَّ يَوْمٍ يَضُمُّ إِلَى الْكَنِيسَةِ الَّذِينَ يَخْلُصُونَ» (أع ٢: ٤٢- ٤٧).

يبدو أن ما يؤكد عليه هذا النص وخلال أسفار العهد الجديد كله يتمثل

في ثلاثة تجارب ينبغي أن يشارك فيها كل مومن. ونلاحظ كيف تجتمع هذه العناصر الثلاثة في بيئة التغيير ثلاثية الأبعاد التي وصفناها:

(١) يحتاج كل مؤمن أن يشارك في خبرة تعليمية حية

كانت الكنيسة في القرن الأول تكرّس نفسها لتعاليم كلمة الله، ويجب علينا أيضًا أن نفعل ذلك. ونحن لا ندرس الكتاب المقدس في الأساس من أجل أن نتعلّم ما ينبغي أن نقوم به كمؤمنين، لكن نحب دراسة الكتاب المقدس لكي نعرف كيف نصير مؤمنين بالحقيقة. وعندما نفهم من الكتاب المقدس مَنْ نحن وما هي صورتنا التي سنصير عليها، سنجد أن الجزء العامل في إيماننا يعتني بنفسه بطريقة عملية.

(٢) يحتاج كل مؤمن أن يشارك في خبرة حية في مجال العلاقات

كان المؤمنون في أورشليم مخلصين جدًا لحياة الشركة حيث كانوا يجتمعون معًا، ويأكلون معًا، ويدرسون كلمة الله معًا. وهكذا كانوا يختبرون كلمة الله كل يوم. كما تعلّموا كيف يتعاملون مع بعضهم البعض بصفتهم أفراد في عائلة الله محبوبين وذي قيمة وأكفاء.

(٣) يحتاج كل مؤمن أن يشارك في علاقة حية كشاهد للمسيح

نلاحظ من خلال القدوة الإيجابية للمؤمنين الآخرين، ماذا يعني أن الله يحبنا ويقدر قيمتنا. لكن يحتاج غير المؤمنين أيضًا أن يعرفوا أن الله يحبهم ويقدرهم. ووفقًا للعهد الجديد، فإن الشهادة للمسيح أن تعيش هُويتك الحقيقية في المسيح، ثم بعد ذلك تتحدث بهذا الحق كلما أمكن لك ذلك. وهذه هي الطريقة التي كان الله يضم بها الذين يخلصون كل يوم إلى الكنيسة الأولى. كما أن تجسيد هُويتنا كأبناء محبوبين وأكفاء يمثل الأداة الرئيسية لإعلان إنجيل الخلاص. وتعد رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي مثالاً ممتازًا يوضح لنا كيف كان الرسول بولس يقوم بهذه العملية بين المؤمنين. كما وصف لنا كيف كان يتعامل مع المؤمنين في تسالونيكي كما تربى الأم أولادها (١تس ٢: ٧). وكيف كان يعظهم ويشجعهم كالأب لأولاده (١تس ٢: ١١). وقد أكدّ على علاقته بهم

قائلاً: «هكَذَا إِذْ كُنَّا حَانِّينَ إِلَيْكُمْ، كُنَّا نَرْضَى أَنْ نُعْطِيَكُمْ، لاَ إِنْجِيلَ اللهِ فَقَطْ بَلْ أَنْفُسَنَا أَيْضًا، لأَنَّكُمْ صِرْتُمْ مَحْبُوبِينَ إِلَيْنَا» (١تس ٢: ٨).

يظهر بوضوح في هذا النص اشتراك الرسول بولس في عملية التغيير. فقد علَّم المؤمنين الجدد حقيقة نظرة الله لهم، "وارتبط" بهم في محبة وتفهم، "وقد شهد" لهم أو صاغ لهم ماذا يُقصد بأن تكون شخصًا تقيًا يتمتع بنظرة صحيحة عن هُويته.

وأطلق الرسول بولس لفظ «إخوة» مرتين على الذين يقرأون رسالته في هذا النص مع أنه بوسعه أن يتخذ موقفًا تسلطيًا بصفته رسول. وهذا ملمح مهم علينا أن نضعه في اعتبارنا فيما يتعلق بعلاقتنا بعضنا البعض في جسد المسيح. فكل منا يتعلَّم ويُعلِّم. وقد تشعر أحيانًا أنك الطرف الذي يعطي، أو تشعر أحيانًا أنك الطرف الذي يأخذ. فالعلاقة بين الإخوة والأخوات في المسيح دائمًا ما تعمل في الاتجاهين. وفي بيئة التغيير، يعطي كل شخص ويأخذ، ويَخدِم ويُخدَم.

قد تقول: "إن هذه العملية مثل عملية التلمذة". نعم، فعملية تغيير نظرتنا لهُويتنا متضمنة في عملية التلمذة. لكن عادة ما نرى عملية التلمذة على أنها تعلُّم. كيف نعيش حياة الإيمان. ولكن التلمذة في معناها الأوسع هي عملية نتعلَّم فيها كيف يصبح الإنسان مؤمنًا حقيقيًا. لأنك تحتاج أن تعرف أولاً مَنْ أنت قبل أن تستطيع فهم كيف تعيش. أتمنى أن تكون منضمًا لمجموعة من المؤمنين الذين يسعون إلى تجسيد الحق وتعليمه والارتباط بالحق يصبح هُويتنا بقدر ما ينبغي.

دور كلمة الله في عملية التغيير

يعمل الروح القدس من خلال مجموعة المؤمنين، ومن خلال كلمة الله المقدسة ليساعدنا أن نرى أنفسنا كما يرانا الله. يقول الرسول بطرس: «وَكَأَطْفَال مَوْلُودِينَ الآنَ، اشْتَهُوا اللَّبَنَ الْعَقْلِيَّ الْعَدِيمَ الْغِشِّ لِكَيْ تَنْمُوا بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ قَدْ ذُقْتُمْ أَنَّ الرَّبَّ صَالِحٌ» (١بط ٢: ٢، ٣). وكلمة الله هي العامل الرئيسي في تجديد أذهاننا؛ لكي نفكِّر كما يفكِّر الله ونرى من خلال منظوره هو (رو ١٢: ٢).

لاحظ كيف أن خدمة الكلمة من خلال الآخرين تهدف إلى نضجنا الروحي الذي يبدأ بمفهوم صحيح عن هُويتنا:

«وَهُوَ أَعْطَى الْبَعْضَ أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً، وَالْبَعْضَ أَنْبِيَاءَ، وَالْبَعْضَ مُبَشِّرِينَ، وَالْبَعْضَ رُعَاةً وَمُعَلِّمِينَ، لأَجْلِ تَكْمِيلِ الْقِدِّيسِينَ لِعَمَلِ الْخِدْمَةِ، لِبُنْيَانِ جَسَدِ الْمَسِيحِ، إِلَى أَنْ نَنْتَهِيَ جَمِيعُنَا إِلَى وَحْدَانِيَّةِ الإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ ابْنِ اللهِ. إِلَى إِنْسَانٍ كَامِلٍ. إِلَى قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ. كَيْ لاَ نَكُونَ فِي مَا بَعْدُ أَطْفَالاً مُضْطَرِبِينَ وَمَحْمُولِينَ بِكُلِّ رِيحِ تَعْلِيمٍ، بِحِيلَةِ النَّاسِ، بِمَكْرٍ إِلَى مَكِيدَةِ الضَّلاَلِ. بَلْ صَادِقِينَ فِي الْمَحَبَّةِ، نَنْمُو فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ذَاكَ الَّذِي هُوَ الرَّأْسُ: الْمَسِيحُ» (أف ٤: ١١- ١٥).

كشف الله من خلال كلمته عن صفاته وطبيعته. وجعل الله هذه الصفات حقيقة ملموسة من خلال جسد المسيح؛ أي الكنيسة. قال الرب يسوع لتلاميذه: «اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ... أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ» (يو ١٤: ٩، ١٠). وقد أعلن الرب يسوع عن شخص الله من خلال تجسده بطريقة يمكن أن نستوعبها. على سبيل المثال، ظهرت محبة الله بوضوح في رأفة السيد المسيح وشفقته على تلاميذه والأناس المجروحين والضالين.

فقد جعل الرب يسوع طباع الله وصفاته حقيقة ملموسة عن طريق تجسده. ونحن نعرف ما هي صورة الله؛ لأن المسيح جعله معروفًا لنا. ونحن نعرف أننا محبوبون وذو قيمة ونافعون لله؛ لأنه هكذا تعامل الرب يسوع مع شعبه. هل يمكن أن يكون الهدف من وجود الكنيسة هو الكشف عن شخص الله كما فعل الرب يسوع؟ الإجابة، نعم! علينا بصفتنا جسد المسيح أن نكشف عن طباع الله الآب وصفاته لبعضنا البعض وللعالم. إلى أي مدى من الأفضل أن نعرف أن الله يحبنا ويقدرنا أكثر من أن نعرف أن شعب الله يحبنا ويقدرنا؟ وإلى أي مدى من الأفضل أن نرى أنفسنا كما يرانا الله بدلاً من أن يخبرنا المؤمنون بذلك؟ إنه شيء واحد أن تقرأ عن الله في الكتب المقدسة أو تسمع عنه في عظة. بل إن الأمر يبدو أكثر واقعية عندما نختبر الله من خلال أعضاء كنيسته.

تطبيق برنامج الله على احتياجك

تتغير صورتنا الداخلية عندما نُخضع أنفسنا لبرنامج الله من أجل إدراك هُويتنا الحقيقية. وسأقدم هنا خطوات قليلة وبسيطة لتساعدك على تطبيق برنامج الله على وضعك الشخصي من خلال الآتي:

(١) عليك أن تحدد احتياجك بدقة. ما هو الجانب الذي يبدو لك أنه يحتاج أكثر لعملية التغيير؟ بالتحديد، أي من الأفكار أو الجوانب الآتية تجد صعوبة أكثر في قبولها: هل فكرة أن الله يحبك كما أنت ويريدك أن تكون ابنه (أنت محبوب)، أم فكرة أن الله كان سيرسل ابنه الرب يسوع ليموت عنك حتى لو كنت الشخص الوحيد على الأرض (أنت ذو قيمة)، أم فكرة أن الله استأمنك الله لتصل للآخرين وتخدمهم (أنت نافع وكفء)؟ هل تبرز إحدى هذه الأفكار أكثر من الأخرى عندما تتأمل هذه الأسئلة؟ إذا برزت إحدى هذه الأفكار، ابدأ العمل عليها أولاً.

إذا وجدت صعوبة في أن تكتشف الجانب الذي يحتاج أكثر أن تعمل عليه، صلِّ من أجل ذلك. واطلب من الله أن يطبع في قلبك هذا الجانب من صورتك الداخلية الذي يرغب أن يكون في توافق مع الصورة التي يراك هو بها. صلِّ بثقة ورجاء. وتذكر أن الله هو أفضل شخص يعرفك وأكثر شخص يحبك! وهو يرغب في أن تصبح نظرتك لهُويتك مثل نظرته لهُويتك. ربما تحتاج أن تبدأ صلاتك بالالتماس الذي قدمه كاتب المزمور: «اخْتَبِرْنِي يَا اَللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي. وَانْظُرْ إِنْ كَانَ فِيَّ طَرِيقٌ بَاطِلٌ، وَاهْدِنِي طَرِيقًا أَبَدِيًّا» (مز ١٣٩: ٢٣، ٢٤).

وربما تحتاج إلى شخص آخر يشاركك في هذا البحث خاصة إذا كان هذا البحث يكشف عن بعض الذكريات أو التجارب المؤلمة التي حدثت لك في الماضي. فكِّر في أن تطلب من شريك حياتك أو صديق مؤمن موثوق فيه، أو قس أو مرشد روحي أن يصلي معك، واطلب قوة الله المغيِّرة.

(٢) ابحث عن المساندة من خلال الكتاب المقدس. بمجرد أن تكوِّن فكرة عن الجانب الذي يحتاج إلى التغيير بشدة، ابدأ في دراسة الكتب المقدسة، وضع هذا الاحتياج في اعتبارك. وفي أي وقت تجلس لتقرأ الكتاب المقدس، اطلب من الله أن يطبع كلمته في قلبك وعقلك، حتى ترى نفسك كما يراك هو. وأثناء دراستك ستكتشف الآيات والعبارات التي تتناسب مع حالتك كما لو كانت أُعدت خصيصًا لك. وقد تقرأ النصوص التي قرأتها مرات عديدة وتجد شيئًا لم تلاحظه من قبل. شيئًا لا يناسب أحد غيرك. وستساعد مثل هذه الدراسة المحددة الأهداف للكتاب المقدس أن ترى كيف يمكن لصورتك الداخلية أن تتغيَّر.

إن كلمة الله تملك القوة على تغيير الحياة. وعندما تدرس وتتأمل في نصوص الكتاب المقدس التي تنطبق على احتياجاتك الخاصة، يمكنك أن ترى نتائج بالغة التأثير. هذه النتائج لا يمكن تفسيرها بعيدًا عن عمل الروح القدس الفائق للطبيعة. إن الروح القدس يستخدم كلمة الله في إعادة بناء رؤيتنا لأنفسنا وتغييرها.

(٣) ابحث عن المساندة من خلال المؤمنين الآخرين. وأخيرًا اسمح لأعضاء جسد المسيح أن يكونوا أدوات الروح القدس في عملية تغييرك. تعلمنا حكمة الله في رسالة غلاطية «احْمِلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ، وَهكَذَا تَمِّمُوا نَامُوسَ الْمَسِيحِ» (غلا ٦: ٢). أنت لست المؤمن الوحيد الذي يحتاج إلى صورة أوضح لهُويته الحقيقية. فنحن جميعًا نعيش في عملية تعليم مستمر تهدف إلى رؤية أنفسنا كما يرانا الله. لذلك ينصحنا الرسول بولس أن نساعد بعضنا البعض في هذا الموضوع. كيف؟ بأي طريقة نستطيعها. لكن لا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا ائتمنا بعضنا البعض على أحمالنا. وهذا يعني أنك يجب أن تكون مستعدًا لمشاركة أحمالك الصعبة مع الآخرين وطلب مساعدتهم، وفي الوقت نفسه تقدم المساندة للمجروحين من حولك. يجب أن تكون صريحًا وتخبر الآخرين عن صراعاتك. ويجب أن تعطي الفرصة للآخرين أن يحبوك ويعتنوا بك مثلما تحبهم أنت وتعتني بهم.

ومن خلال تفاعل جسد المسيح نختبر محبة الله ونتعرف على صفاته بصورة شخصية. وعندما نرتبط بعضنا البعض وفقًا لبرنامجه، نصبح نحن المستفيدين من

طباع الله وشخصيته إلى الدرجة التي تغيِّر حياتنا. إن علاقتنا بالمؤمنين الآخرين تعد عاملاً مساعدًا على الشفاء في حياتنا. فعندما أتلقى تعزيات الله ورحمته وغفرانه من خلالك، أبدأ في أن أرى نفسي كما يراني الله. وعندما تتلقى قبول الله وتشجيعه من خلالي، ترى نفسك بصورة أكثر وضوحًا كما يراك الله. وعندما أُعامل بصفتي شخص نافع وله قيمة، سوف أرى نفسي نافعًا وذا قيمة. وعندما أُعامل بصفتي شخص جدير بالثقة، ستنمو ثقتي بنفسي بشكل أكبر بصفتي ابن لله. إن صورتنا الداخلية تتغيّر عندما يستخدم الروح القدس كل منا لإظهار شخص المسيح للآخرين.

إن العملية المستمرة للمحبة المتبادلة تؤدي إلى حركة متصاعدة نحو التغيير في جسد المسيح. وكلما رأيت نفسك كما يراك الله بشكل أكبر، كان من الأسهل أن تؤمن أنك محبوب وذو قيمة ونافع. وكلما زاد قبولك لنفسك، كان من الأسهل أن تتجاوب مع الآخرين بمحبة وقبول. وعندما يشعر الآخرون بمحبة الله وقبوله من خلالنا، يثقون أكثر في أنهم محبوبون وذو قيمة ونافعون لله. وبالتالي ينمون كخدام ينقلون بدورهم محبة الله وقبوله لنا. وهكذا تستمر عملية الخدمة ونحن «نُلَاحِظْ بَعْضُنَا بَعْضًا لِلتَّحْرِيضِ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ» (عب ١٠: ٢٤).

في محيط بيئة التغيير هذه، نتعرض لمزيد من نور الله. وعندما يفيض نور حق الله في حياتنا، سوف نرى أنفسنا كما يرانا الله، وهو ما يدور في فكر الله دائمًا.

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله، ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله طويل الأناة. نقرأ في رسالة رومية: «أَمْ تَسْتَهِينُ بِغِنَى لُطْفِهِ وَإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ، غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّ لُطْفَ اللهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ؟» (رو ٢: ٤).

- ماذا يعني لك أن الله يتمتع بطول الأناة؟

- ماذا يعني أن الله الذي يتمتع بطول الأناة يريدك أن تنمو وتختبر محبته لك من خلال محبة المؤمنين الآخرين واهتمامهم؟

(٢) الله يعتني بك. نقرأ في سفر المزامير: «الَّذِي يَفْدِي مِنَ الْحُفْرَةِ حَيَاتَكِ. الَّذِي يُكَلِّلُكِ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ» (مز ١٠٣: ٤).

- ماذا يعني لك أن الله يكللك بالرحمة وبالرأفة؟

- ماذا يعني لك أن الله يعتني كثيرًا جدًا بكمالك حتى أنه يحيط بك بأشخاص يتسمون بالرقة وبالحب؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنت مميّز". نقرأ في سفر التثنية: «وَأَنْتُمْ قَدْ أَخَذَكُمُ الرَّبُّ... لِكَيْ تَكُونُوا لَهُ شَعْبَ مِيرَاثٍ كَمَا فِي هذَا الْيَوْمِ» (تث ٤: ٢٠).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله أنقذني لكي أكون خاصته وميراثه. وأستطيع أن أقول بثقة أنني أغلى مقتنيات الله وأجملها".

- ماذا يعني لك أن الله يريدك أن تكون ابنه الخاص والمميّز؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك عندما أنقذك وجعلك شخصًا مميّزًا؟

(٢) يقول الله:"أنك تنمو". نقرأ في رسالة بولس الرسول الأولى إلى تسالونيكي «وَالرَّبُّ يُنْمِيكُمْ وَيَزِيدُكُمْ فِي الْمَحَبَّةِ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ وَلِلْجَمِيعِ، كَمَا نَحْنُ أَيْضًا لَكُمْ» (١تس ٣: ١٢).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله سينميني وسيزيد محبتي للمحيطين بي، كما سيزيد محبة المؤمنين الآخرين ليّ".

- ماذا يعني لك أن الله يريدك أن تنمو، وسيفعل ذلك في حياتك؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك في مساعدته لك لكي تنمو لتقترب من صورته؟

اقضِ وقتًا لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه. واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وفي هُويتك ونظرتك لنفسك.

الفصل الرابع عشر
الرؤية الأشمل لهُويتك

عندما تناولنا في الفصل التاسع قصة إقامة الرب يسوع للعازر، لاحظنا أن الرب يسوع أقام لعازر ثم أمر أصدقاءه وأسرته أن يفكوا أربطته المربوط بها حتى يتحرر، لكن لماذا يجب أن يتحرر؟ وما هو القصد من تحريره؟

دعونا نسأل هذا السؤال لأنفسنا: ما هو الغرض أو القصد من استعادة النظرة الصحيحة عن هُويتنا؟ هل السبب هو أن نشعر بشعور أفضل تجاه أنفسنا؟ أم السبب هو أن نشعر بالراحة النفسية؟ أم السبب هو أن نشعر بالتحرر من أجل التحرر ذاته؟ بالطبع لا؛ فالله له قصد أعمق كثيرًا يهدف إلى تجديد صورتنا الذاتية المشوهة. وهو يريدنا أن نكون مقتنعين تمامًا بأننا محبوبون وذو قيمة وأكفاء؛ لأنه سيكلفنا بعمل يجب أن نقوم به.

هل تدرك أننا- أنت وأنا- هبة الله للعالم؟ إذا كنت لا تدرك ذلك، فهذا يعني أنه لا يوجد سبب لوجودنا هنا. وسيكون من المعقول لو أخذنا الله مباشرة إلى السماء في اللحظة التي آمنا فيها بالمسيح. الحقيقة أن الله يتركنا هنا على الأرض حتى بعد أن نؤمن به، لأننا هبات أرسلها الله للبشرية، ولأننا نملك معنىً مميزًا لوجودنا هنا. لكن القصد من وجودنا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالصورة التي يرانا الله بها وكيف نرى نحن أنفسنا. وبالتالي إنه لأمر حيوي لنظرتنا لهُويتنا أن نفهم هدفنا في الحياة.

كانوا يطلقون على «بوب» المدير "صائد المواهب" فهو شخص يسعى

بقوة لتعيين موظفين إداريين للشركات الأخرى. وذات يوم كان يشرح لي كيف يعقد مقابلات شخصية مع المتقدمين للوظائف، وقال لي: "يا چوش، عندما أجد موظفين أريد التعرف عليهم، أحب أن أهدئ من روعهم؛ فأدخلهم في مكتبي، وأقدم إليهم مشروبًا، ثم أخلع معطفي وأفك رابطة العنق التي أرتديها، وأضع رجليّ على المكتب، وأسألهم عن اهتماماتهم؛ سواء كانت ممارسة الرياضة أو المشي أو قراءة الكتب أو الاهتمام بالأسرة أو أي شيء آخر. وعندما يسترخون ولا يشعرون بأي نوع من التهديد، أميل نحوهم وأنظر في عيونهم مباشرة وأقول: ما هو هدفك في الحياة؟ إنه لأمر مدهش أن ترى كبار الموظفين ينهارون عندما يسمعون هذا السؤال. إنهم لا يعرفون كيف يجاوبون".

"الله يريدنا أن نكون مقتنعين تماماً بأننا محبوبون وذوو قيمة وأكفاء: لانه سيكلفنا بعمل يجب أن نقوم به."

وأكمل «بوب» قائلاً: ذات يوم عقدت مقابلة أدهشتني حقًا، وكالعادة وضعت قدمي على المكتب، وكنت أتكلم معه عن كرة القدم. وكان هذا الشخص يشعر باسترخاء شديد. ثم اقتربت منه وهجمت عليه بسؤالي القاتل: "ما هو هدفك في الحياة يا «ناثان»؟" فنظر إليّ «ناثان» بالطريقة نفسها التي نظرت بها إليه وبدون أن يرمش بطرف عينه، وقال: "هدفي في الحياة أن أذهب إلى السماء، وآخذ معي أكبر عدد ممكن من الناس على قدر ما أستطيع". ولأول مرة خلال تاريخي المهني لم أستطع أن أجيب بكلمة.

إنني أحب إجابة «ناثان»، واستخدمها مرات عديدة في حياتي. كان «ناثان» يدرك أن قيوده قد انفكت ويستطيع أن يفك قيود الآخرين. كان يعرف أن الله خلقه إنسانًا جديدًا وأطلقه حرًا حتى يجهزه ليكون عضوًا في جسد المسيح ويعمل على تحرير الآخرين أيضًا.

لابد أن تولّد نظرتك الصحيحة لهُويتك الحقيقية بصفتك ابن لله- محبوب وذو قيمة وكُفء- رغبة في أن تصبح جزءًا من خطة الله لخلاص العالم. عندما تستوعب فكرة أن الله خلق كل إنسان على صورته، وأرسل السيد المسيح ليموت عن كل واحد، سيكون لديك الرغبة في أن تشارك حبه مع الآخرين. مثلك في ذلك

مثل «ناثان»، فلن ترضى بأن تذهب للسماء بمفردك. وإنما سترغب في أن تأخذ معك آخرين قد مات المسيح أيضًا لأجلهم، ويصبح ذلك هدفًا لك في هذه الحياة.

قد تقول: "لكن يا «چوش» القليل جدًا جاءوا إلى المسيح من خلال كلامي معهم مباشرة". ربما يكون ذلك صحيحًا، لكن يوجد بالمثل عدد من الناس في طريقهم إلى الإيمان بالمسيح بسبب الهُوية التي لك في المسيح وعلاقتك بهم التي تعبِّر عن حب الله لهم. فليس عليك أن تقود غير المؤمنين إلى المذبح لتحقق هدفك. ولكن الطريقة التي ستعيش بها ستكشف لهم عن شيء مختلف، وهي تعبر عن هُويتك ونظرتك لنفسك. فإذا كنت مؤمنًا، وترى نفسك بصفتك ابن لله محبوب وذو قيمة وكفء سوف تستطيع بذلك أن توصّل شيئًا من الإنجيل للآخرين. وعندما تضيف إلى شهادتك الحية عنصرًا آخر وهو الحديث عن السيد المسيح عندما تسنح الفرصة لك، فإنك سترى الكثيرين يرجعون إلى المسيح من خلال مجهوداتك.

الشهادة للمسيح فيض نابع من هُويتنا

غرس تعليمنا المسيحي في أذهان الكثيرين منّا أنه ينبغي أن نشارك المسيح مع الآخرين. ولكن هؤلاء الذين ليس لديهم نظرة صحيحة لهُويتهم كأبناء لله، سيولد لديهم هذا التحدي مزيدًا من الإحساس بالذنب بمرور الوقت؛ لأنهم لا يرون أحدًا جاء إلى المسيح من خلالهم. وفي الواقع ربما تبدو صورتنا الذاتية مشوهة بصورة أكبر؛ لأننا نشعر أن الله يحبنا بشكل أقل لأن شهادتنا لم تأتِ بثمر.

يقتنع الكثير من المؤمنين بأن حياتهم ليست على ما يرام حتى يصبحوا شهودًا للمسيح. ولسان حالهم يقول: "عليّ أن أنظم حياتي أولاً قبل أن أكلِّم الآخرين عن المسيح". وتكمن المشكلة في أننا لن نستطيع أن ننظم حياتنا بشكل كامل. وهكذا يحاول هؤلاء أن يعيشوا حياة بالكاد تكون صالحة، وبالتالي دائمًا ما يشعرون بالتقصير والذنب والإحباط وخيبة الأمل. ويخشى البعض الآخر من ردود الفعل السلبية التي قد يتلقونها عندما يتكلمون مع الآخرين عن المسيح،

ولا يريدون أن يضايقوا الخطاة أو يأنبوهم، وبالتالي لا يقولون شيئًا يُذكر. بينما يقتنع البعض الآخر أنهم سيرتبكون في محاولاتهم لمشاركة الإنجيل، وبالتالي يتركون مستمعيهم أكثر تشويشًا.

وتعد مثل هذه الأعذار دليل على أنهم يرون الشهادة للمسيح باعتبارها شيء «نفعله» بدلاً من شيء «ينبع» من هُويتنا. كذلك يعكس التركيز على نظرة متدنية لهُويتنا في المسيح؛ لأن المسيحية تتعلق بشكل أكبر بهُويتنا وليس أفعالنا. إذا كانت أحد المخاوف التي ذُكرت سابقًا تميّز طريقة تجاوبك مع مسألة الشهادة للمسيح، فقد يكشف ذلك عن جانب ما من هُويتك بحاجة إلى التغيير.

فإذا كنت تشعر بأنك لا تصلح بشكل كافٍ لكي تشهد عن المسيح، فإن نظرتك لمحبة الله لك محدودة. وكلما زادت رؤيتك لنفسك كما يراك الله- أي أن تشعر بالقبول غير المشروط، وأن تستوعب أن الله سامحك وقد خلقك على صورته- قل تركيزك على ضعفاتك كعائق بالنسبة لك. تأكد تمامًا أن الله يحبك ويريد أن يستخدمك حتى أثناء عملية نضجك الروحي. ولو انتظر المسيح حتى نصل للنضج الكامل قبل أن يرسلنا لنشارك بالإنجيل مع الآخرين، فإنه سينتظر حتى نذهب إلى السماء! فضلاً عن ذلك، لو كان جميعنا كاملين، فإن هؤلاء الذين نشارك معهم الإنجيل سيحبطون ظنًا منهم أنهم لن يستطيعوا أن يصلوا إلى مستوانا، ولكن محبة الله والشهادة له تتدفق من هؤلاء الذين يرون أنفسهم محبوبين ومقبولين بغض النظر عن عيوبهم أو نقائصهم.

أمّا إذا كنت تخاف من أن تلقى ردود فعل سلبية عند شهادتك للمسيح، فإنك لم تتأكد بعد من قيمتك في نظر الله. كما أن اعتمادك الزائد على الآخرين في شعورك بالرضى يعني أنك تعاني من رؤية ضعيفة لقيمتك كشخص في نظر الله. ما الشيء الذي يخيفك؟ إن الله يقدِّرك تقديرًا كبيرًا حتى أنه سمح لابنه أن يموت بدلاً منك. إن إله الكون يحبك، وأنت ذو قيمة عنده، وحتى إن كان كل الذين تعرفهم يرفضون أن يستمعوا لك، أنت لا تزال ذا قيمة كبيرة عند الله. ولا بد أن يقودك الخوف من ردود فعل الآخرين بسبب شهادتك للمسيح إلى إصلاح الجانب الأساسي الثاني من هُويتك وهو شعورك بقيمتك عند الله.

أمّا إذا امتنعت عن الشهادة لأنك تخاف أن تقول شيئًا خطأ أو تتلعثم في كلماتك، فهذا يعني أن نظرتك محدودة لكفاءتك من وجهة نظر الله، وقوتك به. بمعنى أنك تقول لله: "أعرف أنك تريد مني أن أشهد عنك، لكن عليك أن تستخدم شخصًا آخر أكثر مهارة وثقة مني؛ لأني لا أمتلك هذه المواصفات". إن الهدف من الشهادة لا يعتمد على ما تقوله أو كيف تتقن ما تقوله، ولكن بالأحرى، يعتمد على هُويتك بصفتك ابن لله. فأنت مميّز ونافع له بكل ما فيك. فلا يوجد شخص آخر يشبهك من بين أكثر من ستة مليارات في العالم. إن الله يعرف نقاط قوتك وضعفك ويستطيع أن يستخدمك بغض النظر عن شعورك في بعض الأوقات بعدم الكفاءة. وكل ما تحتاج إليه هو أن تصلي هذه الصلاة: "يا رب، أريد أن أكون كما خلقتني أنت، وأشارك إيماني بقدر ما أستطيع، وأترك الثمر عليك".

اكتسب الحق في أن تكون مسموعًا

أحد العوامل المهمة في مشاركة المسيح مع العالم أن تفعل الخير للآخرين. فالكتاب المقدس يوصينا بأن نفعل ما هو حق وصالح للآخرين. يعلمنا الرسول بولس قائلاً: «فَلْيُرْضِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا قَرِيبَهُ لِلْخَيْرِ، لأَجْلِ الْبُنْيَانِ» (رو ١٥: ٢). وقال في موضع آخر: «فَإِذًا حَسْبَمَا لَنَا فُرْصَةٌ فَلْنَعْمَلِ الْخَيْرَ لِلْجَمِيعِ، وَلاَ سِيَّمَا لأَهْلِ الإِيمَانِ» (غل ٦: ١٠). كذلك يشجعنا بولس قائلاً: «أَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلاَ تَفْشَلُوا فِي عَمَلِ الْخَيْرِ» (٢تس ٣: ١٣)، وأيضًا قال: «فَلاَ نَفْشَلْ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ» (غل ٦: ٩). فنحن عندما نعمل الخير مع الآخرين، يصبح لديهم فرصة أن يروا المخلص فينا.

وبالإضافة إلى أن الله يُظهر نفسه من خلال أعمالنا الصالحة للآخرين، يمكنه أيضًا يُظهر نفسه للآخرين عندما نبذل أقصى ما في وسعنا في أي من المواقف. لقد حث الرسول بولس أهل غلاطية قائلاً: «وَلكِنْ لِيَمْتَحِنْ كُلُّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ لَهُ الْفَخْرُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ فَقَطْ، لاَ مِنْ جِهَةِ غَيْرِهِ» (غل ٦: ٤). إن الرغبة في أن تبذل أقصى ما في وسعك تختلف عن الرغبة في أن تكون الأفضل في شيء ما؛ لأن محاولتك لتكون أفضل تعني أنك تقارن نفسك بالآخرين، وهذا أمر مرفوض

حسب تعاليم الكتاب المقدس. إن قيامك بأقصى ما تستطيع يجب أن يبعد الأضواء عنك ويسلطها على الله ليتمجد من خلال ما تقوم به. وعندما تستخدم مواهبك ومهاراتك وإمكانياتك بقوة الروح القدس، فلا يهم ما يفعله الآخرون. إن الله سيستخدم مجهوداتك في جذب الآخرين لنفسه.

في سلام من جهة هُويتنا

ذات يوم كنت على متن طائرة، ورأيت شيئًا غريبًا. كانت مضيفة الرحلة التي تقوم بتحية الركاب المسافرين على متن الطائرة تمسك بيدها باقة جميلة من الورود. لقد سافرت آلاف المرات في رحلات عمل، لكني لم أرَ مطلقًا من قبل أي من المضيفات تمسك بباقة من الورود.

فأوقفتها وسألتها: "هل صديقكِ أحضر لكِ هذه الورود؟"

وردت عليّ قائلة: "لا"

"إذًا زوجك؟"

فهزت رأسها نافية

فقلت: "إذًا مَنْ أحضرها لكِ؟"

فقالت وعلى وجهها ابتسامة عريضة: "أنا أحضرتها لنفسي". ذهبت إلى مقعدي، ووضعت حقائب اليد، ثم عدت إليها، وقدمت نفسي إليها. وخلال حديثنا، قلت لها أني أعمل في خدمة مسيحية، وقالت لي أنها هي أيضًا مؤمنة بالمسيح. وكنت لا أزال أشعر بالفضول فيما يتعلق بالورود، فسألتها: "لماذا اشتريتي لنفسك هذه الورود؟"

أجابت في الحال: "لأني أحب نفسي".

يا لكثرة الوسائل التي يمكنك من خلالها مشاركة الآخرين عن السيد المسيح! إن الصورة التي نرى بها أنفسنا بوسعها أن تحدث كل الاختلاف في تأثير شهادتنا الحية التي نشهد بها عن المسيح. وعندما ننمو في سلام مدركين أن الله يحبنا

ويقدِّرنا ويستخدمنا، فإننا نصبح مثل ما يسميه الرسول بولس «رَائِحَةُ حَيَاة» لهؤلاء الذين يبحثون بشدة عن السلام الذي نتمتع به بصفتنا أولاد الله (٢كو ٢: ١٦).

لم يشعر شخص بالسلام نحو هُويته بصفته خليقة الله مثل الملك داود. وإليكم أحد المزامير التي ألفها محتفيًا بحضور الله ومعرفته وسلطانه على كل جوانب حياته:

«يَا رَبُّ، قَدِ اخْتَبَرْتَنِي وَعَرَفْتَنِي. أَنْتَ عَرَفْتَ جُلُوسِي وَقِيَامِي. فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيد. مَسْلَكِي وَمَرْبَضِي ذَرَّيْتَ، وَكُلَّ طُرُقِي عَرَفْتَ. لأَنَّهُ لَيْسَ كَلِمَةٌ فِي لِسَانِي، إِلاَّ وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَهَا كُلَّهَا. مِنْ خَلْف وَمِنْ قُدَّام حَاصَرْتَنِي، وَجَعَلْتَ عَلَيَّ يَدَكَ. عَجِيبَةٌ هذه الْمَعْرِفَةُ، فَوْقِي ارْتَفَعَتْ، لاَ أَسْتَطِيعُهَا. أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟ إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَأَنْتَ هُنَاكَ، وَإِنْ فَرَشْتُ فِي الْهَاوِيَةِ فَهَا أَنْتَ. إِنْ أَخَذْتُ جَنَاحَيِ الصُّبْحِ، وَسَكَنْتُ فِي أَقَاصِي الْبَحْرِ، فَهُنَاكَ أَيْضًا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ... لأَنَّكَ أَنْتَ اقْتَنَيْتَ كُلْيَتَيَّ. نَسَجْتَنِي فِي بَطْنِ أُمِّي. أَحْمَدُكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي قَدِ امْتَزْتُ عَجَبًا. عَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ، وَنَفْسِي تَعْرِفُ ذلك يَقِينًا. لَمْ تَخْتَفِ عَنْكَ عِظَامِي حِينَمَا صُنِعْتُ فِي الْخَفَاءِ، وَرُقِمْتُ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ. رَأَتْ عَيْنَاكَ أَعْضَائِي، وَفِي سِفْرِكَ كُلُّهَا كُتِبَتْ يَوْمَ تَصَوَّرَتْ، إِذْ لَمْ يَكُنْ وَاحِدٌ مِنْهَا. مَا أَكْرَمَ أَفْكَارَكَ يَا اللهُ عِنْدِي! مَا أَكْثَرَ جُمْلَتَهَا!» (مز ١٣٩: ١- ١٠، ١٣- ١٧).

عرضت عليكم أفكار رجل كان في سلام مع نفسه بصفته خليقة الله المحبوبة التي يعتز بها. ولا عجب في أن الله قد استخدمه بطريقة مؤثرة جدًا بصفته ملك إسرائيل بالرغم من إخفاقاته وسقطاته الواضحة. وبدون شك تُعد المزامير التي كتبها شهادة قوية على محبة الله وخلاصه للبشر على مر القرون. ويوضح مثال داود أن المعرفة التي تنمو في الله والوعي المتزايد بالصورة التي يرانا بها الله يمثلان مطلبين لا غنى عنهما في الشهادة المثمرة والفعالة للمسيح.

إن حفظ آيات الكتاب المقدس ووضع خطة تدريجية للشهادة هما أمران مهمان، لكن هذه الأدوات ليست بديلاً عن الشهادة التي تتدفق من حياة

المؤمنين الذين يعرفون مكانتهم في المسيح ويحبون أنفسهم بسبب هذه المكانة.

حجرة مليئة بالورود

قضيت ليلة رأس السنة على مدار عدة سنوات وحيدًا في حجرة بفندق "لاجونا بيتش" في ولاية كاليفورنيا بعيدًا عن بيتي وأسرتي. وفي تلك الأيام كان جدولي مزدحمًا بسلسلة من العظات سأقدمها في الفترة ما بين الكريسماس ورأس السنة. وقد بدأت هذه الجولة من الساحل الشرقي حيث قضيت أنا وأسرتي عيد الميلاد مع والدي «دوتي» زوجتي. وفي اليوم التالي، بدأت أسبوع السفر، وتحدثت في مؤتمرات للشباب حتى أنهيت الجولة في الساحل الغربي بحلول رأس السنة. وكانت أسرتي لا تزال موجودة في إنجلترا، وكنت منهكًا عاطفيًا وجسديًا وروحيًا. وكانت تلك الفترة من أصعب الليالي التي قضيتها وأنا أشعر بالوحدة. وذات مرة، سافرت إلى جنوب كاليفورنيا وجاء لاستقبالي في المطار صديقي «دون ستيوارد». وبينما كنا نسير بالسيارة في وادي «لاجونا» في طريقنا إلى الفندق، مررنا برجل وزوجته يقفان على جانب الطريق ويبيعان الورد من سيارتهما. وطلبت من «دون» أن يتوقف، ونزلت واشتريت باقة ورد كبيرة لدرجة أنني حشرت نفسي بصعوبة أنا والورود في سيارة صديقي «دون» الصغيرة ماركة «هوندا سيفيك»، ولكن في النهاية تمكنت من الجلوس بالسيارة.

وقاد «دون» السيارة في صمت وهو يتساءل في نفسه عن الورد الذي اشتريته. وكنت متأكدًا أنه يفكر قائلاً: ماذا يفعل چوش؟ إنه حاليًا يعيش بمفرده، فزوجته وأولاده بعيدين عنه بثلاثة آلاف ميل، وسيقضي ليلة رأس السنة في غرفة بالفندق مع هذه الباقة من الورود! أنا أعرف چوش من سنوات، هل هو حقًا القائد المسيحي الذي أعرفه؟

قادنا في صمت لمسافة ثم انفجر قائلاً: "قل لي من أجل المسيح! لماذا كل هذه الزهور؟"

وفي حماسة نسبت ذلك إلى قصة مضيفة الطائرة التي اشترت لنفسها باقة من الورود. وختمت كلامي أن هذه الورود تذكرني بمن هو الله وما فعله الرب

يسوع لأجلي ومَنْ أنا بنعمة الله. والليلة سأضع كل هذه الزهور في غرفتي بالفندق لتذكرني أن الله يحبني ويعتني بي ويسامحني، وأنه بوسعي أن أقبل نفسي بصفتي خليقة الله المتميزة.

وستجعلني هذه الورود أظل شاكرًا لأن الله استخدمني هذا الأسبوع لأتحدث مع العالم عن حبه، حتى وأن كنت أقضي ليلة رأس السنة وحيدًا في غرفة بأحد الفنادق. ربما جاء الوقت الذي تذهب فيه لتشتري باقة من الورد لنفسك، أو ربما تحتاج ببساطة أن تقول لله: "أشكرك يا رب من أجل ما أنا عليه، شكرًا على محبتك غير المشروطة لي حاسبًا أياي مستحقًا لذبيحة ابنك، وتريد أن تستخدمني لأشارك الآخرين كما تراهم أنت أيضًا. إنني أضع بين يديك إمكانياتي المحدودة وشكوكي حتى تستطيع أن تجعل مني أداة أفضل لأشارك العالم عن حبك".

نحو صورة أوضح لهُويتك الحقيقية

يتضمن جزء من فهمك لنفسك فهم مَنْ هو الله، واختبار ما في قلبه من نحوك. تأمل الحقائق الآتية عن الله، ورجاءً اقضِ وقتًا لتكتب إجابتك عن هذه الأسئلة في كراسة ملاحظات أو دفتر يومياتك.

(١) الله سخي في محبته. نقرأ في سفر التثنية: «لَيْسَ مِنْ كَوْنِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ، الْتَصَقَ الرَّبُّ بِكُمْ وَاخْتَارَكُمْ، لأَنَّكُمْ أَقَلُّ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ. بَلْ مِنْ مَحَبَّةِ الرَّبِّ إِيَّاكُمْ، وَحِفْظِهِ الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمَ لآبَائِكُمْ، أَخْرَجَكُمُ الرَّبُّ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ» (تث ٧: ٧، ٨).

- ماذا يعني لك أن الله غمرك بمحبته؟

- ماذا يعني لك أن الله السخي في محبته يريدك أن تشارك فيض تلك المحبة مع الآخرين؟

(٢) الرب هو حاميك. نقرأ في رسالة العبرانيين: «وَإِلهُ السَّلاَمِ الَّذِي أَقَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ رَاعِيَ الْخِرَافِ الْعَظِيمَ، رَبَّنَا يَسُوعَ، بِدَمِ الْعَهْدِ الأَبَدِيِّ، لِيُكَمِّلْكُمْ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ لِتَصْنَعُوا مَشِيئَتَهُ، عَامِلاً فِيكُمْ مَا يُرْضِي أَمَامَهُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي لَهُ الْمَجْدُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. آمِينَ» (عب ١٣: ٢٠، ٢١).

- ماذا يعني لك أن الله سيكملك بكل ما تحتاجه لتصنع مشيئته؟

- ماذا يعني لك أن الله سيعمل فيك كل ما يرضيه؟

يتضمن جزء آخر من فهمك لنفسك سماع ما يقوله الله عنك. استمع لصوت الله وهو يتحدث إليك:

(١) يقول الله: "أنتم شهودي". نقرأ في سفر أعمال الرسل «لكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُونَ لِي شُهُودًا فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ» (أع ١: ٨).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله أرسل روحه القدوس إلى حياتي، حتى

أشهد بقوة الروح القدس للآخرين عن كل ما فعله الله لأجلي".

- ماذا يعني لك أن حياتك تمثل شهادة حية عن محبة الله؟

- هل تشعر بقلب الله نحوك في اختياره لك لتكون شاهدًا له؟

(٢) يقول الله: "أنا دعوتك". نقرأ في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: «الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا مَدْعُوُّو يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (رو ١: ٦).

- خذ هذه الآية بصورة شخصية: "الله خالق هذا الكون دعاني لأكون ابنه، ولأنتمي إليه، وأشارك محبته مع الآخرين".

- ماذا يعني لك أن الله قد دعاك وأعدك لتكون شاهدًا له؟

- هل تشعر بقلب الله من نحوك وهو يدعوك لتشهد له؟

اقضِ وقت لتشكر الله على ما أعلنه لك عن نفسه، واستمع له وهو يتحدث بهذه الكلمات إلى قلبك خلال الأيام والأسابيع المقبلة. ودع هذه الحقائق الكتابية تعمل عملاً عميقًا في قلبك وفي نظرتك لنفسك وهُويتك.